إريك لوران

عاصفة الصحراء

ترجمة : منيرة أسمر

عاصفة الصحراء

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
بيروت - لبنان
ص.ب - ٨٣٧٥
هاتف: ٨٦٢٤٣١ - ٨٦٥٤٠٧
تلكس - ٢٢٦٦١
فاكس - ٠٠٣٥٧٩٥٢٢١٠٧
بناية الوهاد - شارع جان دارك - بيروت

الطبعة الثانية
١٩٩١م - ١٤١٢هـ

تصميم الغلاف: جورج سرياو

الفصل الأول

قسم جورج بوش

لقد عرف أنه قد فقد كل شيء. السلطة أولاً ثم المكانة التي أمِل أن يحتلها إسمه في تاريخ بلاده. كان يحلم أن يكون رئيساً كبيراً على رأس أمّة مزدهرة ومتحدة غير أنه خَلّف أميركا مقسمة، وقد صدمتها نفسياً حرب تدور رحاها على بعد عشرين ألف كيلومتر من حدودها. فأخذ المتظاهرون المتكاثر عددهم في كل يوم، والذين يشاركون في الاستعراضات السلمية يصرخون: «إيه، ليندن جونسون. كم صبياً قد قتلت اليوم؟

كان ذلك امتحان لا يطاق بالنسبة لرجل هو على الأرجح أكثر جلاءً في الرؤية من أغلبية معاونيه. فقد ضايقته مسائل السياسة الخارجية وانتابته شكوك متصاعدة: كعدم انتصار قوة أميركا في فيتنام، أو إذا حدث ذلك فبثمن غالٍ.

لقد وصل جونسون إلى الرئاسة في سنة ١٩٦٣، عقب مأساة اغتيال سلفه. وتركها بعد انقضاء خمس سنوات، وهو بدوره ضحية مأساة أخرى. لقد فضّل في آذار ١٩٦٨ ألا يعلن ترشيح نفسه ثانية. واليوم في ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٩ راح يمضي آخر ساعاته في البيت الأبيض. كان ذلك اليوم رمادياً، مكمّداً والهواء البارد يعصف بواشنطن. فوقف طويلاً أمام النافذة المطلة على المرجة الجنوبية الكبيرة يمتد به المشهد إلى تمثال جونسون التذكاري. ثم جال للمرّة الأخيرة في الأروقة المُقفرَة. كان يقيّم في هذه الأماكن أهمية سلطته وحدودها. لم يكن يريد هذه الحرب، لكنه ورثها. وبينما لم يكن يحلم إلا بإصلاحات داخلية، راح يُلتقفُ شيئاً

فشيئاً حتى توصل بنفسه إلى اختيار أهداف العدو التي يجب أن تُقصف. وكذب في الكونغرس أيضاً على الرأي العام.

واخذت المبادىء التي تؤمن بها أميركا يقيناً تتزعزع تدريجاً. وأصبح جونسون تقريباً، إضافة إلى ذلك رهينة العسكريين وهم رجال لم يُدخلوا الإخفاق يوماً في توقعاتهم.

لقد تمَّ الإخفاق الآن، والرئيس الأسبق يجلس في القاعة الحمراء حيث فرقعة النيران في المدخنة، يتناول أطراف الأحاديث مع خلفه «ريتشارد نيكسون» وبعدها بقليل ينتقل إلى «الكابيتول» ليحضر حفلة التقليد. وختم نيكسون قسمه بالكلمات الطقسية: «فليكن الله بعوني». جملة لم يكن آنذاك قادراً على إدراك وزنها. كان نيكسون وجونسون واقفين جنبا إلى جنب والبرد يلفح وجهيهما. كانا يرمزان، في نظر الرأي العام إلى «البراءة المفقودة» في اميركا بسبب «حرب لا اخلاقية» ولذلك أصبح كلاً منهما ضحية تكفرية؟

بيد أنه، وفي هذه اللحظة كانت تنتابهما مشاعر متعارضة: فبينما كان ريتشارد نيكسون يتلذذ بنشوة النجاح، اخذ الحزن والمرارة يجتاحان نفسية جونسون.

فقد سافر هذا الأخير برفقة زوجته إلى قاعدة أندروس العسكرية الواقعة بالقرب من العاصمة الفيدرالية. وكانت الطائرة الرئاسية ـ البوينغ ـ «Air force one» بانتظاره للرحلة الأخيرة التي ستعيده إلى «تكساس». لقد تمكن من إدراك مدى وحدته بالنسبة لقلة عدد الأشخاص الذين جاءوا يحيونه. فحاول أن يظهر للجميع وجهاً هادئاً. وعرف أغلبهم وهم أقرباء له أو معاونون، أو أصدقاء قدامى، حيث

كانوا مجموعة من الأوفياء.

وبُغت باكتشاف رجلٍ في العقد الرابع من العمر، أهيف القامة، اسمر اللون كان قد وصل لتوه، ينتظر واقفاً أمامه. وقد التقاه لأوقات قليلة في بعض المناسبات. فأجهد جونسون نفسه ليتذكر اسمه: كان يبني ثروته من البترول في تكساس، وهو واحد من الذين يعوّل عليهم الحزب الجمهوري آمالاً كبيرة.

ـ باركك الله؟ سيدي الرئيس.

كان الرجل قد لفظ هذه الكلمات بوقار وإخلاص.

ـ شكراً لمجيئك يا «جورج» أجاب جونسون وهو يصافحه: لم يكن باستطاعة الرئيس الديموقراطي السابق أن يتخيل أن الرئيس الواحد والأربعين المقبل للولايات المتحدة هو الذي كان يصافحه. بعدها صرّح جورج بوش للمقربين إليه في سياق هذه الحادثة التي كان قد كتمها قائلاً: «رأيته وقد حطمته تجارب ونحن لم يكن بمقدوره يوماً، أن يؤثر عليها أو يريدها. ومنذ تلك اللحظة أقسمت على نفسي أن شيئاً كهذا لن يحصل لي أبداً».

الفصل الثاني

الله يفكر في اميركا

بدأ جورج بوش ولايته رسمياً في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٨٩ وتحديداً بعد عشرين سنة من لقائه وليندن جونسون. كانت البلاد قد استعادت تدريجاً السلام ونوعاً من السكون؛ ولو لم يكن شبح فيتنام قد طُرد نهائياً فإنه قد ابتعد كثيراً. ففي أثناء ولايته كان رونالد ريغن قد أتاح الفرصة لأكثرية الأميركيين باستعادة ايمانهم وثقتهم ببلادهم. أما بوش نفسه فكان يتمنى أن يشاركه العالم الثقة بقوة الولايات المتحدة المستعادة. وقد عرف بذكائه ودقته وانكبابه على العمل. أما هدوءه المطلق ورباطة جأشه، فكانا يخفيان انفعالية يرى أنها مفرطة. وتعلم الكثير في المراكز المختلفة التي شغلها؛ من سفير في الأمم المتحدة، ثم في الصين، إلى مدير ونائب رئيس في CIA. وهيأ نفسه بعناية للمهمة التي اعتبرها معدَّة له، وهي الرئاسة.

لم يكن يعتبر نفسه رجلاً سياسياً وصل إلى القمة فحسب، بل رجل دولة اضطرته بما له من تمرس أن يتبع طقوس السياسة. وقليلاً ما تكلم عن عقيدته وماضيه على الرغم من أنهما عنصران أساسيان لفهم موقفه في مواجهة الأحداث.

في إحدى الأمسيات، وبعد أن انفجرت أزمة الخليج ببضعة أسابيع، دخل فجأة إلى مكتب «برانت سكوكروفت»، رئيس مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض.

وسكوكروفت، رجل رقيق، أهيف ومتحفظ، له من العمر خمسة

وستون عاماً، نحيل الوجه، كان قائداً سابقاً في سلاح الطيران الأميركي. أما ظهوره الأول في السياسة الخارجية فقد تمَّ إلى جانب «هنري كيسنجر». وقد عرف بدقته، واتزانه وفاعليته، وكتمانه، وهي نوعية من الرجال التي يقدِّرها بوش. فتباحثا حول قضية ضم صدام حسين للكويت، وأقاما مقارنات تاريخية. واتفق الإثنان، فاعتبرا أن التشبيه الأصح الذي كان من الممكن إقامته هو ذلك الذي وجد في أوروبا حين تصاعدت النازية فيها بقوة.

كان الرجلان يتحاوران وقوفاً. وكان مكتب سكوكروفت الصغير والضيّق، يقع في أحد أجنحة البيت الأبيض. فاقترب بوش من إحدى النوافذ، بدا وكأنه يحدِّث نصب لينكولن التذكاري المضاء بالأنوار، والذي كان يشبه هالة بعيدة.

ـ لدي يقين يا برانت. عندما كنت في أيلول ١٩٤٤، أقود قاذفة القنابل، وقد أسقطها اليابانيون، تساءلت آنذاك وكنت أعوم في وسط المحيط الهاديء، لماذا بقيت على قيد الحياة. ثم فهمت: «أنه كان عند الله بالنسبة لي مشروع ما».

«كيف حال قلبك يا ديك؟»

اجتهد بوش، منذ أن انتخب، بتأليف فريق من حوله، قوامه رجالٌ متحدون وذوو خبرة. فكانت له أول هزيمة يتكبدها. واختار للمركز الرئيسي الذي يشغله وزير الدفاع، سيناتور تكساس، جون تاور. فباشر مجلس الشيوخ، وأكثريته من الديموقراطيين، والذي كان راغباً في بدء المناوشات مع الرئيس الجديد برفض هذا الترشيح. كان «تاوِر» رجلاً صغير القامة، سميناً، لاذع اللسان، وصديقاً لبوش منذ

سنين طويلة. وكان إحدى الشخصيات المتنازع عليها في واشنطن المدينة التي أرادت لنفسها أن تكون كتومة وفاضلة. وكان هذا الجمهوري التقي والصلب، المؤيد لتقوية الميزانيات العسكرية يتميز أيضا بوضوح كلامه، وتذوقه الولائم المترفة بالكحول برفقة النساء الجميلات. فعُرضت حياته الخاصة، وكثر التعليق على طلاقه الأول والثاني. ودام نزاع حياة تاور السياسي حوالي ثلاثة أشهر.

وفي ٤ آذار ١٩٨٩، بدا جلياً لبطانة الرئيس أنه لم يعد من الممكن إنقاذه. وعند غروب ذلك اليوم دخل جون سونونو «النائب العام في البيت الأبيض» إلى المكتب ذي الشكل البيضاوي. وهو صاحب قامة ضخمة يلبس نظارات سميكة، معروف بطبعه الصعب، زد على ذلك أنه اختصاصي قديم في المعلوماتية. كان لتوه قد أخذ علماً بخبر مزعج، وهو المكلَّف بصفة شبه رسمية بالعلاقات بين الرئيس والكونغرس. فبادره بوش الجالس على كرسي الرئاسة والمنقبض بعض الشيء بالقول:

ـ إذن؟

هز سنونو برأسه.

ـ لدي أرقام تصويت الغد. سبعة وأربعون شخصاً سيصوتون لصالح ترشيح «تاور»...

قاطعه بوش:

... ـ إذن خمسة وخمسون سيصوتون ضدَّه!

أتريد التفاصيل؟

ـ شكراً يا جون، لاحقاً!

كان الرئيس قد بقي وحده معتكفاً في مكتبه ثم استدعى وزير خارجيته جيمس بيكر، وهو صديق له منذ أكثر من ثلاثين سنة. وأخبره بأن انتخاب الغد قد يعتبر «كهزيمة مهينة» للبيت الأبيض.

«لقد استعلمت الأخبار يا جيم، لم يكن في خلال مئتي سنة إلا ثمانية أشخاص اقترحهم رئيس الجمهورية، فرفضهم مجلس الشيوخ».

وقد بدا الرئيس قلقاً ومغتاظاً. فقال له بيكر: إن السوفييت قد تابعوا هذه القضية بالتفصيل، ولن يتأخروا عن تأويل ذلك كعلامة ضعف في الرئيس. واتفق الرجلان على أن الوسيلة الوحيدة للتخفيف من وطأة الإخفاق قد تكمن في إيجاد وطرح مرشح آخر، لا غبار عليه في هذه المرَّة. فعرض بيكر إسماً كان قد استبعده بوش سابقاً لصالح تاور. «إن كلانا يعرفه، وأعتقد أنه قد يكون خياراً جيداً. فاسأل سكوكروفت رأيه».

وفي صباح الخامس من آذار تلقّى ريتشارد تشيني ممثل ويمونغ في بيته في فيرجينيا، مكالمة هاتفية من جون سونونو:

ـ هل كان بإمكانه المجيء إلى البيت الأبيض بأسرع وقت ممكن؟.

تشيني: وعمره تسعة وأربعون عاماً، قاسي الوجه، شعره ناعم وأشقر، يلبس نظارات نحيفة، لا تبدو عليه أية فظاظة في الطبع. عاش مع زوجته وابنتيه حياة هادئة، بعد أن كرَّسوا أوقات فراغهم لنشاطات ثقافية أو خيرية. وامتلك بشكل خاص ورقة رابحة لا تقدَّر، وهي تجربته في السلطة السياسيةعلى أعلى مستوى. ففي سنة ١٩٧٤، عندما كان في الرابعة والثلاثين من عمره شغل مركز أمين عام البيت الأبيض، وغالبا ما لقِّب «بالصقر» أثناء ولاية جيرالد فورد. هذا وقد صنِّف من يمينيي الحزب الجمهوري. فوصل في الموعد الذي حدَّده سونونو، وهو

وقت تزامَنَ مع تهيؤ الشيوخ للتصويت على رفض ترشيح تاور. فأدخل إلى مكتب سكوكروفت الذي قال له بابتسامة عريضة.

ـ كيف حال قلبك يا ديك؟

كان تشيني قد أصيب بنوبة قلبية منذ عدة سنين خلت. وسأله سكوكروفت دون تمهيد:

ـ أتقبل بمركز «وزير الدفاع» إذا ما عرضه الرئيس عليك؟ فطلب تشيني أربعاً وعشرين ساعة للتفكير. وفي العشية ذاتها، تلقى اتصالاً هاتفياً مطولاً من جيمس بيكر. كانت تربط بين الرجلين معرفة وتقدير منذ سني إدارة فورد. وغالباً ما كانا يذهبان إلى صيد الأسماك والعصافير. فألح بيكر عليه ليقبل بالمركز. وفي الغد نقل تشيني موافقته، ولم يكن بوش يدرك بعد إلى أي حد كان قد حوّل اخفاقه إلى نجاح.

ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، أخذ يمتلك من حوله فريق عمل متماسكٍ بشكل لم يحلم به أي رئيس من قبل. لقد عرفوا جميعهم السلطة بما فيه الكفاية، كي لا يبقوا متعطشين لها لدرجة تزجُّهم في منافسات تحفُر قبْـرَ المتنافسين وتدُك أسس الإدارة.

كان محيط بوش يتألف من مجموعة رجال صلب، واقعيين، أخلاقيين، وذوي رؤية باردة للمعادلات في القوى.

ضبط العسكريين

أقام تشيني في مكتب فسيح، يطل بجميع نوافذه على البوتوماك. وعمل جالساً وراء طاولة ضخمة من الخشب، استُعملت كمكتب للجنرال «برشينغ» أثناء الحرب العالمية الأولى. وكان منذ ذلك الوقت

فصاعداً، يسيطر على إمبراطورية ضخمة ومعقدة. لم يكن البنتاغون يقتصر على هذا المبنى الهائل ذي الأشكال المذهلة، المشاد في ضاحية واشنطن، والمؤلف من ستة وعشرين كيلومتراً من الأروقة حيث يعمل ثلاثون ألف موظف.

فالـ "Pentagon Inc" كما لقّبه المراقبون، هو أيضاً ورشة عملاقة مخصصة وحدها بميزانية تساوي ميزانية فرنسا، وتستخدم خمسة ملايين أجير بينهم مليونا جندي في الخدمة الفعلية.

ولقد أمنّت الولايات المتحدة وجوداً عسكرياً ثابتاً في عشرين ولاية وفي ثلاثة وعشرين بلداً. وتعامل البنتاغون مع كل عمالقة الصناعة وأصحاب مصانع الطائرات الذين كان بالنسبة إليهم عميلاً مغرٍ، جاهزاً للدفع دون تململ أو تردد، ثمن اللوازم والتجهيزات بأسعار غالباً ما تكون باهظة. فالبوينغ، والجنرال الكتريك والماك دونيل دوغلاس، واللوكهيد، والهونيول، والجنرال موتورز، وال IBM، كلها شركات كان أصحابها من المتعهدين، والمتهافتين، الذين أغرتهم ضخامة الميزانية العسكرية التي تفوق ال ٣٠٠ مليار دولار.

لم يكد تشيني يعتلي منصبه في آذار ١٩٨٩ ، حتى فرض نفسه قائداً حقيقياً لا يتردد في أن يضرب عالياً وبشدة ولم تمضِ بضعة أسابيع على دخوله الخدمة، حتى وجه تنبيهاً قاسياً إلى رئيس أركان جيش الجو «لاري ولش» الذي حاول القيام بمفاوضات مباشرة مع الكونغرس على كل تسوية في الموازنة دون إذنه.

وبعد ذلك بقليل، أدلى الجنرال جون. ت. تشين وهو قائد الـStrategic Air command برأي شخصي حول مسألة الأسلحة النووية.

فاستدعاه تشيني إلى واشنطن على الفور وهدَّده بعقوبة قاسية. وكان الوزير الجديد رجلاً دقيقاً، مستبداً، شديد الصدق والوفاء لبوش. كان على حذر من جيل الضباط الكبار القديم، المستكينين في الروتين والامتيازات، العاجزين في رأيه عن إعمال الفكر في مستقبل سياسة الدفاع للولايات المتحدة. وفضَّل أن يعمل بمفرده، واتكل على حليف واحد أكيد، هو الجنرال كولن باول. وقد تعارف الرجلان منذ بضع سنوات خلت؛ حيث كان باول آنذاك مستشاراً للأمن القومي في عهد رونالد ريغان. وكثيراً ما أدلى بشهادته ـ في جلسة سرية ـ أمام لجنة قضايا المخابرات لفرقة الممثلين، التي كان تشيني أحد أعضائها الأكثر نشاطاً. وقد اعتبر الإثنان أن انهيار الإتحاد السوفييتي والصدع البادي في إمبراطوريته سيخلقان «نوافذ لأمور غير مرتقبة». فَحَسْبَ رأيهما قد يقتضي الأمر في المستقبل إبطال مفعول المبادرات المسلحة لعدد من بلدان العالم الثالث أكثر من تحدي قوة الإتحاد السوفييتي المسلحة.

أما بالنسبة لباول وتشيني، فإن الصراعات الإقليمية «العالية التوتر» قد تشكل خطراً رئيساً يجب التحضير له.

من باناما إلى الخليج، المنعطف الاستراتيجي.

في آب ١٩٨٩، رسخت وثيقة سرية جداً في يقين تشيني، كانت قد نقلت إليه. وهي تتعلق بتقرير عنوانه «الاستراتيجية العسكرية القومية» فحررها الأميرال «وليم كروجي آر» وكان يومئذ رئيساً للأركان العامة المشتركة، وتتضمن تعداد أولويات الولايات المتحدة العسكرية، وقد ذُهل تشيني، عندما اكتشف أن الدراسة لا تولي اهتماماً بارزاً لمنطقة ذات حيوية مهمة بالنسبة للمصالح الأميركية، كالخليج الذي نحّيَ من

النص، فأدرج في لائحة المواضيع المتعلقة بـ «إفريقيا وحماية مواردها الطبيعية». كان ذلك اكتشافاً مزدوجاً بالنسبة لوزير الدفاع الذي أجرى محادثة بهذا الشأن مع جورج بوش: «قد تكون أميركا بمنتهى العجز، في حالِ قيام صراع في هذه المنطقة، لا بل قاصرة عن التصدي له». فأعطي تشيني صلاحيات تامة من الرئيس للتفكير في السبل العاجلة لإعادة توجيه الأولويات الاستراتيجية.

وهكذا أصبح التدخل في باناما اختباراً أوّلياً لهذا المذهب الجديد للقبض على الجنرال نوريغا. فدخل تشيني آنذاك في صراع قاسٍ مع المراتب العسكرية والشركات الكبرى، الموردة للبنتاغون والمتهافتة إليه. إذ كان مصمماً على تخفيض الميزانية بنسبة ٢٥٪ لا سيما بإلغاء عدد معين من اللوائح الباهظة الثمن، كبناء طائرة A12 مثلاً المعدة للبحرية (المارينز) والتي بلغت كلفتها الإجمالية ٥٧ مليار دولار.

وعمد الوزير إلى إزالة كل معارضة بشراسة ومنهجية كلية. وعندما تقرر نهائيا مبدأ القيام بالعملية في باناما استبدل تشيني المسؤول عن القيادة الجنوبية ـ وقاعدتها منطقة القناة ـ والمعارض لتلك الفكرة، بالجنرال «ماكسول ثورمان» الرجل «الصلب».

وبمساندة جيمس بيكر، إقترح أيضاً على بوش تعيين «كولن باول» في مركز رئيس الأركان العامة المشتركة، وهو خيار يقلب كل القواعد التراتبية.

كان «باول» أسود اللون، إبن نازحَين جمايكيَين، زد على ذلك أن المسؤولين العسكريين كان لديهم مرشح آخر، هو الجنرال «روبرت هرز» من سلاح الجو. كان يحلو لباول وهو الضابط الكبير بالمعنى السياسي

الحاد للكلمة أن يبوح بما يلي: «لقد ارتقيت تدريجاً دون أن أمارس لعبة الغولف أو كرة المضرب، على الرغم من أنهما ضروريتان في واشنطن». لم يكد قائد الجيوش الجديد يترقى حتى غرق في التحضيرات العسكرية ضد باناما. كان يعرف أن تشيني سيجعل من نجاح هذه العملية اختباراً لتوجهاتهم الاستراتيجية الجديدة.

وعلى الرغم من بعض الأخطاء الطفيفة، فقد اعتبر في واشنطن إرسال الجيوش في كانون الأول ١٩٨٩ ضد نورييغا إنجازاً كبيراً. وأصبح بالإمكان التطلع إلى الخليج بالإبقاء على المبدأ الذي عبرّ عنه باول في جلسة سرية بقوله: «ضربة قاضية ومفاجئة بقوى كافية للانتصار».

البنتاغون في غليان: لقد وجد الطائر النادر:

في تشرين الثاني ١٩٨٩، استدعى باوِل نورمن شوارزكوف إلى البنتاغون. وكانت تربط بينهما معرفة قديمة منذ حرب فيتنام حيث تمتع كلٌّ منهما في الحرب بسلوك مثالي. وقد شغل شوارزكوف قبل سنة مركز إدارة «السنتكوم» «Centcom» القيادة المركزية، وقاعدتها ماك ديل قرب تانبا في فلوريدا. وكان استراتيجيو خبراء الخطط الحربية في البنتاغون يقسمون العالم إلى مناطق تدخل. وأما المنطقة التي غطتها السنتكوم، فقد امتدت على طول ٢٦ مليون كيلومتراً مربعاً من كينيا إلى الباكستان. وكانت نسبة ٧٠٪ من جميع احتياطي البترول العالمي تقع في المناطق الخاضعة لنفوذ ذلك الجنرال، ذي البنية الضخمة الخشنة والوجه البشوش الضحوك. وبعد أن استقبله رئيسه بحرارة، فوجىء شوارزكوف، إذ لاحظ أن المحادثة لن تقتصر عليهما منفردين. فمشى به باول إلى مكتب وزير الدفاع المزين بالشعارات العسكرية. فأخبره تشيني

بقراءة ملفّه باهتمام، وأحوال خدمته، وأنه قد دُهش بمعرفته للعالم العربي والفارسي.

وسُئِل ما إذا كان حقاً يتقن هاتين اللغتين؟ فرَدَّ شوارزكوف بالإيجاب، وأردفها بمُلحة طريفة: «بل وأستطيع أن أشتم بالفارسية بحضور إمرأة دون أن تحمَرَّ خجلاً».

كان ماضي شوارزكوف مترسخاً في أعماق جذور السياسة الأميركية في منطقة الخليج. إذ أن أباه المجاز مثله من أكاديمية West point العسكرية كان قد أُرسل إلى طهران سنة ١٩٤٢ لينظم ويدرب شرطة Reza Shah (الشاه رضا). وكانت مهمته أيضا تقضي بتأمين حماية القوافل التي تسهل تمرير البضائع العامة إلى الاتحاد السوفييتي.

ولقد تدخل، وهو رجل المهمات الصعبة، مرّة ثانية في إيران سنة ١٩٥٣ لينسّق الإنقلاب الذي أعدته السي. آي. إي CIA، الهادف إلى قلب نظام رئيس الوزراء «مصدق» ـ إبن الشاه الذي ساعده سنة ١٩٤٢ ـ وعودة الشاه إلى الحكم.

وفي سنة ١٩٤٦ كان نورمن شوارزكوف وله من العمر آنذاك اثنتا عشرة سنة، قد رافق أباه إلى المملكة العربية السعودية حيث جاء الأخير للتفاوض مع إبن سعود مؤسس المملكة.

احتفظ نورمن شوارزكوف دائماً بنوع من الافتتان بهذه المنطقة والإيمان اليقين بأنها منطقة «حيوية بالنسبة لأمن واقتصاد الغرب».

كان ذلك الرجل «الطائر النادر»، والشخص الأمثل الذي يحتاج إليه باول وتشيني على السواء.

لقد جهل شوارزكوف، وهو يدخل إلى مكتب وزير الدفاع في شهر تشرين الثاني هذا سنة ١٩٨٩، أن الرجلين كانا قد درسا مطوّلاً التقارير والمذكرات التي نقلها إلى إدارته خلال السنوات الثلاث الأخيرة. وقد صنِّفت جميعها دون أن تثير ردود الفعل.

غير أن قلق شوارزكوف التقى كليا مع قلق الوزير قائد الجيوش.

وفي تشرين الثاني ١٩٨٨، وبعد ثلاثة أشهر فقط على وقف إطلاق النار بين إيران والعراق، أرسل تقريراً سرياً إلى الأركان يؤكد فيه «أن أسوأ ما يمكن أن يحصل في منطقة الخليج هو استيلاء العراق على آبار النفط السعودية. فبغداد تملك أقوى جيش في المنطقة وربما الرابع في العالم، والمملكة السعودية بالنسبة لهذا لبلد هي الباب القريب. والحال أننا لا نملك قوى متمركزة في هذه المنطقة». فكان أول من أثار فرضية تهديد عراقي. ومفهوم «الجيش الرابع في العالم» الذي أطلق لأول مرّة. كان سَيُكتَشف في الحرب شعارٌ ذو فاعلية مخيفة على الصعيد النفسي.

وبدأ ريتشارد تشيني بالكلام. فطرح وهن الوضع السياسي في الخليج والأخطار التي قد تسببها مستقبلاً الصراعات الإقليمية. وذكّر بما قد تقرر سنة ١٩٨٠ في أيام حكم جيمي كارتر، من خلق قوة انتشار سريعة، كان السنتكوم بالواقع، قد خلفها لمجابهة أية محاولة سوفييتية هدفها السيطرة على آبار البترول في المنطوقة. وتابع تشيني قائلاً: «إنه من المفروض أن يكون ذلك التهديد قد زال». ثم أضاف: «إن لدينا مشكلة أخرى ألا وهي أن حلفاءنا على استعداد لطلب الحماية منا إذا ما تردَّت الأحوال. ولكنهم لا يرغبون في رؤيتنا قبل ذلك». كما ذكر تشيني تنامي الحركات الأصولية الإسلامية والإرهاب الإيراني قبل أن يطرح على

شوارزكوف ما يلي :

ـ ما هو في رأيك البلد الذي يشكل التهديد الأهم بالنسبة لأمن الخليج؟ العراق أم إيران؟

فأجاب شوارزكوف في الحال: العراق.

ثم أصغى مذهولاً إلى الفكرة التي وسَّعها كل من تشيني وباول. إذ كان هذان يعرضان تحويل «السنتكوم» يعني قاعدة «ماك ديل» في فلوريدا مع معاونيها السبعمائة إلى مختبر حقيقي، أي مركز تجارب، حيث ستُعَد وتختبر جميع أنواع السيناريو التي قد تنتج عن هجوم عراقي على المملكة العربية السعودية، وإمكانات الردود الأميركية. وأعطي شوارزكوف صلاحيات تامة للحصول على المعطيات العسكرية والتقنية المتعلقة بالقوات العراقية والطاقة العسكرية الأميركية، ومعها الأسلحة الأكثر تقدماً وإتقاناً، ضف إلى ذلك إجراء عملية التكامل فيما بين هذه المعطيات.

كان الأمر بالنسبة إلى باول وتشيني يقتضي إعداد برنامج معلوماتي ضخم ـ «لعبة الحرب» «War game» ـ بالحجم الطبيعي حيث تستكشف جميع الاحتمالات.

قبل شوارزكوف بحماس وأعطي تأكيداً مزدوجاً : بالسرية المطلقة التي ستحيط بهذه العملية وبأن تأدية الحسابات لن تكون إلا مع كولن باول.

البرنامج "Tip Fiddle" تيب فيدل

أخذت استراتيجية إدارة بوش الجديدة تتركز تدريجاً. ففي كانون

الثاني سنة ١٩٩٠، أمر تشيني وباول بتحرير وثيقة سرية. حيث كانت مخاطر الحرب الإقليمية قد ذكرت كخطر رئيسي. وكانت شبه الجزيرة العربية الفارسية معروضة في هذا النص كأولوية استراتيجية، بمقدار ما هي عليه منطقة المحيط الهادىء.

وبعد شهر، في شباط سنة ١٩٩٠، حصل شوارزكوف على الضوء الأخضر من باول وتشيني ليذهب ويشهد أمام لجنة القوات المسلحة في لجنة الشيوخ.

وقد علق الشيوخ الحاضرون بكثرة على أقواله ومفادها: «أن الخطر الأكثر جدية على تموين البترول في المدى القريب، يكمن في صراع إقليمي محتمل. فنهاية الحرب مع إيران فسحت المجال للعراق بأن يطمع مجدداً بزعامة العالم العربي».

كانت أجهزة الكمبيوتر العملاقة تعمل يومياً وعلى مدار الساعة في مقر قيادته العامة في "ماك ديل" وهي تستلم دون انقطاع المعلومات الجديدة. وكان قيد الإعداد مخطط معلوماتي، ذو إسم رمزي غامض "TPFD" انتشار Deployement قوة Force . مرحلة Phase . وقت Time، فلقِّم فيه أكثر من مليون عنصر. ووجهت فيه ـ يذكر أحد المسؤولين ـ جميع الاحتمالات: التفاصيل المتعلقة بالرجال والعتاد، وطرق تسييرها وحاجات الدفاع الجوي ومياه الشفة والسكن، ومجمل أجهزة الاتصالات الضرورية لتنسيق هذه العملية وفقاً للصحراء السعودية.

وحمل هذا البرنامج رقم الرمز ١٠٠٢/ ٩٠ وتسمية "Tip Fiddle" وحفظ السر جيداً. وليس من أحدٍ حتى من البنتاغون كان يعرف بوجود هذه الأشغال.

في بداية شهر تموز سنة ١٩٩٠، أطلق شوارزكوف عملية صورية واسعة بواسطة المعلوماتية، ليقيّم فاعلية المعطيات التي تجمعت بهذا الشكل وامكانية اشتغالها.

كان السيناريو المختار والمسمى. تمرين Exercices. مركز Post. قيادة C.P.E Command، قد تصور صدفة غريبة وهي أن صدام حسين سيجتاح الكويت. كان الأمر يتعلق باختيار سرعة الاتصالات في الصحراء.

لكن وبأقل من ثلاثة أسابيع لاحقة أصبحت هذه اللعبة «التي هي في منتهى الجاذبية والإتقان» واقعاً حقيقياً وذلك حسبما أشار إليه أحد المشاركين.

الفصل الثالث

صاحبنا صدام

خلال الأشهر التي سبقت الثاني من شهر آب، قوى محمد المشاط وهو سفير العراق في الولايات المتحدة صدام حسين في عزمه. وكانت جميع البرقيات التي وصلت إلى بغداد ووجهت إلى رئيس الدولة العراقية تذكر «أن أخطار ردَّة الفعل الأميركية ستكون ضئيلة في حال التدخل في الكويت».

قبل الاجتياح ببضعة أيام، وبينما كانت الجيوش العراقية تُحشَد على حدود إمارة الكويت، أرسل المشاط مذكرة طويلة موجهة إلى الرئيس العراقي فالتقطتها وفكت رموزها دوائر المخابرات الأميركية. وهو يعدِّد فيها أمثالاً كثيرة تبين الجمود الأميركي في الأزمات الدولية فيقول: «هل أرسلت الولايات المتحدة قواتها حين اجتاحت تركيا قبرص؟ وهل تدخلت إثر اجتياح الصين للتيبت؟ أو دخول الاتحاد السوفييتي إلى أفغانستان»؟ .

كان تفاؤل المشاط ـ وهو رجل زلق اللسان، يُشعِل اللفافة تلو الأخرى ـ يرتكز على وقائع أخرى معبِّرة. وخلال السنوات الأخيرة، كانت الولايات المتحدة قد باعت للعراق عتاداً متقدماً بثمن يفوق قدره ملياراً ونصف دولار، وقوامه ناظمات آلية متقنة، وآلات تتيح رسم الصواريخ واختبار تحليقها، وأجهزة معلوماتية، وقطعاً تسمح بالتقاط وفكِّ رموز الصور التي تنقلها الأقمار الصناعية. وقد تمّت المبيعات في وضح النهار وذلك بعد أن نالت موافقة إدارة بوش. وكانت معدَّة لمؤسسات على قدر كبير من «الحساسية» كوزارة الدفاع والداخلية، ولجنة الطاقة الذرية.

لم يكن أحد ليجهل الاستعمال العسكري الذي ستصير إليه هذه

التقنية ومع ذلك استمرت هذه العمليات دون أن تتوقف أو تخف على الرغم من تهديدات العراق المتصاعدة للكويت.

لقد بلغ الغموض في الموقف الأميركي ذروة غريبة. ففي الواحد والثلاثين من تموز، عشية الاجتياح، وبينما بدت جميع التقارير أكثر فأكثر مثيرة للقلق، كانت إدارة بوش تحبذ بيع أجهزة الإشارة المتقنة والمخصصة للحكومة العراقية بمبلغ قدره ٦٩٥ ألف دولار.

وهذا عنصر أخير كان من شأنه أن يدفع بغداد للاعتقاد بأن الأميركيين لن يتحركوا. ففي أثناء الحرب الإيرانية العراقية، قرر رونالد ريغن إعادة العلاقات الدبلوماسية مع صدام حسين الذي يعتبره أحسن ورقة رابحة لصالح الغرب في وجه التصاعد الإسلامي الإيراني. هذا وقد التقى مبعوثون أميركيون وعراقيون مراراً لا سيما في سويسرا وتفاوضوا حول كل التفاصيل.

كان الإتفاق الموقع يتضمن فضلاً عن إعادة فتح السفارة الأميركية إقامة محطة مهمة للسي. آي. أي في بغداد. فكان أمراً مقضياً. لم تكن مهمتها الأولية التجسس على النظام العراقي، بل بالأحرى لتنقل له المعلومات التي تحصل عليها وكالة المخابرات الأميركية حول أقرب جيرانه إليه. وفي مركز القيادة العامة في «لانجلي» أخذ المحللون والأخصائيون في اللغة العربية يتتبعون هذا الملف دون انقطاع، وحتى قبل وقت قليل من هجوم ٢ آب. استلم صدام حسين من الأميركيين توضيحات قيمة حول نسبة القوى في داخل النظام السعودي . . . والكويتي.

وبدا الوضع الأميركي متسماً بالتشويش أو باللعبة المزدوجة. غير أنه وجد تفسيراً ثالثاً وممكناً، ألا وهو أن أحداً في واشنطن لم يكن يعتبر

صدام حسين مصدر خطر في المدى القريب. فتهديداته التي أطلقها ضد الكويت كانت بالنسبة للعديد من المسؤولين نوعاً بسيطاً من الترهيب. وكان فوق مكتب «وليم وبستر» مدير السي. آي. إي ورئيس الأف. بي. آي السابق ملف سري يكشف عن التشوش والتقلب في عقلية الرئيس العراقي.

لقد حاول صدام حسين خلال سنة ونصف خلت أن يعقد تحالفات شديدة التناقض. فعرض على رؤساء الدول سوريا، مصر، والأردن أن يتحدوا مع العراق بهدف شن الهجوم على المملكة العربية السعودية والكويت لاحتلالها. ثم اقترح على الملك حسين حلفاً عسكرياً، ودوماً ضد المملكة العربية السعودية.

وفي قسمة المقاطعات الإقليمية التي قد تعقب النصر، سيخصص للعاهل الأردني الجزء الغربي من المملكة العربية السعودية برمته، لا سيما الأماكن المقدسة.

بعد ذلك بقليل، وأثناء محادثاته في الرياض مع الملك فهد، أثار قضية إمارات الخليج الصغيرة فقال: «إن وجودها لا معنى له. فلنعد تجميع قواتنا. بإمكاني أن أحتل الكويت وأنت قطر». وقد صرح لاحقاً عضو في مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض بما يلي: «إن تقويمنا كان بسيطاً، لقد اعتقدنا أنه النوع من البشر الذي من الأفضل أن يستمر الحوار معه من أن يعزل».

قبل كل شيء، تجميد الأموال العراقية

إن خبر اجتياح الكويت كان لحظة غريبة في واشنطن. فقد بدا معظم كبار الموظفين في وزارة الخارجية والبنتاغون في حالة ذهول. لم يكن

أحد قد صدّق تقارير السي. آي. إي الواردة بوضوح دقيق. كان الأمير ولي العهد في مدينة الكويت الشيخ سعد العبد الله الصباح قد اتصل هاتفياً بالسفير الأميركي فور معرفته بأن الجيوش العراقية قطعت الحدود لتوّها. فطلب منه «مساعدة فورية» لكنه «أصَّر على عدم إعلان هذه المبادرة أو اعتبارها رسمية». والغريب في الأمر أنه خاف ردود فعل البلدان العربية الأخرى.

كانت آنذاك الساعة الثالثة والنصف من صباح الثاني من شهر آب في مدينة الكويت، أي الساعة التاسعة عشر والنصف في واشنطن، في اليوم الأول منه، وطلبه لم يلق بعد صدى مسموعاً لدى البيت الأبيض؟ لكن وبعد نصف ساعة أي في الساعة الثانية والعشرين بتوقيت واشنطن، الرابعة صباحاً بتوقيت مدينة الكويت، عاود الأمير ولي العهد الإتصال ثانية بسفارة الولايات المتحدة. كان صوته هذه المرة مذعوراً: «قل لحكومتك: إن طلب المساعدة هذا هو الآن رسمي تماماً».

وبعد خمس عشرة دقيقة، هرب من قصر دسمان برفقة الأمير وأعضاءالعائلة المالكة لينتقلوا بالسيارة إلى حدود المملكة العربية السعوديةالتي تبعد خمسين كيلومتراً تقريباً.

كان برانت سكوكروفت على اتصال هاتفي دائم ومنتظم بجورج بوش الذي بقي في جناحه الخاص الواقع في الطابق الثاني من البيت الأبيض.

ووصل آخر تقرير من رئيس مجلس الأمن القومي في الساعة الثالثة والعشرين. بعد ذلك بقليل، وبينما ذهب بوش للنوم، انتقل معاونوه إلى غرفة العمليات، وهي كناية عن قاعة محاضرات أعدت بشكل خاص في

سراديب البيت الأبيض، فزوّدت بجهاز معلوماتي في منتهى الإتقان، يتيح الإتصال الفوري بأية نقطة على الكرة الأرضية. ونظم خط تلفزيوني مرموز على الفور بين البيت الأبيض والبنتاغون وإدارة الدولة ووزارة الخارجية والسي. آي. إي. كشفت المعلومات التي وصلت عن ضخامة الهجوم العراقي.

في الخامسة والنصف صباحاً، أُوقظ بوش ليوقع الوثائق التي حرِّرت في الليل، والقاضية بالتجميد المطلق للأموال العراقية والكويتية العائدة لهما على أراضي الولايات المتحدة.

وطبقت تدابير مماثلة في كل العواصم الأوروبية وآسيا. فحُرِمت بذلك بغداد من سلاح مالي هائل. ومنذ تلك اللحظة أصبح عزم الرئيس بوش الأخير ممكناً إدراكه. فدعا كبار أعضاء إدارته إلى اجتماع في الساعة الثامنة صباحاً. فتواجد الجميع في الساعة المحددة في «الكابينيت روم» Cabinet Room المتاخمة للمكتب ذي الشكل البيضاوي حول طاولة كبيرة، شغلت الجزء الأكبر من القاعة.

بدأ وزير المالية نيقولا برادي بالكلام ـ وهو صاحب بنك قديم ـ مستفسراً عن العواقب الاقتصادية للأزمة: «يجب أن نفكر بالوسائل اللازمة لتكييف الولايات المتحدة بأسعار للبترول أكثر ارتفاعاً».

فقاطعه بوش بجفاف موجهاً الكلام لمجمل الحضور: «دعوني أقول لكم شيئاً بمنتهى الوضوح. نحن لسنا هنا لنناقش سبل التكيف مع هذا الوضع، إذ ليس وارداً الآن أن نقيِّم برامج من نوع «كيف نعيش مع هذا»».

ثم طلب أن تقدَّم له منذ الغد كل الخيارات العسكرية. وبعد ساعة

رفع الجلسة، وطار إلى «أسبن» في كولورادو حيث التقى مارغريت تاتشر.

أثناء محادثاتهما، ذكر للمرة الأولى فكرة رد دولي في وجه اعتداء بغداد. وجدت رئيسة الوزراء البريطانية الفكرة ممتازة، غير أن بوش سألها بقلق: «أتعتقدين أن الفرنسيين سيتبعوننا؟»، فابتسمت وقالت: «في البداية، قد يكون الأمر سلبياً، لكنك إذا تكلمت معهم بحزم سيقفون إلى جانبنا». لقد شكلت العلاقات المميزة بين واشنطن ولندن بالنسبة إلى بوش الأسس التي بإمكانه أن يبني عليها تحالفاً ضخماً.

نعم إن لدينا مخططاً

بينما كان الرئيس في غربي الولايات المتحدة، وصل شوارزكوف إلى واشنطن. وكان كولن باول قد أعلمه مساء الأمس بواسطة خطه المرموز قائلاً: «ها هم قد اجتازوا الحدود».

وعند وصوله إلى العاصمة، اختلى بنفسه منفرداً مع رئيسه لينجز بدقة كل تفاصيل تدخل الغد. ثم أجريا مكالمة هاتفية طويلة مع تشيني. وفي ظهيرة الثالث من آب، افتتح بوش العائد منذ مساء الأمس إلى البيت الأبيض اجتماع مجلس الأمن القومي. فأحاط به كل من ريتشارد تشيني وبرانت سكوكروفت، ومساعده روبرت غايتس الذي أصبح حالياً مديراً للسي. آي. إي، وجون سونونو سكرتير عام البيت الأبيض، وكولن باول ونورمن شوارزكوف. افتتح برانت الاجتماع قائلاً بلهجة رصينة: «إن الخيارات التي سنتباحث فيها الآن، يجب أن تأخذ بالحسبان أن أمر غزو العراق للكويت هو واقع غير مقبول، والذي إذا ما استمر طويلاً سيعرض أساساً توازن السلطة في جزء من العالم بهذا المقدار المهم من الحيوية».

ثم استطرد تشيني قائلاً بهدوء وقد أدار وجهه نحو بوش : «إن لدينا مخططاً».

ذُهِلَ قسم من الحضور، لا سيما سكوكروفت وغايتس وسونونو. فهم لم يتخذوا أبداً علماً بذلك. أما بوش فقد تلقى بهدوء، وحسب أقوال الشهود، ما يمكن ألا يكون بالنسبة إليه إكتشافاً جديداً.

قدَّم باول شوارزكوف للرئيس ثم تركه يباشر بعرضه. قضى مخطط شوارزكوف بالدفاع عن المملكة العربية السعودية، وقد تألف من جزأين : يركز الجزء الأول على انتشار قوة تكتيكية جوية، كما على السفن بما فيها حاملات الطائرات. فيما يرتكز الثاني على تفاصيل التعبئة وإرسال الجيوش البرية.

سأل أحد المشاركين :

ـ كم من العديد والعتاد يلزم لذلك؟

أجاب شوارزكوف دون تردد :

ـ سبعماية طائرة وأكثر من مئة وأربعين ألف رجل وعشرات السفن.

وساد صمت طويل ـ روى أحد المشاركين ـ لكن القراءة في وجوه من جلسوا حول الطاولة كانت كافية. فقد عبَّر الجميع عن الشعور نفسه بقولهم : «يا لضخامة المطلوب».

كان مخطط شوارزكوف فعالاً لكنه غير كامل. ففي شكله الأولي يتعلق بالوجه الدفاعي الصرف، ولا يلحظ أي هجوم معاكس أو مضاد ضد العراق. بيد أن وجوده نفى تماماً الطرح الرسمي الذي تدعمه الولايات المتحدة : «إن البلاد التي يفاجئها هذا العدوان ليس لديها أية إمكانية عسكرية تمكنها من الرد إلا في إرسال ألفي وخمسماية رجل.

إذاً كان من الواجب تدبّر كل شيء في الحال. وهذا الوهم إذا ما رددته وسائل الإعلام وضخمته، قد يدفع صدام إلى التقدم حتى بلوغ آبار البترول الواقعة شرقي المملكة العربية السعودية. وقد حرَّرت السي. آي. إي بمساعدة الدّي. آي. إي تقريراً مغلقاً يذكر هذه الفرضية. وكانت الشخصيات الموجودة حول بوش في «الكابينيت روم» قد أخذت لتوّها علماً به.

المغلاق السعودي

أعطى الرئيس الضوء الأخضر لتطبيق مخطط شوارزكوف، غير أن أمراً كان يقلقه، وهو ردة فعل الحكام السعوديين. إذ وجب حتماً انتزاع موافقتهم. لقد رفضوا دائماً مبدأ وجود الجيوش الغربية على أرضهم. فأظهروا أنفسهم حماة الأماكن المقدسة في الإسلام، معارضين كل وجود غربي. ومنذ شهر مضى، أطلقوا احتجاجاً على إرسال واشنطن إلى الإمارات العربية المتحدة طائرتي تموين للاشتراك بتمارين جوية.

قبل أن ينهي الاجتماع، ناقش بوش الطريقة المثلى لكسر المغلاق السعودي. فتلاقت آنذاك الآراء جميعها: كان يجب معالجة الموضوع مع بندر بن سلطان، السفير السعودي في واشنطن، وهو إبن شقيق الملك فهد وشخصية ذات تأثير مهم داخل العائلة المالكة. فهذا الرجل الرياضي الذي له من العمر واحد وأربعون عاماً والذي تلقى تأهيلاً لقيادة طائرة مطاردة في الجيش الأميركي، هو من أكثر الشخصيات محطاً للأنظار في العاصمة مما جعل الكثيرين يقولون: «إنه الرئيس الحقيقي شبه الرسمي للدبلوماسية السعودية». وكم ذكرت واشنطن الاستقبالات الضخمة التي قام بها، والترف غير المعقول في دارته المتألفة من ثمانية وعشرين غرفة نوم والتي كان لتوّه قد أعاد زخرفتها في «أسبن». زد على

ذلك أن بندر بن سلطان كان مزهواً بنفسه وبدور بلده.

كلف جورج بوش تشيني وباول بالتفاوض مع السفير. لم يكن السعودي شخصاً مجهولاً بالنسبة للرسميين الأميركيين فخلال سني حكم ريغن، كان اسمه قد ذكر في سياق قضية «الكونتراس». مساعدة الثوار المناوئين للساندينيست في نيكاراغوا، وقد أرسلت آنذاك المملكة العربية السعودية، نزولاً عند طلب السي. آي. إي أموالاً عن طريق سفارتها.

وفيما قُدِّمت هذه الأموال لمساعدة المجهود الحربي لهذا التمرد، سَرت شائعات متتالية أظهرت بأن جزءاً منها كان معداً أيضاً لتمويل عملية تقوم بها الوكالة، تهدف إلى قلب نظام صدام حسين.

كان بندر بن سلطان لتوِّه عائداً من لندن، على متن طائرته الشخصية B707 التي استعملها خلال مدَّة الأزمة ذهاباً وإياباً بين المملكة العربية وواشنطن. فقبل دعوة تشيني للحضور إلى البنتاغون في فترة ما بعد الظهر. واختليا برفقة باول وبعض المعاونين في قاعة مصفحة مسماة بالـ «تانك» "Tank" عليها حراسة دائمة، ومزودة بأجهزة تشويش من شأنها جعل التنصُّت على الأحاديث مستحيلاً. ذكر وزير الدفاع لحركات الجيوش العراقية نحو الحدود السعودية مرفقاً كلامه بصور ملتقطة بواسطة الأقمار الصناعية.

جلس الرجال الثلاثة حول طاولة محاضرات صغيرة من الخشب، في غرفة عارية من الجدران.

أجاب السفير السعودي: أنه حتى ولو كان الخطر العراقي واقعياً، فالحكام السعوديون يشكون بإرادة الأميركيين في توقيفه. وذكَّرَ «بتصرف جيمي كارتر» حين اشتعلت المنطقة مع الحرب الإيرانية

العراقية. كان الرئيس آنذاك قد عرض إرسال إثنتي عشرة طائرة من طراز ف ١٥ . F 15 مجرَّدة من السلاح للدفاع عن المملكة السعودية! وأضاف السفير: «اليوم، وحده رجل مجنون قد يقبل بمثل هذه الهدايا». وأوضح أيضاً أن المساعدة العسكرية الأميركية تشكل موضوعاً لا يكف الملك فهد وبطانته عن ذكره، لكنهم لا يريدون عرض عضلات بسيط.

دفع تشيني نحو السفير بالملف الموجود أمامه.

ـ تفضل بقراءة هذا يا سعادة السفير، وستفهم بوضوح مدى عزمنا.

كان وجه الأمير السعودي ـ كما روى أحد الشهود ـ يتغيَّر كلما تقدَّم في القراءة، فيتحول من الشك إلى الذهول. وعندما انتهى، وجَّه لتشيني وياول ابتسامة عريضة: «أيها السادة، إن ضخامة هذا التشكل العسكري يدهشني جداً، فكل ما قرأته يدل فعلاً على أنكم مستعدون لمساعدتنا. إنكم تفهمون الآن سبب رفضنا عرض كارتر إرسال بعض الطائرات».

«ذلِك كان كافياً ليخلق لنا مشاكل ولكنه غير كافٍ للعمل».

قال بندر بن سلطان: «سأتصل فوراً بعمي الملك لأشرح له بالتفصيل المخطط الأميركي. ثم أضاف: إن وفداً على مستوى عالٍ يجب أن يستعد للذهاب إلى المملكة العربية السعودية».

بيد أن حماس السفير اصطدم بتردد الملك فهد الممزوج بالحذر. وتلك الحالة هي إحدى المزايا البارزة في طباع العاهل السعودي. فأصغى إلى ما يقوله إبن أخيه لكنه لم يعطه الصلاحيات بإرسال مسؤولين أميركيين. أما بوش فقد ذهب ليمضي عطلة نهاية الأسبوع في جو كامب ديفد الريفي، وهو مقر الرؤساء الصيفي حيث كان ينتظر الجواب.

لعبة الدفاع

في ٤ آب، أقام في دارة فسيحة من الخشب تسمى «أسبن لودج» محاطاً بكبار معاونيه. إنضم إليهم وليام وبستر وجيمس بيكر العائد منذ الأمس من موسكو.

خلع المجتمعون بزاتهم الرسمية وربطات العنق ذات الألوان الداكنة وارتدوا الألبسة المريحة؛ فلبس بوش قميصاً رياضياً من كتان أبيض، مزخرف، له أكمام ، وعليه أعلام قومية كأعلام اليابان وبريطانيا العظمى. أما تشيني فقد ارتدى قميصاً وجلس إلى يمينه وأمامه فنجان من القهوة.

كان شوارزكوف قد دعي إلى هذا الاجتماع ليشرح بالتفصيل التحضيرات العسكرية. فذكر الوسائل المستعملة لتسيير الجيوش وهو يشير على خريطة واسعة تمثل شبه الجزيرة العربية، إلى المواقع حيث ستتمركز الجيوش.

«كل هذا الدفاع عن العربية السعودية فقط».

إذا ما أردتم تحرير الكويت فيجب إذاً التفكير بانتشار أضخم بكثير.

خلال الاجتماع، قاطعت بوش مخابرة هاتفية من حسني مبارك. كان الرئيس المصري قد استلم على الفور معلومات واردة من جدّة تفيد «بأن السعوديين رفضوا فكرة قدوم عسكري أميركي إلى أرضهم». فاتصل آنذاك بفهد دون أن يذكر تلك المعلومات قائلاً له :«يجب أن تعلم جلالتك أن صدام حسين لن يتوقف في الكويت ونحن إلى جانبكم» بدا فهد مرتبكاً، ووعد بوش بأن يتصل به خلال إثنتي عشرة ساعة. أعاد

شوارزكوف العرض الذي اضطر إلى قطعه بسبب مكالمات الرئيس الهاتفية. فلاحظ أن ضخامة الرَّد كانت خياراً سياسياً للغاية.

وافق بوش وتشيني وبيكر على ما يأتي: في المرحلة الأولى، يكوِّن الانتشار الدفاعي قراراً يسَهل «تسويقه» إلى الكونغرس والرأي العام. هزَّ باول رأسه، لكنه أضاف: «سيدي الرئيس، أيها السادة، لا تنخدعوا».

فَطَرْدُ هذا الديكتاتور وإنهاء هذه القضية سيكون بالصعوبة ذاتها التي يقتضيها الانتصار في «السوبر بول» (وهي المباراة النهائية لبطولة كرة القدم الأميركية التي يتابعها ثلاثة أرباع سكان الولايات المتحدة).

وإذا قررتم في وقت لاحق إدخال الجيوش في عملية هجومية، فيجب أن يتم ذلك بضخامة وبطريقة مطبقة للحصول على انتصار سريع. إذ ليس لأية أمّة مصلحة في صراع يطول.

كان ذلك كلام يتمنى الرئيس الأميركي سماعه. وبعد الاستماع إلى رأي الجميع، اتخذ بوش قراره: «ضوء أخضر مبدئي لإرسال قوة عسكرية ضخمة إلى الأراضي السعودية».

ثم ترك لباول مهمة التفاصيل. لم تتأهب طلائع القوى إلا في الأسبوع القادم وبقيت العملية سرية حتى ذلك الوقت. وقد دوَّن الرئيس فوراً تعليمات سرية للغاية، تمنح الجنرال شوارزكوف كافة الصلاحيات لتنسيق وإدارة انتشار القوى.

ناظمات السانتكوم الآلية

منذ أن انتهى الاجتماع في الساعة الحادية عشرة، أعادت المروحية الرئاسية «مارين وان» ذات اللون الأخضر والأبيض كولن باول إلى واشنطن.

اختلى قائد الجيوش في مكتبه، وبمساعدة بعض معاونيه الذين اختارهم بتؤدة، دعا كبار قادة الجيش والبحرية وسلاح الطيران إلى اجتماع يعقد عند منتصف الظهيرة.

لقد شكلت ضربة صدام حسين السريعة للكويت نفسية حقيقية بالنسبة إلى الضباط الأميركيين الكبار. إذ شعروا بأنهم محقَّرون ومصابون بالعجز. قال أحد المراقبين: « وخلال تلك الأيام، كان العسكريون غالباً ما يردِّدون على ألسنتهم هذه الكلمات: «آه، يا إلهي، ما العمل، ليس لدينا أي مخطط».

واكتشفت مجموعة الضباط العشرة المجتمعون في مكتب باول في الساعة السادسة عشر في الرابع من آب، أن هناك مخططاً كان قد أُعدَّ كلياً بغض النظر عنهم، وفي حين لم يبدِ أي منهم تململاً من جراء ذلك، كرروا ببساطة السؤال نفسه: «هل هو قابل للتحقيق»؟.

كان باوليتضمن ذلك، فأتت كلماته مهدِّئة وحازمة: « يجب أن يكون هذا الانتشار الأكثر سرعة وبُعداً ثم أضاف: والأكثر هيبة في تاريخ البلد العسكري». كانت مئات الصفحات الصادرة من جوف ناظمات السانتكوم الآلية والتي يراقبها شوارزكوف، بمثابة «توراة» تُجبر الجميع بالعودة إليها.

في الواقع ـ يقول أحد الضباط الكبار المشتركين في عملية «عاصفة الصحراء» ـ «كان ذلك تقريباً يشبه عملية دنكرك غير أنها مقلوبة».

درع الصحراء، خطر في الرمل

عاد بوش إلى البيت الأبيض في ٥ آب. كان ريتشارد هاس، الرجل الثالث في مجلس الأمن، ينتظره إلى جانب المروحية في الفسحة الخضراء،

وفي يده مذكرة قصيرة تلخص تطور الوضع العسكري.

وكان صدام حسين قد أعلن أنه سيسحب في ذلك اليوم جيوشه من الكويت، بيد أن التقارير التي أعدتها وكالات المخابرات، أشارت إلى تحرك بعض الشاحنات المحملة بالجنود دون أي أثر لانسحاب جدي. اقترب بوش من مجموعة الصحفيين الواقفين على مسافة بعيدة منه قائلاً لهم بصوت قاطع: «إن احتلال الكويت لن يدوم طويلاً». وبوش ـ الذي أجرى ضد الاجتياح أكثر من عشرين مخابرة هاتفية إلى إثني عشر حاكماً خارج الولايات المتحدة ـ عاد ليتصل بالعاهل السعودي.

فقبل فهد، الذي يساوره القلق والخاضع لضغوطات متواصلة من إبن أخيه، سفير بلاده لدى واشنطن، باستقبال وفد أميركي. تشيني كان من سيرأس هذا الوفد برفقة كولن باول وروبرت غايتس ونورمن شوارزكوف.

أقلعت طائرتهم عند الغروب. ودخل المسؤولون الأميركيون ـ الواصلون ليلاً إلى جدَّة ـ إلى القصر الملكي في السادسة صباحاً. وهو مقر فخم من الرخام الأبيض. فاستقبلهم الملك فهد في حضرة الأمير سلطان وزير الدفاع، وعبد الله بن عبد العزيز وريث العرش وقائد الحرس البدوي. عرض تشيني المخطط الأميركي: «إرسال ما يقارب المئتي ألف رجل وقوة جوية وبحرية كبيرة» ودون هذا التدخل الضخم ستصبح المملكة العربية السعودية «كويت أخرى».

تفحص السعوديون بدقة الخرائط وصور الأقمار الصناعية المفترشة أمامهم. فلحظت تفاصيل عمليات القوى العراقية المتمركزة في «المنطقة المحايدة» بين الكويت والعربية السعودية. ثم انطلق الملك وشقيقاه في مناقشة طويلة باللغة العربية كي لا يلفتون انتباه أحد. لكنهم جهلوا أن

كلاً من السفير الأميركي وشوارزكوف موجود ويفهم لغتهم. بدا الأمير عبد الله ولي العهد متردداً تجاه الوجود الأميركي :

ـ حتى الآن لم تزل الكويت موجودة.

أجاب فهد بسخرية :

أجل، لكن جميع سكانها موجودون في غرف فنادقنا.

أنهى السعوديون كلامهم وأعطوا موافقتهم على إرسال القوات الأميركية متجاهلين معرفة مدى ضخامة هذا الانتشار الحقيقي. غير أنهم أصرّوا على أن يحرَّر بنداً في الحال، تلتزم به الولايات المتحدة بسحب جيوشها فور انتهاء الأزمة.

وعاد الوفد الأميركي إلى فندقه ـ حيث أُنشئت خطوط خاصة مرموزة تصلهم بالبيت الأبيض ـ فنقل تشيني لبوش الاتفاق وذكر البند المتعلق بالانسحاب.

أجاب بوش : وافقوا على كل ما يريدون.

ثم طلب الرئيس من معاونيه التوقف في مصر للقاء مبارك حيث تنتهي تفاصيل المفاوضات مع السعودية. إذ تزايد اقتناعه بضرورة خلق قوة متعددة الجنسيات تضم عدَّة بلدان عربية. كما أراد معرفة ما إذا كان الرئيس المصري يقبل بالمشاركة فيها.

وبينما اقتربت طائرتهم من السواحل المصرية، أعلم الطاقم بأنه لا يستطيع الهبوط في الإسكندرية حيث يقيم مبارك. في الواقع، كان المدرج قصيراً، لا يتسع لاستقبال البوينغ الأميركية، فاضطرت الطائرة للهبوط في مطار القاهرة.

وكانت في انتظارهم طائرة صغيرة يستعملها الملحق العسكري في مصر، فحطت في مطار الإسكندرية تماماً إلى جانب طائرة عراقية كبيرة توقفت على المدرج.

وفي الواقع، كان وفدٌ من بغداد قد حضر برئاسة نائب رئيس مجلس الوزراء العراقي سعدون حمادي، للقاء الرئيس مبارك شارحاً له بالتفصيل الموقف العراقي. تلك الزيارة كانت الفرصة الوحيدة التي بدّا فيها العراق وقد تفوق جداً على الولايات المتحدة.

وفي اليوم نفسه، وفي قاعدة «النغلي» الجوية في فرجينيا، تلقت طواقم ثمانٍ وأربعين طائرة من طراز ف ١٥ أمرَ الإقلاع بالذهاب سراً إلى المطارات السعودية الواقعة قرب الظهران، ومهمتها: تأمين التفوق الجوي تجاه القوات العراقية ووقاية الوحدات الأولى من الفرقة ٨٢ المنقولة جواً، ودعمها في حال تعرضها لهجوم محتمل.

وفي ٧ آب، الساعة الرابعة صباحاً، غادر بوش جناحه الخاص وتوجه إلى غرفة العمليات Situation Room ليشرف برفقة برانت سكوكروفت على انطلاق القوات المطوَّعة لهذه العملية. في السادسة، دخل إلى المكتب البيضاوي.

في التاسعة، استقبل الصحفيين وأعلن بدء عملية «درع الصحراء» عند الظهر عقد مؤتمراً صحفياً قال فيه: «لقد رسم خط في برلين». عند المساء توجه إلى الأمة عبر الشاشة الصغيرة. قال بوش بمهابة وانقباض: «إن المهمة المنوطة بالقوات الأميركية دفاعية كلياً. ثم حدد ثلاثة أهداف هي: الانسحاب الفوري ودون شروط من الكويت، إعادة حكومة الإمارة الشرعية، أمن الخليج ولا سيما تأمين التزوُّد بالبترول وأمن حياة الأميركيين.

وبعد خطاب الرئيس الأميركي المتلفز مباشرة، أُعلن في بغداد بلاغٌ رسمي صادر عن مجلس القيادة في العراق بضم الكويت. ولما بدا هذا التدبير «ضماً أبدياً» نشأت بين بوش وصدام حسين مواجهة فولاذية، ستدوم ستة أشهر.

الفصل الرابع

الرجل الأكثر هدوءً في واشنطن

لقد مدّ البنتاغون جسراً جوياً حقيقياً باتجاه المملكة العربية السعودية. ففي كل خمس دقائق كانت تحطّ طائرة عملاقة من طراز C141 في القواعد السعودية لإفراغ العديد والعتاد.

وفيما تصاعد هذا المجهود الهائل، اختار جورج بوش عطلته بغية الذهاب إلى منزله في «كنيبنكبورت» الكائن في «الماين».

وبينما الوضع يزداد صعوبة، كان يشاهد في كل صباح على ملعب الغولف.

في ٩ آب، رفض مجلس الأمن في الأمم المتحدة ضمَّ الكويت بخمسة عشر صوتاً ضد لا شيء. وفي ١٠ آب، أطلقت بغداد نداءً دعت فيه إلى الجهاد المقدس، كما أصدرت مرسوماً بإقفال كل السفارات الغربية المعتمدة في الكويت. وفي اليوم ذاته صوتت الجامعة العربية المجتمعة في القاهرة بإثني عشر صوتاً مقابل ثلاثة، لمصلحة إرسال قوات عربية عسكرية إلى المملكة السعودية.

وفي الوقت نفسه، «أيد بحزم وزراء دفاع الدول الأعضاء في الحلف الأطلسي المجتمعون في بروكسل» الانتشار العسكري الأميركي. وها هو الرئيس بوش يربح رهانه ويحرز نصراً دبلوماسياً عظيماً.

غير أن خياراً كان قد اتخذه ويقضي بألا يظهر في شكل من الأشكال أسير هذه الأزمة.

فالرجل هو مزيج من الاعتقادات الراسخة والسيطرة التامة على

العمل السياسي. فقد أسَرَّ يوماً إلى بعض المقربين وإليه: «لقد تعلمت الكثير من أخطاء أسلافي».

ويتذكر غرق ليندن جونسون وهو يقوم بعمل رئيس الأركان ويختار الأهداف الفيتنامية المقرر قصفها.

ويعتقد أن كارتر أضعف موقفه وموقف الرئاسة عندما صار كلياً سجين قضية «الرهائن الأميركيين» في طهران.

وفي بداية اليوم الثالث من شهر آب اتصل هاتفياً بريتشارد نيكسون ـ وهو يكنّ له تقديراً كبيراً ـ ليعلمه بما حدث.

فيجيبه الرئيس السابق: «إعمل بحزم وبشكل قطعي».

فالرجلان يوليان للعلاقات الدولية الأهمية ذاتها، لكن بوش يعتبر أن المواجهة التي بدأها سلفه مع الحركات السلمية المعارضة لحرب فيتنام كانت «زلة قدم خطيرة»، قال لمعاونيه: «يجب أن نتجنب أية مواجهة من شأنها تقسيم البلاد. فإذا قامت مظاهرة مناوئة لي ولخياراتي سأبقى متسامحاً إلاّ تجاه أولئك الذين سيحرقون العلم الأميركي».

عندما انفجرت قضية «ووترغيت» كان بوش رئيساً للحزب الجمهوري فأمكنه بذلك «مراقبة» الى أي حدٍ كان الخطر يمكن ان يصل إلى رئيس يستسلم منقاداً لمشاعر العداء الشخصي.

وهو من ناحية أخرى معجب بالحذاقة التي توصل إليها روزفلت في اقناع أميركا تدريجاً بضرورة الدخول في الحرب. فقد اختار مثله، قادة عسكريين كفوئين وصارمين. فباول وشوارزكوف خير مثال على ذلك.

ويحلو له أن يذكر جملة رددها أيزنهاور باستمرار: «لا يجب الدخول

في حربٍ تلبية لمشاعر الغضب والضغينة».

فهذا الرجل الانفعالي حتماً، والذي ينتقل من حالة الحماس إلى حالة الحيرة، قد بدَّلته هذه الأزمة.

والذي كان دوماً يقول: «أتعرف؟ عند آل بوش، إننا غالباً ما نبكي»، أصبح الآن يسيطر على نفسه كلياً.

ويستطيع مارلين فيتزوتر الناطق باسم البيت الأبيض ـ وهو شخص ظريف، سمين البنية، إنقضَّت عليه الأسئلة حول مزاج رئيسه ـ أن يجيب دون كذب: «إنه الرجل الأكثر هدوءاً في واشنطن».

خلال مؤتمر الحزب لاختياره مرشحاً للرئاسة سنة ١٩٨٨، كان بوش قد وصف نفسه رجلاً يرى حياته في إطار المهمات.

فالقضية العراقية هي المهمة الأكثر أهمية في حياته، إنها تحدٍّ يريد أن يسيطر على كل مرحلة مهمة فيها شاركاً الإهتمام بالتفاصيل والتنفيذ لقادة جيشه ومعاونيه المدنيين.

الحرب أحياناً ضرورة أخلاقية

إن إيمان ومبادىء بوش الأخلاقية، كانت دافعاً عملياً وحيداً في مواجهته التي بدأت مع صدام حسين.

ومما قاله لأصدقائه منذ شهر أيلول: «إن الحرب هي دائماً مأساة، غير أنها تكون أحياناً ضرورة أخلاقية».

إنه تابع للكنيسة الأنكليكانية التي تعتبر أن «الذرائعية» (وهي مذهب يرى أن معيار صدق الآراء والأفكار في قيمة عواقبها العملية،

فالحقيقة تعرف بنجاحها ـ فلسفة جيمس وشيلر وديوس)والمثابرة والعمل المتقن انجازُه والحذر (وهو أحد التعابير المحببة لدى بوش) كلها[1] فضائل جوهرية : ويرى الرئيس الأميركي أن الأخلاق لا تنتج عن قراءة التوراة فقط بل عن طريق العقل والتقليد.

وما زال روعه يشتد منذ أن أصبح رئيساً. فقد قال في سنة ١٩٨٨ : «لقد ولدت من جديد» أي عاش ولادة جديدة. واعتبر السيدَ المسيح «مخلصه الشخصي».

وغالباً ما استقبل في البيت الأبيض مع زوجته بربارة زعماء دينيين ككردينال بوستن، ومبشرين عبر الشاشة كجري فالوِل أو بيللي غراهام.

لقد اعتقد بوش : «أن الله يخلق غالباً أشياء متعذِّر شرحُها لكن بإمكانه أحياناً أن يستجيب لتوسلات البشرية». فقبل سنة، كان المبشر عبر الشاشة «روبرت شولِر»يتناقش وإياه في المكتب البيضاوي عندما استلم مكالمة هاتفية من سلطان عمان الذي كان في صدد مساعدته لإطلاق رهينة أميركية محتجزة في لبنان. فوضع بوش يده على السماعة وقال لشولِر : «صلِّ، صلِّ لكي ننجح» كان كالطفل ـ كما يقول المبشر ـ أثناء هذا التعبير الذي ينُـمُّ عن تقوى بسيطة ومخلصة».

قسَّم بوش وقته خلال أيام الصيف التي قضاها في «كنيبنكبورت» بين لعبة الغولف والنزهات البحرية، والاتصالات الهاتفية التي يمر بها عبر العالم مع رؤساء الدول ليعلمهم دوماً بالمحافظة على التماسك المناوىء لصدام.

وكان بوش قد انتهى، وهو يجلس في قاعة الاستقبال، من قراءة كتاب «الحرب العالمية الثانية» «لمارتان جيلبرت».

وذات يوم، جاءه بعد الظهر زائر وهو المطران «إدمون برونينغ» رئيس الكنيسة الأنكليكانية. فقال له وهو يذكر الكتاب الذي قرأه: «إنني أوافق تماماً تشرشل في دراسته. لم يكن هناك حرب عالمية ثانية لو أوقف هتلر مشروعه سنة ١٩٣٦ في وقت كان لم يزل فيه بحالة من الضعف تمكن تحييده بثمن قليل. فصدام حسين هو هتلر نفسه».

وأصبحت هذه الجملة الأخيرة محط كلام عنده. ومما قاله أحد أكبر معاونيه ـ وهو على الأرجح، جون سونونو أمين عام البيت الأبيض ـ سراً لأحد زعماء الكونغرس: «إن هذه المقارنة مع هتلر تساعده على حل كل المسائل التي تحدث اضطراباً في ذهنه، إذا كان هناك اضطراب ما».

الهاتف دبلوماسية متوازية

ذهب بوش لقضاء عطلة في الماين مدتها ثلاثة أسابيع ـ فبدا مرتاحاً ـ لكنه في الواقع ـ دخل في سباق مع الزمن محاولاً تحييد الزعيم العراقي: «إن هذه الأزمة ـ قال لأحد زائريه ـ هي التحدي الخلقي الأهم منذ الحرب العالمية الثانية، إنها أيضاً تحدٍ سياسي لا يفوته تعقيدها».

وصف الكاتب «بول تروكس» مؤلف "Mosquito Coast" في أحد كتبه، وجبة عشاء بين شاب جامعي وصاحب بنك دولي نافذ. «أنا أعرف الصين ـ قال الأستاذ ـ إن عدد سكانها الآن يفوق المليار نسمة». أجابه المموّل مبتسماً: كلا، إطلاقاً، لا قيمة في الصين إلا لإثنين، وإني أعرفهما تماماً».

يمكن تطبيق هذه الكلمات على بوش. إنه يعرف كل الزعماء المهمين في العالم. فقد رسخ صداقات متينة منذ أكثر من عشرين عاماً من خلال المراكز المختلفة التي شغلها، واكتسب أوفياء كثيرين، وفهم أجهزة

العلاقات الدولية ما لم يفهمها أي من أسلافه. وأدرك الفوارق الدبلوماسية والتسويات الدقيقة، والضغوطات الضرورية. وعرف منذ البداية لزوم تأييد موسكو، واختار إطار الأمم المتحدة ليعزل العراق إلى أقصى درجة، ويضفي على عمله شرعية دولية. وكانت الدول العربية المترددة في تحالفها مع الإمبريالية الأميركية تجد بذلك وسيلة تامة لتهدئة ظنونها.

إتصل بوش هاتفياً عبر العالم دون انقطاع. وهناك في «كنيبنكبورت» هاتف متصل بالأقمار الصناعية، يحمله مرافقه الأمني الذي يتبعه دائماً إلى ملعب الغولف والنزهات البحرية.

كما اتصل بالمستشار كول ورئيس الوزراء الياباني «كيفو» وهما رئيسا بلدين غنيين ليسألهما مدَّ يد المساعدة الفورية لتركيا ومصر والأردن وهي بلدان ثلاثة، تأثرت بقسوة بالحظر الذي تحوّل إلى حصار قرر ضد العراق.

وبعد أن تم التصويت على هذا الحصار في الأمم المتحدة ٠، إتصل فوراً برئيس فنزويلا وبالملك فهد في المملكة العربية السعودية طالباً زيادة إنتاجهما في البترول وذلك لسد النقص بأربعة ملايين برميل يومياً والتي قد تنقص بفعل وقف تصدير البترول العراقي والكويتي.

قال بوش في سياق استعماله للهاتف: «تلك دبلوماسيتي المتوازية». بيد أن معظم محاوريه يجهلون أنه يسجل، ثم يعيد كتابة هذه الأحاديث. وقد كلّف أخصائيين فاعلين في البيت الأبيض، ينتمي معظمهم إلى السي. آي. إي بمهمة دراسة الفوارق الدقيقة وبعض الأمور المبهمة التي ترد أحياناً في هذه الأحاديث. وبحكم عمله في إدارة وكالة

الاستخبارات، فقد نمىَّ في نفسه ذوقاً شديداً لاعتماد السرية التامة في الأعمال.

إنه يمارس رقابة شديدة على كل عمل أميركي في أزمة الخليج وكذلك على المبادرات الخفية.

إنه يكشف أقل قدر ممكن من نواياه للرأي العام وللكونغرس.

الرجل ذو الوجهين

كانت مجلة «التايم» في كانون الثاني ١٩٩١ قد كرَّست بوش رجل السنة. غير أن غلافها عرض رسمين للرئيس لأنه ـ أضاف المعلق ـ أظهر جانبين لوجهه: حازم الرأي في السياسة الخارجية ومتردد في السياسة الداخلية.

بوش ـ كما قال المقربين إليه ـ ضايقه هذا الغلاف كثيراً، إذ عمَّق في نفسه عدم ثقته بوسائل الإعلام. كان قلقه قارصاً، عميقاً على الأرجح، بقدر ما كانت ملاحظة المجلة صحيحة.

قال بعض الشيوخ: « من الصعب ألا يحب جورج بوش. فهو يظهر أمام الشيوخ كصديق وزميل قديم، وعندما حاول جاهداً استمالة مجلس الشيوخ ومجلس الممثلين فعل ذلك وفقاً للصيغة التي ذكرها أحد المراقبين: «باندفاع المرسلين، وطيبة صاحب مطعم، ومظهر رئيس تجمع طلبة».

إنه يبدي الحماس نفسه عندما يتصل برئيس دولة غربية: سذاجة مصطنعة وبراغماتية كلية. وقد يَتَّسم الحديث بلهجة لا قيمة لها أو محض شخصية. يسأل ميتران أو مارغريت تاتشر: «كيف انقضى نهارك ؟

ويروي هو بعض التفاصيل عن نشاطه الخاص.

إن هذا الاهتمام الذي يوليه لنشاطات الزعماء السياسيين الآخرين هو بالنسبة إليه من الأولويات.

إنه يتصل هاتفياً بأعضاء هذا النادي المغلق تماماً، المنتشرين عبر العالم ليحصل على المعلومات، وفي الوقت نفسه ليطلع على واقع تفكيرهم وتقوية التكتل المؤلف ضد صدام حسين.

إن عاش بوش في الوحدة أو مارس أموراً سرية أو قام بمناورات ما، فهو الشخص نفسه الذي تراه في الحياة الرسمية متَّسماً دائماً بعلامات الهدوء والارتياح. غير أنه لا يحتمل فكرة الشغب إذا اكتشف له هذين الوجهين.

سكوكروفت إلى يمين الله

في ٢٢ آب، إتصل بوش هاتفياً بسكوكروفت الذي بقي في البيت الأبيض ليطلب منه المجيء في اليوم التالي إلى «كنيبنكبورت» وبعد أن أقفل السمّاعة قال رئيس مجلس الأمن الوطني ـ وهو رجل ذو وجه لا ينضح بأي انفعال ـ مبتسماً لأحد معاونيه: «لم يطلب مني الرئيس المجيء بل أمرني به».

إن التواضع عند سكوكروفت مصطنع، بينما الطموح عند مساعده روبرت غايتس بارز كلياً وكان من المفروض منطقياً أن يتجابه الرجلان، لكن روبرت غايتس ـ وهو مدير مساعد قديم في السي. آي. إي وعمره ٤٦ عاماً. كان يعلم أن بوش لن يتحمل ذلك، ولم يكن يجهل شيئاً من المثل القديم الشائع في واشنطن: «إذا حفرتم حفرة لعدوّكم، فاحفروا

أخرى لأنفسكم».

إذاً، كان غايتس وسكوكروفت يتعايشان وفقاً لأصول وضعت بينهما باهتمام. وفيما خصص سكوكروفت باللقاءات المنفردة مع بوش، أُوكل غايتس بالإدارة اليومية اللازمة عسكرياً وسياسياً.

وهذا الأخصائي في القضايا السوفييتية، عنده هاجس الأمن: فهو ينزل مرة في اليوم إلى غرفة العمليات "Situation Room" ليشرف على الوضع بمجمله بواسطة الفيديو مع مسؤولي أهم الوزارات والوكالات المعنية، كالبنتاغون ووزراة الخارجية والسي. آي. إي إلخ..

وعلى الرغم من أن اجهزة الترميز المستعملة، مهيأة بأقصى درجات الإتقان، فهو يرفض أن يجادل في النقاط الحساسة اثناء اللقاء، خوفاًمن التنصت أو التسريب

وعندما يدخلان سوياً إلى المكتب البيضاوي، يجرّ سكوكروفت مقعداً ويجلس إلى يمين جورج بوش الجالس بدوره وراء مكتبه، بينما يجلس غايتس قبالة الرئيس على بعد مناسب.

ويمارس الرجلان رياضة الركض، لكن سكوكروفت يحبها في الليل، بينما غايتس كبوش يفضلها عند الفجر. لذلك سمح له سكوكروفت بالركض مع الرئيس شرط أن يكون صامتاً وبعيداً عنه بضع خطوات.

رحلة صيد سمك

عندما ترجّل سكركروفت من الطوافة في ٢٣ آب فجراً وهو يتأبط ملفاً ضخماً، جاءت بربارة بوش لاستقباله ورافقته إلى المطبخ حيث يتناول زوجها الفطور. دعي برانت سكوكروفت للجلوس.

كان بوش يرتدي بنطالاً وقميصاً من الكتان فاتح اللون، وسترة صيد:

- يا برانت، سنقوم برحلة في المركب، أتحب مرافقتنا؟

كان سكوكروفت يكره ما عرض عليه، لكن وبعد نصف ساعة، غيَّر ملابسه وصعد إلى المركب، ذي اللون الأزرق والأبيض، المسمى «فيديليتي» والخاص بعائلة بوش.

وبعد ما حمل الرئيس كثيراً من قصبات الصيد، أبحر باتجاه منطقة «ملأى بالأسماك».

كانت زوارق أمنية محمَّلة بعناصر من دائرة المخابرات السرية، تقف على بعد وتشكل من حوله دائرة واسعة. أظهر بوش وجهاً مرتبكاً: إذ خشيَ من أن يطلق العراقيون عملية عسكرية واسعة ضد العربية السعودية قبل أن تكون القوات الأميركية قد وصلت إلى المكان بأعداد كافية. فالرد الوحيد الممكن اعتماده كان أمراً سرياً للغاية وهو ما وقَّع عليه قبل ذهابه لقضاء العطلة.

وعلى الجزيرة الصغيرة «دييغو غارسيا» في وسط المحيط الهندي، كانت خمسون قاذفة قنابل عملاقة من طراز ب ٥٢ B52 في حالة تأهب دائمة وجاهزة للإقلاع بغية ضرب بغداد وأهداف عسكرية منذ اللحظة التي ستعبر بها الجيوش العراقية الحدود السعودية.

وكان بوش قد استلم تقارير عدَّة من وكالات الاستخبارات المتعددة التي اعتبرت أن مثل هذه المبادرة قد تسهل قلب صدام حسين، لكنه بقي مشككاً في الأمر.

وعلى بعد خمسة أمتار تقريباً من وصوله إلى الشاطىء، قطع المحرك، وترك المركب ينحرف.

كان البحر هادئاً تماماً. فاعتمر قبعته «بيسبول» ليقي نفسه من الشمس وأعطى أخرى إلى سكوكروفت، وراح يهيء خيوط الصيد.

وهكذا بقي الرجلان يتناقشان خلال ما يقارب الأربع ساعات. وعلى الرغم من قلة تمرسه، اصطاد سكوكروفت سمكتين من البلونيش، بينما لم يصطد بوش سوى سمكة واحدة.

غير أن هذا الحديث الثنائي المنفرد وجهاً لوجه، شكَّل على الأرجح لحظة حاسمة بالنسبة إلى تطور الموقف الأميركي. بقي بوش لغاية الآن متردداً: «هل كان يجب أن ننتظر نتيجة العقوبات؟

كيف يمكن الاحتفاظ بدعم حكام الحلفاء الدائم؟».

وذُكِرَ الماضي... فتوسع سكوكروفت بشرح وضع مشابه أقنع به بوش: فالولايات المتحدة كانت لأربعين سنة خلت قد تدخلت في كوريا لتنفيذ عملية بوليسية، وبموافقة الأمم المتحدة منذ ذلك الوقت.

فالهجوم الذي شنه ماك آرثر في أيلول سنة ١٩٥٠، أتاح الفرصة لصد هجوم جيوش كوريا الشمالية الشيوعية إلى ما وراء الخط ٣٨ المتوازي الذي يحد بين الدولتين الكوريتين: بيد أن الولايات المتحدة كانت قد قررت زيادة تفوقها العسكري حتى الحدود الصينية.

فتدخلت بكين آنذاك في الصراع مما جعل النتائج مفجعة: تمثلت باضطرار الأميركيين بعد معارك دامية إلى التراجع حتى الخط ٣٨.

الفصل الخامس

شوارزكوف في أعماله

بعد يومين، وفي ٢٥ آب اعتمدت الأمم المتحدة قرار ٦٦٥، القاضي باستعمال العمل العسكري لتضييق الحظر، الاقتصادي على العراق.

وفي الريا ض، أعيد تجهيز وترتيب قسم من مقر قيادة السلاح العام للقوات الجوية السعودية وذلك لاستقبال نورمن شوارزكوف ومعاونيه. خضع المكان حيث سيعيش ويعمل لتدابير أمنية استثنائية. فحتى الضباط الأميركيون الكبار الذين يحملون تصريحات خاصة لا يستطيعون الدخول إليه.

في الواقع، شوارزكوف الذي ينزل صباح كل يوم في تمام السابعة إلى غرفة الحرب ـ وهي قاعة معدَّة تحت الأرض ـ ينسق فيها ليس فقط انتشار القوات الأميركية، بل أيضاً عملية تجميع المعلومات وهي العملية الأهم من نوعها التي تمَّ إنجازها حتى الآن.

إن مقرَّ قيادته العامة حرم حقيقي أطلق عليه إسم «بلاك هول» «الحجر الأسود» فثمة أبنية عدَّة، مطمور نصفها ومغطاة بتصفيح سميك، قد أُنشئت ثم زُوِّدت بأجهزة معلوماتية ومعدات تكنولوجية أكثر حداثة. ثم تعاقبت عليها فرق تعمل باستمرار وعلى مدار الساعة لتحصيل كل المعلومات الموجودة في آلات الحرب العراقية.

وقد أنتُخب لهذه المهمة أفضل المحللين والأخصائيين في المعلومات حيث نُقلوا إلى الرياض في سرية تامة.

كانت كل مجموعة تعمل على أهداف محددة لها، وتجهل كل ما يتعلق بالمهمة المنوطة بالفرق الأخرى العاملة في المباني المجاورة. وقد قرر باول وشوارزكوف بأن ينصَبَّ الإهتمام على اتجاهات أربعة:

١ ـ التقدير الدقيق للطاقة الكيماوية والبكتريولوجية العراقية وبالضبط، المواضع الصحيحة للمصانع التي تنتجها. وكذلك التقدير الصحيح لمواقع الصواريخ القادرة على نقل حمولة هذا النوع.

٢ ـ تقدير قوة الجيش العراقي التشكيلي، تفصيل بمجمل السلاح الذي بحوزته، درجة التنسيق بين الوحدات والخطر الحقيقي الذي قد تشكله نخبة قوات الحرس الجمهوري.

٣ ـ اختيار الأهداف الأولية في حال هجوم جوي على العراق والكويت.

٤ ـ «وضع صدام حسين تحت المراقبة»: عاداته ـ طبعه ـ ردود فعله منذ بدء الأزمة ـ محيطه ـ الأماكن حيث يعيش.

وبدءاً من شهر آب، سرَّب البنتاغون وبالتنسيق مع السي. آي. إي فرق عمليات خاصة إلى العراق والكويت.

ومهمة هؤلاء المغاوير، رصد واختيار الأهداف العسكرية بالتحديد، إضافة إلى تقييم ضخامة جهاز الدفاع العراقي.

وعملت هذه المجموعات دون انقطاع على أرض العدو حتى اندلاع الحرب في ١٧ كانون الثاني

قبض على ثلاثة منهم على الأقل.

لقد قرر أيضاً ريتشارد تشيني وكولن باول خلق فرق مجموعة ضمن «قيادة» مهمتها الأمن والاستخبارات ترتبط بها فقط. وقوامها رجال أخصائيون من البنتاغون، والسي. آي. إي، والدّي. آي. إي، ووكالة الاستخبارات للدفاع.

فأخذوا يجوبون العالم ويلتقون في أوروبا والبرازيل وآسيا رؤساء الشركات الذين زوَّدوا العراق بالعتاد العسكري. وافق الجميع دون تردد على إعطاء المعلومات الدقيقة والمطلوبة حول أجهزة السلاح المباع للعراق. وفي فرنسا حصلت الفرق الأميركية من صانعي صواريخ رولان، إكزوسيت، وطائرات الميراج من طراز ف. ١ - يعني مصانع الأيروسبسيال وداسولت على الوسائل اللازمة لتعطيل عمل الأجهزة الإلكترونية لهذه الأسلحة.

جميع هذه المعلومات كانت تنتقل فوراً إلى البنتاغون الذي يلحقها فوراً بالناظمات الآلية في «البلاك هول» الحجر الأسود، في الرياض.

بارجة بلا خرائط إلكترونية:

لقد بقي شوارزكوف قلقاً على الرغم من المجهود المكثف والمعلومات الجديدة حول العدو التي كانت ترده كل يوم.

وفي نهاية شهر آب، كان لا يزال يثق بتقارير الدّي. آي. إي التي تبرز الجيش العراقي كقوّة مؤلفة من مليون رجل درَّبتهم ثماني سنوات من الحرب مع إيران.

وذكَّرت الدّي. آي. إي أيضاً أن الكويت قد اجتيحت واحتُلَّت وأُبطلت قواها ثلاث مرات أسرع مما كان متوقعاً. والحال أن شوارزكوف

يخشى عملية مماثلة ضد قواته التي لم تزل بعد في وضع أضعف تجاه الجيش العراقي.

وعندما وصلت البارجة العملاقة «ويسكونسن» إلى عرض البحر مقابل السواحل السعودية، تنفس شوارزكوف الصعداء منفرجاً. إذ كانت مجهَّزة بصواريخ «توما هاوك» التي باستطاعتها ضرب الأهداف العراقية. فطلب من أركان البحرية أن يفيدوه بدقَّة عن فعالية هذه الأسلحة. فأجابوه بارتباك: «لم تزل بعد غير صالحة للاستعمال كلياً». والواقع أن كل صاروخ «توماهاوك» بحاجة لأن يُبَرْمَجَ وفق خرائط إلكترونية تظهر البقعة المزمع ضربها.

هذه الخرائط لا يمكن أن تُهيأ إلا في الولايات المتحدة وفقاً للمعلومات «والكليشيهات» التي تنقلها الأقمار الصناعية المتجسسة.

والحال أن هذه الأقمار التي كانت مهمتها حتى الآن مراقبة الأراضي السوفييتية وأوروبا الشرقية لم تعدّ برمجتها لكي تصوِّر العراق. إنه بطء أو إهمال مذهل.

وهكذا، وجب انتظار شهر أيلول لكي تصل الخرائط الجديدة المعدَّة «للتوما هاوكز»، وحتى ذلك الوقت فإن البارجة «ويسكونسن»، وبقية السفن المجهزة بأسلحة عملاقة مشابهة ستبقى عاجزة، ويبقى الجيش الأميركي في حالة ضعف وهذا ما لم يخطر في بال صدام.

عاشت الرقابة

لم تنفذ عملية درع الصحراء بالفاعلية المثلى المعبَّر عنها في البلاغات

الرسمية. فكم من طائرات شحن عديدة حطَّت في مطارات لم تكن مراكز لهبوطها. وكم من سفن أخطأت مرافئها. وكم سارت دبابات وقطع مدفعية باتجاه بعض المواقع فتفرغ الذخيرة المعدَّة لها في مناطق معاكسة. مما جعل طائرات الشحن تجوب الأراضي السعودية منجزة أكثر من ثلاثمائة مهمة يومياً. إذ كانت تستدعي بشكل مستعجل لتصحح تلك الأخطاء.

وقد بقيت تجهيزات طبية هامة، قوامها أسرَّة وطاولات للعمليات وأدوية محجوزة في القواعد الأميركية.

إن ضخامة الانتشار وبخاصة السرعة التي وجب أن تتمَّ فيها، حتَّمت خلق مثل هذه الفترات.

غير أن الخوف ذاته، اعترى كلاًّ من تشيني وباول وشوارزكوف: وهو اكتشاف الصحافة لذلك.

فقد كان الصحفيون المعتمدون وعددهم ١٢٠٠، يقادون بدقة وصلابة، فيجبرون على البقاء ضمن حدود فنادقهم، أو على حضور اجتماعات تعطى فيها تعليمات تافهة.

ومنذ التدخل في جزيرة غرينادا التي كان شوارزكوف أحد منظميه، كان لرؤساء البنتاغون أصول واضح جداً في التصرف: فالنَّصر يرتكز في جزء منه على الرقابة.

لقد انتهيت من الامتيازات المفرطة التي استفاد منها الصحفيون سابقاً في فيتنام. إذ كان لهم حق الأولوية في الصعود إلى أي طائرة أو مروحية، مباشرة بعد الجرحى. فضلاً عن معاملة السلطة العسكرية لهم

آنذاك بمثل ما يمكن أن يُعامل به لواء في الجيش.

أما تشيني فقد اعتبر أن مثل تلك الامتيازات هو شيء خطير ومجاوز للحد.

قال لباول: «يجب أن تكون الرقابة على الصحافة أحد عناصر ساحة القتال».

فطلب من دوائره وضع لائحة بالتدابير التي من شأنها أن تحدَّ بشكل صارم من قدوم الصحفيين وعملهم.

في الرياض، شوارزكوف الذي كان يُحتَبسُ في «غرفته الحربية» مدَّة سبع عشرة ساعة يومياً أغرقته ضخامة المشاكل التي اعترضته، فكان يتصل هاتفياً وبانتظام بالمسؤولين المكلفين بالعلاقات مع الصحافة سائلاً: «هل من جديد، أحرصوا جيداً على ألا يفلت أحد أولئك الصبيان من رقابتكم».

وقد أصبحت شبكة التلفاز سي. آي. إي موضع انتقادات منذ أن علم الأميركيون أن صدام حسين ومعاونيه أخذوا يكرِّسون أوقاتاً طويلة في تفسير وفحص التحقيقات الصحفية التي تنجزها هذه الشبكة حول الانتشار الأميركي.

قال معاونو شوارزكوف: «إنه موقف مجنون، فبهذه الطريقة قد يتمكنون من توفير دائرة مخابرات».

قد تكون الجمودية هي الأمثل

في نهاية عطلته، وعندما عاد جورج بوش إلى البيت الأبيض،

فوجىء بما لم يكن يحبه يوماً: متطلبات السياسة الداخلية.

وإذا كان في أزمة الخليج واضحاً في عمله وقادراً على الإقناع، عاد ليعطي صورة رجل غامض متقلّبٍ وخاصة عندما جوبه بجدل حول مسألة هامة موضوعَها ميزانيةَ البلاد.

في واشنطن، بدأ الواشون ينمّون بقولهم: «إنه أكثر انشغالاً بتخطيط نطاق جديد للنظام العالمي من أن يخطط نظاماً لأميركا جديدة».

كان مشروع ميزانيته يتضمن ألفين وستٌّ وعشرين صفحة، لا يحتوي إلا على القليل من الاقتراحات الجديدة، بينما الديون العامة الفيديرالية، بلغت رقماً قياسياً (أكثر من ثلاثة آلاف مليار دولار) مما يهدِّد بالركود الاقتصادي. ولما ألزم نفسه مباشرة في القضايا الدولية، ترك لأمين السر العام جون سونونو مهمة إدارة المسائل الداخلية والمفاوضة مع الكونغرس.

هذه الحيرة جعلت بعض محرري افتتاحيات الصحف يقولون: «إن بوش قد «صار رئيساً وهمياً» أغرقته المشاكل المعقدَّة، وهو عاجز عن تصوُّر الحل».

في الواقع، كان هذا الجمود قبل كل شيء ينتج عن حساب سياسي حذق وصَلِفْ. وفي سنة ١٩٨٩، عندما وصل إلى البيت الأبيض، قال بوش لمعاونيه: «قد تكون الجمودية هي الأمثل. إننا نرث وضعاً دقيقاً للغاية، لا يُسمح بتشويشه. فلو استطعنا تجميد المسائل الاقتصادية، فذلك من شأنه أن يوفِّر للجمهوريين حظاً طويلاً بالبقاء في الرئاسة».

بالنسبة إلى بوش، فإن قيادة السياسة الخارجية شكلت المهمة الحقيقية لرئيس السلطة التنفيذية، مع تحريات واضحة وحلول ممكنة قادرة، فضلاً عن ذلك على تعبئة الرأي العام؟ وعكس ذلك، كان يرى المسائل الداخلية مستنقعاً يغرق الطاقات ويهدم السمعة دون أية نتيجة ملموسة.

لم يكن يملك تطرفية ريغن المؤمن بحلول بسيطة في الاقتصاد، لذلك تراجع عن هذه الأمور بمهارة.

وباختياره جون سونونو إلى جانبه، فقد أعطى بذلك الضمانات لجناح اليمين في الحزب الجمهوري الذي بدا مهيئاً لكي يتهمه بالاستهانة بإرث خَلَفه.

إن مبادرات سونونو وبوش الأكثر بروزاً، وهي في الواقع، تأمين التصويت على قانون يحمي حقوق المعاقين وآخر يتعلق بتنقية البيئة.

كان سونونو قد قدَّم هذا القانون الأخير كتدبير من شأنه أن يغيِّر أميركا. واللهجة التي استعملها في التعبير عن ذلك، أخذت تثبت بأنه لم يكن هو نفسه مؤمناً بها. والواقع أن بوش كان يكره ما يضعه في منزلة الرجل السياسي والتزاماته. لذلك أرجأ الخيارات المؤلمة كتلك التي تُعنى بالقضايا الاجتماعية، أو بحق تعليم الأقليات. كان يفضِّل اجتياز أميركا مرَّتين بأقل من أربعة عشر شهراً على متن طائرته الخاصة ـ البوينغ "Air Force One" المعَّدة لمقام الرئاسة، بغية زرع شجرة على شواطىء كاليفورنيا، ترمز إلى إدارته بالنضال في سبيل البيئة.

في العاشرة من تشرين الأول، وعندما ردَّ مشروع ميزانيته تكتل غير متجانس يضم برلمانيين ينتمون إلى يمين الحزب الجمهوري، وآخرين من

جناح أكثر نزعة تحررية في الحزب الديموقراطي، كان بوش آنذاك يمارس الركض في فلوريدا.

ورداً على سؤال وجهه إليه بعض الصحفيين عما ينوي فعله، أجاب الرئيس بابتسامة عريضة وهو يتابع الركض: «يمكنكم قراءة الجواب في أوراكي».

وفي إحدى المرات، أسَرَّ أحد مستشاريه الاقتصاديين بدقة: «إن جورج بوش قد طلب منا، أن نعمل فقط على حاشية المشكلات لكي لا نصبح رهينة لها».

بيكر المعتدل

إن شهري أيلول وتشرين الأول الباهتين على المستوى الداخلي، تميزا بتطورات عديدة طرأت على أزمة الخليج، فقد أجهد بوش نفسه لكي لا يغيِّر ساعات عمله، إذ كان يحضر في كل صباح في السابعة والنصف إلى مكتبه ليعود منه إلى جناحه الكائن في الطابق الثاني من البيت الأبيض قرابة السادسة والنصف مساءً.

كان يطير تقريباً في نهاية كل أسبوع إلى كامب ديفد. وأول ما يقوم به في كل صباح، عندما يجلس في مكتبه البيضاوي هو مُطالعة التقارير الصادرة عن دوائر الاستخبارات الواردة في الليل إلى غرفة العمليات، حيث كان كل من برانت سكوكروفت أو روبرت غايتس يُعنى بجمعها وتقديمها إليه.

وفي بداية شهر أيلول، كان لا يزال يؤمن بتأثير العقوبات.

فحاولت السي. آي. إي أن تقيس مدى تأثيرها. فدوَّنت كل أمرٍ

بدقة: من زيادة تعرفة التكسي في بغداد، وكمية الخبز المستهلكة في المدن الكبرى، إلى صعوبة إيجاد قطع الغيار أو أهمية تموين الطائرات العراقية بالكاز في المطارات خارج العراق.

وعلى مدى مرور الأسابيع أخذت جميع التقديرات تتلاقى على المحور التشاؤمي نفسه إذ أن تأثير العقوبات لم يزل مشكوكاً بفاعليته، بل أنه لن يستطيع وبأي شكل أن يؤدي إلى إخضاع العراق في الوقت القريب.

واعتباراً من أواخر شهر أيلول، بدأ بوش يفكر في إعداد فرضية التدخل العسكري، ففي العاشر منه، التقى غورباتشوف في هلسنكي هذا السوفييتي ـ الذي دعم بكل إخلاص الأميركيين في التصويت على القرارات في الأمم المتحدة ـ أبدى قلقه من الوضع في الخليج. فحسب شهود حضروا اللقاء، وخلال محادثاتهما، وجه لبوش مراراً بلهجة مداعبة ومصطنعة: «جورج، لا مغامرات عسكرية خصوصاً. وجيم وعد شيفارنادزه بذلك».

جيم هو سكرتير الدولة جيمس بيكر، والرجل الذي لحق ببوش منذ خمس وثلاثين سنة في كل مرحلة من مسيرته نحو الحكم.

جورج بوش Wasp وهو عضو مؤسسة الساحل الشرقي، كان ينسب إلى الولايات المتحدة دور السيطرة في نظام العالم جديداً كان أم قديماً.

بيكر، وريث عائلة غنية في تكساس، له رؤية أقل أولوية في الشؤون الدولية. وما دعوة بوش لتوليه رئاسة الدبلوماسية إلا لمعرفته بأنه الرجل الأكثر جدارة لتصويب فكرته وأقواله بدقّة! وذلك خلافاً لنوعية كيسنجر الذي كان يبتز نيكسون مظهراً نفسه وكأنه معلم الباليه الحقيقي

الذي ينظم ويوحي إلى كل مبادرة متعلقة بالسياسة الخارجية.

علم بوش أن بيكر لن يخونه أبداً، ولو أنه بدا منذ الثاني من شهر آب العضو الإداري الأكثر تحفظاً.

وحسب تفكيره وعفويته، كان دوماً يتخذ موقف المحامي النبيه الحكيم الذي أكثر ما يخشاه هو الأمو ر الطارئة. والحال أن أزمة الخليج كانت مليئة بالأفخاخ.

كان يسيطر على وزارة الخارجية، محاطاً بمجموعة صغيرة من المعاونين، يحذر حذراً شديداً الدبلوماسيين المتهنين أمثال سفيرة أميركا في بغداد «إبريل غلاسبي».

هذه المرأة التي زاولت أعمالها منذ سنتين، استقبلها صدام حسين قبل خمسة أيام من الاجتياح. وقد أخطأت على ما يبدو في تفسير نواياه.

في ٤ آب، ولدى عودتها إلى واشنطن، طلبت موعداً لمقابلة جيمس بيكر، فلم يشأ استقبالها أبداً، وكذلك نصح بوش بأنه يحذو حذوه. كان وزير الخارجية رجلاً يكره الفشل، والذين يجرونه إلى منحدره. وقد صَنَّفَ إبريل غلاسبي من هذه الفئة.

لم يكن يوجه أبداً أي انتقاد لمبادرات الرئيس، لكن معاونيه سمعوه يقول مراراً: «يتوجب علينا التأكد من أن الرئيس على معرفة بالعواقب». وإذا ما قابلناه بتشيني، فإنه يمثل خطاً أكثر اعتدالاً، وهو من أنصار انتظار مفعول العقوبات وإبعاد الخيار العسكري في الوقت الحاضر.

وعندما عاد بوش إلى هذا الخيار، لم يبدِ بيكر لذلك أيّة معارضة عنيفة.

إحدى كلماته المفضَّلة كانت"It's a Done Deal" «إنه اتفاق مُنجز» .
لقد بذل خلال شهرين جهوداً مكثفة وهو يجوب العالمَ، مبرماً الاتفاقات ومقنعاً كلَّ حاكم يلتقيه بوجوب تضامنه مع التكتل. وقد قال لبوش: انه شعر جيداً بأن الموضوع لا يزال كناية عن صرحه هش البنيان، يمكنه أن ينهار حالاً وفي أية لحظة إذا ما انسحب منه أيُّ عنصر من عناصر تكوينه». «إن الوقت إذاً، هو عامل تآكل دون ريب». ولكن أيضاً ثمة غموض غريب في العالم العربي، كان يراه في الواقع، عالماً من التحالفات المتقلبة. ففي شهر آب، صرّح له الملك فهد بصوت حاد: «إني أعرف صدام حسين منذ سنة ١٩٧٥، فعملياً لم يكن ينقضي يوم واحد دون أن يتصل بي هاتفياً. كما لم يكفّ بعد الحرب مع إيران عن التأكيد بأن المساعدة المالية التي مددته بها قد أنقذته، وأنه يعتبرني بطلاً. لكنني ومنذ الثالث من آب، أصبحت في نظره، وبشكل مفاجىء شخصاً بغيضاً. ألم ترَ يا معالي الوزير أن كل هذا لا معنى له؟».

بعد ذلك مباشرة، التقى بيكر في الطائف، في خاصرة جبل المملكة العربية السعودية، أميرَ الكويت المحتبس في شقَّة من أوتيل شيراتون الذي بادره القول بصوت مرهق: « لم لا تهاجمون العراق منذ الآن؟ سيمضي الوقت لاحقاً، ويتخلى عنا السعوديون ليهربوا من المصير ذاته. أتعرفون ما بدأوا يطلبونه مني؟ القبول بإعطاء صدام حسين، الذي لتوِّه طردني من بلدي، الجزيرتين اللتين تؤمنان له منفذاً إلى الخليج. وبالمقابل يعتقدون أنه سينسحب».

في تشرين الأول، وجد بيكر نفسه في دمشق، ولأول مرّة في مواجهة أمام حافظ الأسد، الأنيس، والعذب الكلام. فقال له: « إنها زيارة كنا ننتظرها منذ زمن». وفيما يتعلق بصدام صرَّح بهذه الكلمات: «إنه أخ

نحبه على الرغم من جنونه».

كانت سوريا دائماً على اللوائح السوداء في وزارة الخارجية، حيث صُنِّفت «دولة إرهابية». فبدأ الأسد وكأنه يريد أن ينسى هذه الوصمة، إذ أظهر نفسه من ألطف الحلفاء، واعداً بإرسال عدَّة آلاف من العديد والعتاد إلى العربية السعودية.

« إننا نقف إلى جانب الحق عندما يهان». قال ذلك لدى مغادرته الأميركي.

وجوب مراقبة الفرنسيين بدقة

إن رغبة كل حليف من تأدية تقسيمه الخاص قد تكون في نظر الأميركيين مصدر مشاكل. فميتران الذي تكلم في ٢٤ أيلول، من على منبر الأمم المتحدة، كان قد أزال علامة المواقف الأميركية مقدماً مخطط سلام من أربع نقاط؛ فقد صرَّح بنوع خاص: « إذا أكدَّ العراق نيَّته في سحب جيوشه وإطلاق الرهائن، سيكون كل شيء ممكناً».

هذه الصيغة تناقضت مع الموقف الأميركي الذي يشكل الانسحاب الكامل من الكويت بالنسبة إليه، الشرط الأول لكل تليين في العقوبات.

زد على ذلك، أن الرئيس الفرنسي عرض تنظيم قمة دولية حول الشرق الأوسط، تعالج قضية لبنان والصراع العربي الإسرائيلي. وهذا ايضاً. يختلف عما وعدت به إدارة بوش اسرائيل بأن رابطاً لن يُقامَ بين أزمة الخليج وذلك الصراع. لم يكن البيت الأبيض قد أخذ علماً بمضمون التدخل الفرنسي، وعلى الرغم من أن بوش، وخلال الايام السابقة،

أجرى مراراً اتصالات هاتفية مع ميتران. واتصل جيمس بيكر بالسفير الأميركي في الأمم المتحدة «توماس بيكيريتغ» ليحصل على نسخة من النص. «ذهب مجهوده سدى».

أجاب الدبلوماسيون الفرنسيون المعنيون بارتباك: «إن ميتران لم يعلمهم عن فحوى خطابه، فحتى اللحظة الأخيرة من كتابته للنص كان يعدل ويصحح مقاطع عديدة منه».

وصف بيكر الخطاب الفرنسي بأنه: «خطاب تهدئة كالذي سُمع عبر أوروبا في الثلاثينات. يجب ألا ينزلق العالم من جديد في هذا الخط».

كان بوش في ذلك اليوم يتكلم أمام مئتي زعيم من الأسرة العربية الأميركية. وقد أخذ علماً بالمبادرة الفرنسية عقب عودته إلى ١٦٠٠ Pen- nyslvania Avenue عنوان البيت الأبيض.

وفيما التقت آراء بوش ومعاونيه: «على أن هموم السياسة الداخلية دفعت بالرئيس الفرنسي إلى مثل هذا التصرف ليهدىء الرأي العام الخائف من الحرب». أكد روبرت غايتس الموجود بينهم «وجوب مراقبة الفرنسيين بدقة».

دور الشرير:

كل ذلك زاد بوش قناعة بأن «الوقت كان يجري لمصلحة صدام حسين وأن هذا الأخير يستعمله بحذاقة». وهذا هو رأي تشيني الذي لم يكن في محيط الرئيس من يعارضه فيه.

بعد وقت قليل، جمع بوش أعضاء غرفته الحربية، وطرح عليهم

السؤال الأول: «ماذا سيحدث إذا لم يفعل شيئاً؟ وكان قد أخذ علماً بنتائج استفتاءات الرأي العام التي أظهرت جميعها أن أكثرية الأميركيين وأعضاء الكونغرس باقون على معارضتهم التدخلّ العسكري في الخليج.

ذكر بعض الرسميين الحاضرين: «كانت تلك لحظة حاسمة. كنا نشعر بوجوب العمل لأن المبادرة كانت بالتأكيد بيد صدام حسين».

وفيما أرسلت رهائن عديدة إلى مناطق استراتيجية، لتستخدم كدروع بشرية، وردت أنباء الكويت تصف القمع الوحشي والفظائع المرتكبة. وخلال الاجتماع، أقام تشيني عرضاً طويلاً: «إن الوضع قد تغيَّر كلياً. لقد أرسلنا مئتي ألف رجل مع خيارين: أولهما دفاعي. وثانيهما هجومي، لكننا اعتقدنا بأن القوات العراقية في المنطقة قد تبقى في حدود المئة ألف رجل، والحال أنهم لا يزالون في تزايد مستمر، وقد يتعدى عددهم الخمسماية ألف رجل في أواخر تشرين الأول. ولكي نبقى على مصداقيتنا، يجب أن يكون لنا الآن خيارات هجومية مطابقة لهذه المعطيات الجديدة». قال أحد الشهود: «بدا تشيني وكانه من الصليبيين. فقد أصبحت القضية العراقية بالنسبة إليه تحدياً شبه شخصي، فيما أخذ تطور الوضع يقلقه».

طلب بوش من البنتاغون أن يقدِّم له وبأسرع وقت ممكن، عدَّة خيارات هجومية. فاتصل كولن باول بشوارزكوف ناقلاً إليه طلب الرئيس، وكان يصل بين الرجلين وباستمرار خط خاص.

فاعترض القائد العام للقوات المتحالفة بحدة: «لم يحِن الوقت بعد، فقوات الدفاع لم يكتمل انتشارها حتى الآن، وليس لدينا وقت كافٍ لإعداد مخطط جدي». قبل أخيراً بضغط من باول: فقد يكون قادراً على

تجهيز كل عناصر الرد في مهلة أقصاها عشرة أيام.

كان بوش رجلاً براغماتيا، يهتم بالمعطيات التكتيكية المعدَّة يومياً ومنها دراسة الجغرافيا السياسية الواسعة.

كان يختبر كل عنصر، ولا يتخذ قراره إلا بعد أن يكون قد تفحَّص المسألة من جميع جوانبها. وقد عقد في أيام تشرين الأول، اجتماعات عدَّة مع بيكر، سكوكروفت، غايتس وتشيني للتفكير حول أفضل وسيلة ممكنة ليقدِّم بها مبدأ التدخل العسكري للرأي الأميركي وللعالم.

كان سكوكروفت وهو مجمع أفكار حقيقي قد عدَّد مختلف الخيارات:

« فذكر استعمال القوة، وحتى إذا اقتضى الأمر الدخول في الحرب كأمر ضروري للدفاع عن مصالحنا؟ أو كصليبية أخلاقية؟ أو أخيراً كحدث محتَّم من شأنه أن يثير الحمية ويسكت كل انتقاد، على غرار بيرل هاربر».

كانت كل إدارات البيت الأبيض تتهيأ لمجابهة صراع محتمل ولما ينطوي عليه بالاهتمام نفسه الذي يُبذل في عملية تسويق.

حاول مستشارو الاطلاع إجراء تقييم دقيق لتأثير التشبيه الذي عبر عنه بوش بين صدام حسين وهتلر خلال الصيف. فأظهرت التحقيقات التي أُجريت لدى الرأي العام أن التشبيه لم يكن له إلا قدرة إقناع معتدلة لأنه، وحسب قول أحد هؤلاء المستشارين «لم يكن من الممكن في نظر أكثرية الناس وجود إنسان يساوي هتلر شؤماً». وكان أخصائيو الاطلاع هؤلاء يعتبرون أيضاً أن الصحافة، ومن خلال مقالاتها الانتقادية

«ساهمت بقدر كبير في الانتقاص من هذه المشابهة» يبقى سؤال تكتيكي آخر، وقد نوقش موسعاً: هل كان من الواجب أولاً إضفاء صفة شخصية على الصراع؟ فقد اعتبرت أكثرية المستشارين أن ذلك خياراً ممتازاً بالنسبة إلى بوش الذي كا قد رافق السياسة طويلاً وفهمها وفقاً لحدود شخصية مع أصدقائه كما تجاه أعدائه.

وخلال الحملة الرئاسية سنة ١٩٨٨، ذكر الجميع أن الأوقات التي كان فيها بوش أكثر فعالية، هي تلك التي هاجم فيها بقسوة المرشح الرئاسي مايكل دوكاكس وأن الحسنة الأخرى لتلك الطريقة، ودائماً حسب رأي هؤلاء الأخصائيين هي «في البعد الشخصي للصراع الذي سبق وإن كان واضحاً بما فيه الكفاية في أذهان الناس».

أشارت إحدى مذكرات العمل الموجهة إلى بوش إلى «أن الرئيس ريغن حاول أن يفعل كذلك مع نورييغا والقذافي، لكنه لم يكن قادراً أبداً على إقناع الرأي العام بأن الخطر الذي كانا يمثلانه هو حقيقي.

فالأميركيون يتطلعون إلى صدام حسين بجدية أكثر، ليس لأنه شرير بالنسبة إليهم ولكن لإدراكهم إياه كخطر داهم.

قال روبرت تيتر، أحد مستشاري بوش في استقصاء الرأي العام ـ وهو رجل له من العمر ٥٢ سنة، ضخم البنية وذو مقدرة هائلة: «إن الرأي الراجح في توزيع الأدوار الذي كنا نقيمه هو في سهولة إسناد الدور البشع لصدام حسين بقدر عدم مبالاته بالصورة التي يعكسها في الولايات المتحدة». وقد اعتُبر هذا الرأي راجحاً في البيت الأبيض.

«بوش يجهل كل شيء عن عالم صدام، كما أن الأخير يجهل أيضاً كل شيء عن عالم الأول. فالعراقي يتوجه أولاً إلى الرأي العام العربي

والإسلامي. هذا هو ضعفه، إننا نعرف كيف نُبَيِّن أن أعماله باستطاعتها أن تؤذي الرأي العام العربي».

إن الرجل الذي يحمل هذا التقدير كان يقضي أوقاتاً طويلة في المكتب البيضاوي يزين صور الرئيس وحجمه.

قبل بوش في تخفيف المشابهة مع هتلر، لكنه أَصَرَّ على إبقاء المشابهة بين الحرب العالمية الثانية وأزمة الخليج. فكان بين جلستي عمل، ينطلق ومعاونيه إلى المرج الأخضر المزروع بالأشجار، والواقع خلف البيت الأبيض. فيشرح لهم أن دخول الولايات المتحدة في الحرب سنة ١٩٤١ دعم موقف روزفلت الداخلي وموقف الحرب الديموقراطي ليؤول في نهاية الصراع إلى خلف الحلف الأطلسي.

أضاف: «هذا القرار ساهم في تكوين السياسة الخارجية التي مارسناها منذ ما يقارب النصف قرن؟ فالأزمة في الخليج تمثل المناسبة نفسها».

بالنسبة إلى الرئيس الأميركي فإن الصراع الذي كان يجابهه يصوِّر خطراً أكيداً لكنه وفي الوقت نفسه يجسد مناسبة سياسية عظيمة يجب انتهازها.

كان التذكير بالحرب العالمية الثانية يضفي على الاستراتيجية التي اتبعتها الإدارة الأميركية حسنات عديدة. فقد كان باستطاعة بوش أولاً أن يظهر نفسه «نقيضاً لشمبرلاين برفضه المساومة مع الديكتاتور. ثم أن الأمر يتعلق بحادثة كانت قد وحَّدت الشعب الأميركي وانتهت بانتصار». واختيار العبارات التي استعملها بوش كانت دوماً تعيد بالأذهان إلى تلك الحقبة. وقد اتخذ في مقابل ذلك قرار بتحاشي كل عودة

إلى فيتنام جديدة، تلك الهزيمة المذلة التي جرحت وقسّمت أميركا وشلتها في العمق. وقد طلب من الرئيس أن يصرّ خلال مداخلاته على أن هذه الحرب لن تكون بأي شكل من الاشكال فيتنام جديدة. ولما اختبرت هذه الصيغة في العديد من خطبه تبيّن أنها أصابت الهدف ووصلت إلى عمق المشاعر الأميركية.

لم يعد الهاتف يدق في تل أبيب

إن الأحداث التي طرأت في الثامن من تشرين الأول في إسرائيل حثّت بوش على تسريع عجلة الأمور. ففي ذلك اليوم وعلى أثر مظاهرات عينفة، قتل واحد وعشرون فلسطينياً في أفنية المساجد. ومرّة أخرى، أخذ الوضع يتخذ منحى لمصلحة صدام حسين الذي أطلق الدعوة للجماهير العربية كي تثور لتحرير «أورشليم» لا بل هدد اسرائيل «إذا لم تغادر فلسطين».

أما عنف القمع الذي مارسته القوات الإسرائيلية، فقد لقي شجباً واسعاً في الخارج، لا سيما في البلدان العربية. فمنذ الثاني من شهر آب، لم يكن بوش ـ وهو سريع الاستعمال لآلة الهاتف ـ قد اتصل برئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق شامير الذي كان يقول بمرارة: «إنني بين القذافي وعرفات وصدام حسين، الحاكم الوحيد الذي لا يكلمه الرئيس الأميركي أبداً».

قام وجود التحالف على إبقاء إسرائيل جانباً؟ وهل كان سيصمد في حرب تردُّ فيها الدولة العبرية «هجومات عراقية».

أجرى بوش وبيكر تحقيقاً حول رأي حلفائهم العرب. فكان الجواب عملياً هو نفسه لدى الجميع تقريباً: لن تحدث أية ردَّة فعل شرط، ألا

تبادر إسرائيل إلى الهجوم، وأن يكون ردّها متناسباً.

بلغت هذه الأجوبة واشنطن بين الحادي عشر والرابع عشر من تشرين الأول غير أن مضمونها لم ينقل للإسرائيليين. في الثالث عشر من تشرين الأول، كان الجيش السوري قد استرد المنطقة اللبنانية المسيحية الصغيرة التي يقودها الجنرال عون. كان حافظ الأسد ـ وفقاً لمصدر سوري رفيع المستوى ـ قد أخذ الضوء الأخضر من البيت الأبيض قبل ثمانٍ وأربعين ساعة من نشر جيشه حول تلك المنطقة.

كانت السرعة التي أصَرَّ بها السوريون اقتطاع مستحقه قد أثارت حفيظة الأميركيين.

هجوم جبهي بمئتي ألف رجل

في ١٦ تشرين الأول اختلى في «التانك» كل من ريتشارد تشيني وكولن باول وكافة معاونيهم. وفَّرت قاعة الاجتماعات هذه في قلب البنتاغون جميع ضمانات الأمن. وكلَّف شوارزكوف ـ الذي لا يستطيع مغادرة الرياض ـ أحد مساعديه في مهمة الذهاب إلى واشنطن لنقل مخططهم.

ونقلاً عن أحد الشهود، كانت خياراته «خالية من الإبداع بشكل مخيف» في الواقع، اقترح قائد قوات التحالف القيام بهجوم جبهي في وسط الخطوط الدفاعية التي أقامها العراقيون في الكويت. فأشار إليه باول: « بأن ذلك قد يؤدي إلى خسارة فادحة في الأرواح، وأن كل جندي يُقتل في الحرب سيتحول أفراد عائلته إلى معارضين لها». اتصل رئيس الأركان فوراً بالرياض عارضاً لشوارزكوف تحفظاته. فأجاب الأخير: «ما من أحد مثلي متمسك بتوفير الأرواح، غير أنني لا أستطيع بمئتي ألف

رجل تقريباً أن أعرض مبادرة مرضية». شوارزكوف الذي أوصى - كما قال أحد الشهود - وكأنه أعدَّ هذا المخطط «كاجتماع مثير» أعطى كذلك توضيحاً، استعمله باول عندما ذهب ليعرض ثغرات المخطط لبوش.

كان صدام حسين قد أمر قسماً كبيراً من الحرس الجمهوري بالإنكفاء إلى جنوب العراق وأرسل لهم تعزيزات تصل إلى مئة وخمسين ألف رجل. فكان عدد قوات التحالف في رأي باول غير كافٍ للقيام في الوقت نفسه بشن هجوم وإيقاف تحركات الجيش الآتي من الجنوب. فسمح الرئيس لباول بالذهاب إلى العربية السعودية لتقدير الوسائل الإضافية التي يجب استخدامها.

تستطيع يا سيد بريماكوف أن تغادر واشنطن متى تشاء

وصل إلى واشنطن في ١٨ تشرين الأول، مستشار غورباتشوف الخاص، إفجيني بريماكوف - وهو رجل وسيط القامة، سهل الإبتسامة، له من العمر ٦١ سنة - فاستقبله جيمس بيكر فوراً بحضور «دينيس روس» المكلف بقضايا الشرق الأوسط في وزارة الخارجية وأحد أقرب معاوني الوزير الأميركي.

أثار بريماكوف في آن واحد الاهتمام والحذر داخل إدارة بوش.

فهذا الصحفي القديم في «البرافدا» يعرف صدام حسين منذ نهاية الستينات. وقد ذهب إلى بغداد قبل ثلاثة عشر يوماً حيث أجرى محادثات واسعة مع رئيس الدولة العراقي. فأشارت تلك الرحلة اهتمام المسؤولين الأميركيين إذ اعتبر بعضهم أن دور وتأثير «بريماكوف» على «غورباتشوف» يشير بعمق إلى العودة بقوة للكرملين بخط صلب مؤيد للعرب ومناصر لإيقاف الروابط مع العراق، الحليف القديم.

ودَلَّت الدراسات المقارَنَة بين بريماكوف وشيفاردنادزه وزير الخارجية، على أن الأخير كان يدافع عن مبدأ التعاون العميق مع الأمم المتحدة. السوفييتي الذي نشر رواية قيمة حول دوره في هذه الأزمة(١).

حمل مخططاً لحل الأزمة وسعى قبل كل شيء ـ وحسب تعبيره ـ إلى «تحاشي النتائج الخطيرة للتدخل العسكري».

ثم انتقل دينيس روس إلى السفارة السوفييتية وعقد محادثات أخرى شرح خلالها بريما كوف المخطط السوفييتي ومضمونه: التأكيد لصدام حسين أنه، وفور انسحابه من الكويت قد ينظِّم لقاءً عربياً إسرائيلياً بهدف حل المسألة الفلسطينية فقاطعه «روس» بجفاء: «إسرائيل لن توافق».

ثم انتقل مبعوث غورباتشوف بعد ذلك إلى البيت الأبيض حيث استقبله برانت سكوكروفت وروبرت غايتس. كان المطر ينهمر بغزارة. وكانت أحاديث الأميركيين مع موسكو تدور ضمناً حول معرفة علاقتها بالعراق وتصورها للأزمة أكثر ما تدور حول البحث معهم عن حل.

وفي وقت ما، وخلال المناقشة في مكتب سكوكروفت، فَتح البابُ فجأة، ودخل جورج بوش. كان قد تجوَّل لبعض الوقت في الخارج، فابتل شعره وبزته.

صافح بريماكوف بابتسامة عريضة: «كنت أعلم أنك عند سكوكروف، فلم أتلكأ عن زيارتك».

---

(١) ـ مهمة بغداد رواية المفاوضات السرية Le Seuil).

بدأ بوش في منتهى التهذيب وهو يسأل السوفييتي عما إذا أتمَّ سفره بشكل جيد أو يعرف واشنطن من قبل. ثم عاد فوجَّه لبرياكوف بلهجة حارة: «إني أنتظر رؤيتك غداً بفارغ الصبر».

في الواقع، وفي ١٩ تشرين الأول من صباح يوم غد، استقبل بوش برياكوف سكوكروفت وجيمس بيكر وروبرت غايتس وجون سونونو. فاستوضح بوش السوفييتي طويلاً عن طباع صدام حسين ونفسيته وعن العلاقات المنسوجة بين العراق والإتحاد السوفييتي منذ عشرين سنة تقريباً. وفيما بدا بوش بمنتهى اللطافة والتركيز، أخذ يدوِّن بنفسه المعلومات في دفتر وضع على ركبتيه. وبعد أن جدد برياكوف عرضه عن المخطط السوفييتي أعلم الرئيس الأميركي بإمكانية العودة مجدداً إلى بغداد، فأجابه بوش: لن نعارض ذلك، إنما يجب أن تُعلم صدام حسين بقرارنا التام. فإذا أبدى تجاوباً، سنكون مستعدين لسماعه، إنما لا يظن أبداً أننا سنضعف. وفي نهاية اللقاء، سأل بوش برياكوف عما إذا كان يرغب بعد في البقاء في واشنطن.

أجاب السوفييتي: «إني مستعد لتمديد إقامتي إذا ما قضت الظروف بذلك». ردَّ عليه بوش: «سأجاوبك بعد ساعتين أو ثلاثة».

بعد خمس وأربعين دقيقة، كما روى برياكوف، جاءه روبرت غايتس في وقت كان يتناول فيه الغذاء مع سونونو.

ـ طلب مني الرئيس اعلامَكما بأنكما تستطيعان تحديد تاريخ مغادرتكما ـ فعدم تمديد المناقشات أكدَّ لبرياكوف عزم الأميركيين على الحل العسكري. ولقد ازداد شعوره هذا لدى توقفه في لندن.

ففي ١٠ داونينغ ستريت، كان للسوفييتي حوار متوتر مع مارغريت

تاتشر، بدت خلاله رئيسة الوزراء أكثر فظاظة بلهجتها من جورج بوش، وفي إحدى اللحظات سألها بريماكوف مستغرباً تصلبها:

ـ إذاً، أليس لديك خيارات أخرى غير الحرب؟

أجابت تاتشر على الفور: كلا.

أخيراً أصبح لكولن باول مخطط هجوم

في ٢١ تشرين الأول، توجه كولن باول إلى العربية السعودية. فهبطت طائرته في مطارعسكري قريب من الرياض، وكانت مدارجه مزدحمة بالطائرات المطاردة وطائرات النقل الكبرى التي لم تهدأ من الهبوط والإقلاع في حركة ذهاب وإياب غير منقطعة.

وعند توقف الطائرة في منطقة بعيدة عن مساحات المطار، أحاطت بها قوة مدهشة. وقد واكبت باول حتى سيارته مجموعة من القناصين الماهرين وهم يرتدون الدروع. فانفرد فوراً مع شوارزكوف داخل حرم «البلاك هول» «الحجر الأسود». وتفحصا باهتمام جميع المعطيات.

وفي نهاية لقائهما الثاني الذي انتهى في وقت متأخر من الليل، تطلع باول إلى معاونه، وبعد أن رفع نظارتيه قال له: «نورم، يجب أن نكون على قدر واسع من الخيال».

وصل الرجلان إلى النتائج نفسها ألا وهي: «أن خيّار الحرب الدفاعي أمر غير معقول. فجميع التقارير أثبتت أن مخاطر اجتياح العراق للعربية السعودية باتت شبه معدومة، وقوات صدام حسين عززت مواقعها في الكويت محولة هذه الإمارة إلى معسكر محصن. إن

التمكن من طردهم ـ حسب نظرية شوارزكوف يتطلب انتشاراً عسكرياً أهم بكثير مما هو موجود عليه الآن. وبقدر ما تكون كثافة الجنود كافية، تكون خسائرنا طفيفة». ومنذ عودته إلى واشنطن، اتفق باول على هذا الطرح مع تشيني، وعاد بحوزته مخطط عسكري أكثر جرأة وسجل استحقاقات دقيق صالح للتطبيق. ومنذ ذلك الحين أصبح الأمر موضوع إرادة سياسية.

وخلال تلك الأيام القليلة التي تفصلهما عن الاجتماع المتوقع مع الرئيس، تباحث كل من تشيني وباول مطولاً وقررا تنظيم الهجوم إلى أقصى حد. لم يسبق بعد أن تكون قلةٌ من الرجال على علم بتحضيرات عملية ضخمة كهذه. ففي مجلس القيادة العام لجميع الأسلحة، كان تحت تصرف باول ألف وستماية معاون. اختار منهم خمسة وعشرين ضابطاً كبيراً اطلعوا وحدهم على الموضوع.

في ٢٤ تشرين الأول، مثل تشيني أمام لجنة القوات المسلحة في الكابيتول في مجلس الشيوخ حيث تم الاستماع إليه. لم يعلن شيئاً للبرلمانيين الذين استجوبوه عن التعزيزات العسكرية المرتقبة في الخليج.

صدام حسين لا يؤمن بوقوع الحرب

في اليوم نفسه، سافر بريماكوف مجدداً إلى بغداد عن طريق القاهرة. فاستقبله صدام حسين محاطاً بأعضاء مجلس الثورة. كانوا يرتدون البزات العسكرية. أعلم بريماكوف الرئيس العراقي أن مهاجمة بلاده أصبحت أمراً لا مفرَّ منه إذا لم يعلن انسحابه من الكويت. صدام الذي بذل جهده لربط حل النزاع في الخليج بجميع مشكلات المنطقة أجاب: «سيكون أمراً انتحارياً لي وللعراق إذا اعلنت الانسحاب من الكويت

دون أن أحصل على أجوبة لهذه الأسئلة. لذلك فإنني مستعد لمواصلة الاتصالات.

حسب قول بريماكوف، لم يعطِه صدام حسين أية إشارة واضحة تدل على أنه مستعد للانسحاب من الكويت.

الفصل السادس

الحصول على إذن باستعمال القوة

كان الثلاثون من تشرين الأول يوم تحول حقيقي. ففيه ـ حيث العالم يجهل كل شيء ـ قرر جورج بوش الدخول في الحرب ضد العراق.

وعندما وصل تشيني وباول إلى البيت الأبيض، اختليا مع جورج بوش وبيكر وسكوكروفت لأكثر من ساعتين في المكتب البيضاوي. فعرضا مخططاً يحتوي على مرحلتين: الأولى، ويُشنُّ فيها هجوم جوي انطلاقاً من نصف شهر كانون الثاني على أن يلحقه هجوم بري ضخم في أواخر شهر شباط. فيما الثانية تتضمن عملية التفاف حول الأراضي العراقية.

سأل بوش عن حجم القوات الإضافية التي يتطلبها هذا العمل. أجاب باول: «أكثر من مئتي ألف رجل. ويجب أن ترسل بأقل من ثلاثة أشهر». وأشار رئيس الأركان إلى ضرورة استدعاء الاحتياط.

وجه بوش أسئلة متعددة تتعلق بنوع وفاعلية الوحدات الواجب إرسالها وعن كيفية تنسيق الهجمات. أجاب باول على جميع الأسئلة بهدوء ودقّة. وهكذا ـ يقول شاهد ـ اتضح للجميع أنه أصبح سيد العملية الحقيقي.

«في هذه الأزمة ـ كما قال في وقت ما ـ يجب ألا نفكر ونعمل بمقادير محددة وإلا وقعنا مجدداً في المأزق نفسه الذي وقعنا فيه في فيتنام».

في نهاية الاجتماع، اتخذ بوش دون أي تردد قرارين أساسيين هما:

ضوء أخضر بمضاعفة عديد القوات ودخول الحرب اعتباراً من نصف شهر كانون الثاني.

في اليوم التالي، عقد اجتماع عمل آخر غلب في هذه المرّة الطابع السياسي. إنه يوم عيد البربارة. حضره المشاركون أنفسهم بالإضافة إلى سونونو. دارت المحادثات حول اختيار الوقت المناسب لإعلان إرسال المئتي ألف رجل الإضافيين.

حرص بوش على تحديد ذلك بنفسه. وقد تَمَّ الاتفاق على تاريخ الثامن من تشرين الثاني.

في السادس منه سيتم التصويت على التجديد لثلث مجلس الشيوخ وغرفة الممثلين، وهكذا لا يستطيع الديموقراطيون استغلال هذا الإعلان. أصّر بوش أيضاً على ضرورة الحصول على تفويض من الأمم المتحدة يؤيد الدخول في الحرب. فقرَّر أن يقوم جيمس بيكر بجولة على الدول الحليفة لدفعهم على تأييد فكرة التصويت في مجلس الأمن للسماح باستعمال القوة.

وفي لحظة ما، قال سكوكروفت: «هذا التعزيز العسكري سيتيح في الوقت نفسه إقناع الرأي العام بحقيقة الخطر العراقي وتأكيد عزمنا لصدام حسين». هزّ بوش برأسه مشككاً ثم أجاب: «أظن أن عندي مشكلة حقيقية مع هذا المخلوق؛ لا يأخذني على محمل الجدية عندما أهدده».

هل يجب إعلام دول التحالف قبل الثامن من تشرين الثاني؟ هناك أكثرية من المستشارين يخشون أخطار التسريب. استطرد أحدهم قائلاً «مارغريت تاتشر هي الحاكم الوحيد الذي نستطيع حقيقة أن نثق به». وتقرر خلال الجولة التي سيقوم بها بيكر أن يبقى على كتمانه حيال موضوع حجم التعزيزات العسكرية، مع الإصرار على موضوع التصويت

في الأمم المتحدة الذي يسمح باستعمال القوة. وسعى بوش للاستفادة من مؤتمر القمة للمجموعة الأوروبية CSCE في ١٨ تشرين الثاني في باريس لجلب المزيد من الإيضاحات.

تمَّ الاجتماع دون توتر. كان بوش هادئاً، مجرداً حتى من أي أثر للانفعال. في ذلك اليوم بدا ريتشارد تشيني الأكثر قلقاً. وانتهى به الأمر إلى الاعتراف: «عندي كابوس، أخشى أن يضاعف صدام حسين من إرساله المزيد من القوى مما يدفعنا إلى رفع قدراتنا».

وبعد الظهر اتصل بوش هاتفياً بتاتشر وميتران ليعلمهما بزيارة بيكر. في الوقت نفسه تكلم الأخير مع ادوارد شيفاردنادزه وأبلغه بزيارة موسكو.

يملك الاتحاد السوفييتي حقَّ الفيتو في مجلس الأمن، ومساندته للمواقف الأميركية أمر حيوي.

ثم اتصل بيكر بالسفير السعودي بندر بن سلطان ودعاه إلى العشاء في منزله في فيرجينيا. وقد تقرر أيضاً بأن السعودي الذي شكل صلة وصل أساسية مع الملك فهد سيكون الرجل الوحيد الذي سيباح له بهذا السر. استمع بندر باهتمام إلى شروحات بيكر الذي أنهى كلامه قائلاً: «إن الحكومة الأميركية تطلب من نظيرتها السعودية إجازة بانتشار مئتي ألف رجل إضافي». أجاب بندر: بأنه سينقل هذا الطلب إلى الملك ثم أضاف: «أحياناً وبينما تنوي على اصطحاب صديق إلى الجنة، ينتهي بك الأمر بأن تدفع به إلى طريق جهنم».

في الخامس من تشرين الثاني، وبعد أن توقف جيمس بيكر في العربية السعودية حيث قام بزيارة فرقة الخيالة الأولى، وبعد أن أخذ

موافقة الملك فهد على الانتشار الجديد، توجه إلى موسكو. شيفارنادزه الذي كانت تربطه به علاقة صداقة، بدا له تعباً متقززاً ، ومشككاً في كل شيء: تطور البيريسترويكا، وإمكانية إبقاء التعاون الوثيق مع أميركا في قضية الخليج. دعا غورباتشوف بيكر إلى العشاء. تمّت الوليمة التي خيم عليها جو مقطب في مقصورة كائنة في ضواحي موسكو. خرج بعدها بيكر وهو يشعر بأن الاتحاد السوفييتي أضحى حليفاً ضعيفاً. ثم وجه في الليلة نفسها برقية مرموزة إلى برانت سكوكروفت طلب فيها السعي مع بوش لتأجيل الإعلان عن التعزيز العسكري إلى ما بعد الثاني من تشرين الثاني. فأجابه مستشار الأمن القومي: «إن ذلك مستحيلاً».

تميزت انتخابات السادس من تشرين الثاني بدفع واضح للديموقراطيين.

الرئاسة عمل يرغمك أن تصلي

جلس ريتشارد تشيني في مكتبة في البنتاغون وأجرى اتصالاً هاتفياً إلى جورجيا بالسيناتور الديموقراطي سام نان، رئيس لجنة القوى المسلحة الجبارة. نان رجل صارم وطموح، ويعتبر منذ البداية من بين المعارضين المتشددين لبوش وسياسته، وهو الذي كان قد نجح في الحصول من مجلس الشيوخ على رفض ترشيح جون تاور الذي اختير لمركز وزير الدفاع. اتصفت تدخلاته منذ بدء أزمة الخليج بالعداء الكامل لكل عمل عسكري.

قال تشيني: سام، يريد الرئيس بعد ساعة الإعلان عن إرسال قوى جديدة إلى العربية السعودية. في الطرف الآخر من الخط، بقي نان صامتاً لبعض الوقت قبل أن يسأل ببرودة وبلهجة قارصة.

ـ ما هو عدد الرجال المنوي إرساله إلى هناك؟

ـ مئتا ألف رجل.

كان تشيني قد أعطاه بعض الإيضاحات عن عدد الفرق المعبأة، وعن التعزيزات الجوية والبحرية.

استمع نان إلى كل هذه الشروط قبل أن يجيب: «ولِـم لم تقل لي شيئاً في ٢٤ تشرين الأول، يوم مثلت امام اللجنة لتشهد؟».

ـ لم يكن قد تقرر شيء بعد.

ـ إذاً، لم أُستشر، هذا ما يمكنني اعتباره. ثم أقفل الهاتف مغتاظاً. أعلن بوش «أن العديد الأميركي الذي يزيد عن مئتي ألف رجل سيرتفع إلى أكثر من أربعمایة ألف جندي قبل أواخر شهر كانون الثاني، بغية جعل العملية العسكرية الهجومية جديرة بالثقة». بعد ذلك، ظهر «نان» على شاشة التلفاز وصرَّح بأن الرئيس يطبق استراتيجية خاطئة، لا بل يمارس لعبة صدام حسين. وأوضح أيضاً أن لجنة القوى المسلحة التي يرأسها ستعلن عن افتتاح مجالس عامة للاستماع.

في الواقع وخلال الأيام اللاحقة، حضر عدد مسؤولي الجيش القدامى وأمناء السر في الدفاع للادلاء بشهاداتهم، فالتقت أقوالهم التي أذيعت مباشرة عبر الشاشة في الاتجاه نفسه: عملية عسكرية ستظهر أنها على ضلال: كان يجب انتظار نتيجة العقوبات الاقتصادية وأثرها.

كان سونونو وسكوكروفت يدرسان بدقة كل إجراءات التحقيق في الرأي العام وهما يتخوفان من أن يؤدي هذا الهجوم من قبل الديموقراطيين إلى أن يخلق فيه وبسرعة، نوعاً من التحفظ حيال فكرة الحرب، لا سيما

وأن صدام حسين أخذ في الوقت نفسه يتابع في بغداد عملية إطلاق الرهائن باعتاق مجموعات صغيرة كان قد احتجزها منذ بداية الأزمة.

في ١٣ تشرين الثاني، دعا بوش إلى الغداء أقرب معاونيه وبعض أصدقائه المخلصين. أقيمت المأدبة في البيت الأبيض في قاعة الطعام الفخمة الكائنة في الأجنحة الرئاسية والمعدة لاستضافة أكثر من أربعين شخصاً.

بعد أن تبادل مع الجميع كلمات لطيفة لا قيمة لها توجه إلى الحفل الذي خيم عليه جوٌّ من الذهول: «أودُّ لو يكلمني برحابة صدر كلّ واحدٍ منكم. هل ارتكبت خطأً ما حتى الآن؟».

وبدا ـ حسب أقوال المشاركين ـ مشغول البال، مهتماً في الحصول على أوسع تأييد من الكونغرس والرأي العام، متأثراً بالانتقادات التي كانت تشيع بأنه تورط في هذا النزاع لأسباب مردُّها فقط المراهنات البترولية.

ثم تابع يقول: «الآن استطيع أن أفهم حقيقة ابراهام لنكولن. كان محقاً حين قال: إن الرئاسة عمل يرغمك أن تصلي».

جولة واسعة عند الحلفاء

في ١٨ تشرين الثاني، وصل بوش وبيكر إلى باريس للمشاركة في مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا. وقد اجتمع في باريس لهذه الغاية خمسة وثلاثون رئيس دولة وحكومة. وكشف المجهود الذي أبداه الوفد الأميركي منذ الساعات الأولى وخاصة تجاه الفرنسيين والسوفييت أن أزمة الخليج هي موضع اهتمامه الوحيد.

على أثر اللقاء بين جيمس بيكر ورولان دوما، أعلن أمين سر الدولة بأن فرنسا مستعدة لتأييد قرار صادر عن الأمم المتحدة يسمح بإجراء عملية عسكرية ضد العراق. وبعد العشاء الذي ضمَّ بوش وميتران، أذاع الأميركيون رسالة مماثلة.

حينئذٍ أعلن الإليزيه أن اتفاقاً من هذا النوع لم يحصل.

في الواقع، كانت المواقف الفرنسية والأميركية متباعدة فيما يتعلق بموضوع المهل فقط.

وبينما أراد الرئيس الأميركي أن يحصل بسرعة على تصويت من مجلس الأمن خلال الثمانية أو العشرة أيام القادمة، تمنى ميتران الانتظار لمدة شهر على الأقل. فاعتبر بوش ان هذه المهلة طويلة جداً وقد تعطي صدام حسين الوقت كي يناور بغية إضعاف التحالف.

ـ بقيت وجهات النظر بين الرجلين مطبوعة بأوسع معاني المجاملة. أحب ميتران أن يكشف عن التغيير الذي لمسه بين مزايا رجل الدولة لدى بوش ونزعة الهواية اللطيفة لدى سلفه رونالد ريغان. فالرئيس الفرنسي الذي لم يكن ميالاً للألفة، بدا في حيرة عندما أخذ بوش يناديه «فرنسوا» خلال مباحثات طويلة أجرياها منذ بدء الأزمة. أخيراً، وبعد أن أوضح ميتران موقفه خلال مؤتمر صحفي دعا إليه في نهاية اجتماع باريس، أعلن أن ثمة قراراً ستتبناه الأمم المتحدة في الأسابيع الثلاثة المقبلة، ومن المحتمل أن يجيز استعمال القوة.

هذا الاستحقاق أقلق موسكو بقدر ما أقلقها الانتشار العسكري الضخم للقوات الأميركية والحليفة. وقد أعلن ذلك شيفاردنادزة لبيكر خلال ثلاث محادثات أجريت في باريس.

وعندما تقابل بوش وغورباتشوف اعترف الأخير بأنه لم يلمس أية ليونة في الموقف العراقي. والوضع كما قال لبوش ـ أصبح في منتهى الخطورة. ويجب علينا أن نبقى متحدين بقوة، ثم أرفق كلامه على التوِّ بحركة من يده، إذ مدَّها أمام الأميركي بأصبعين ملتصقين. بدا رئيس الدولة السوفييتي وكأنه فقد شيئاً من ثقته بنفسه، وكثيراً ما أبعد المشكلات الدولية ليعود إلى ضخامة الصعوبات التي يمرُّ بها الاقتصاد السوفييتي. وهي صعوبات ـ حسب ما يرى ـ تستغلها المعارضة إن من قبل التقليديين أو الأصوليين.

فقال له بوش «إن العديد من دول الخليج المعنية مباشرة، قدرت الموقف السوفييتي خلال فترة الأزمة. واقترح على غورباتشوف تقديم طلب مساعدة من الحكام السعوديين للاتحاد السوفييتي؟؟

وحسب قول أحد المشاركين الأميركيين: كان أمراً مستغرباً ما بدا عليه غورباتشوف وقد فقد حيويته، إذ كاد يعترف بأن البيريسترويكا خاصة، خلقت على الصعيد الداخلي مشكلات أكثر مما كان يرتقب حلَّها.

تمكن صدام حسين من الدخول في قمة باريس. وفور إعلان افتتاحها، أذاع راديو بغداد في الوقت نفسه بلاغاً أعلن فيه: إن جميع الرهائن الأجانب سيطلق سراحهم اعتباراً من عيد الميلاد.

فرد بوش قائلاً: «إن كان صدام حسين يرغب في حل سلمي فما عليه إلا أن يفعل في الكويت كما فعل في إيران. عنيت بذلك أن يعود على أعقابه. فلا أحد بحاجة لأن يطلق طلقاً نارياً واحداً إذا ما قام بواجبه: وهو أن يخضع لتنفيذ الشروط التي نصت عليها قرارات الأمم

المتحدة». وفي الحقيقة، إن الحكام الذين لازموا بوش خلال هذه الأزمة، أذهلهم إصراره الشديد وبخاصة عدم اعتقاده الكلي بوجود أي حل دبلوماسي سلمي للأزمة.

لم تكن باريس سوى محطة وقوف في الجولة الواسعة التي قام بها والتي قادته إلى العربية السعودية.

في ٢١ تشرين الثاني، أجرى محادثات مع الملك فهد ثم التقى في الطائف بالأمير جابر محاطاً بوليّ العهد وكبار أفراد عائلة الصباح. فقال له: «صاحب الجلالة قد تسمع وترى قريباً ما لا يسرك إنما لا يقلقك. فهدفي لن يتغير. ما يهمني هو أن يقتنع العالم بأننا لم ندخر أي مجهود في سبيل إعادة صدام حسين إلى رشده».

هذا السر يؤكد ما كان قد اعترف به بيكر سابقاً: لقد بذلنا خلال أشهر جهوداً مكثفة. وكان يجب أن نعمل آخذين بعين الاعتبار كل العاملين الداخلين في المعادلة».

والحال أن بوش شرع في القيام بعمل صعب: وهو إقناع الحلفاء والرأي العام في الولايات المتحدة والخارج بأن التحالف قد استهلك حقاً جميع الإمكانيات التي تؤدي إلى حل سلمي قبل المباشرة في الحرب.

وقد أبدى عدد من البرلمانيين الأميركيين اهتماماً بارزاً حيال النزاع المرتقب.

في٢٢ تشرين الثاني بمناسبة عيد الشكر، قام الرئيس الأميركي بزيارة القوات الأميركية المنتشرة في الخليج. فأخذ يجوب عليهم وهو يرتدي قميصاً، يشاركهم الطعام ويعاملهم بحرارة واهتمام.

وفي طائرته البوينغ، التي قادته إلى القاهرة، محطته التالية، وبينما جلست زوجته إلى جانبه، قال لمن حوله وهو شديد التأثر: «لقد راقبت وجوه هؤلاء الرجال والنساءالمهددين بالموت». . . غير أن التأثر هذا لم يتغلب عليه في أية لحظة. إذ بقي حذقاً ومنهجياً للغاية في طريقة بلوغ الهدف. والتقى في جنيف حافظ الأسد الذي تقلقه فكرة مغادرة بلاده، ولكن يسعده أيضاً الاعتراف الدولي به والممثل بالمحادثات الأولى مع الرئيس الأميركي.

لم يكن بوش يكنّ التقديرللرئيس السوري. وقد عرّفت مذكرة أعدّتها دوائر روبرت غايتس، حافظ الأسد «بأنه صدام حسين آخر، إنما أكثر حذراً. إذ يعرف أنه لا يملك الوسائل لتحقيق طموحاته». وكانت لهجة السوري المتسامحة وطلقته الهادئة قد فأجات بوش أحياناً حتى أنها أوقعته في حيرة.

وكما وصفه أحد الشهود: «فإن حلمه يشبه حلم ثعبان ألتقي وهو يبتلع فريسته».

تعلق القسم الأكبر من المباحثات حول موضوع كان يقلق جورج بوش إلى أقصى حد: ألا وهو مخاطر التهديد الارهابي.

فقد نقل مركز قمع الارهاب C.T.C الذي كان يقوم داخل السي. آي. إي، بجمع كافة المعلومات التي حصلت عليها الوكالات الفيديرالية الأثنتيّ عشرة ومنها الأف. بي. آي ـ معلومات مقلقة إلى البيت الأبيض مفادها: أن العراق ينشط من جديد علاقاته مع المنظمات الارهابية.

إن فاعلية مثل هذه المجموعات بالنسبة إلى الاخصائيين الأميركيين،

ارتكزت قبل كل شيء على الدعم الذي وفرته لهم بعض الحكومات المتواطئة، القادرة وحدها على تأمين الأموال واللوجستية، والأجهزة والمعلومات والأمن.

كان هدف الولايات المتحدة إذاً، تحييد هذه الدول وعلى ضوئه، أُرسل إلى القذافي تنبيه واضح وشديد اللهجة يشير إلى أن كل عمل توصي به طرابلس سيعقبه انتقام.

وبرأي مسؤول أميركي، فإن سوريا هي البلد المفتاح «القادر وحده على أن يفتح أو يجفف حنفية الإرهاب».

قبل حافظ الأسد بالتعاون مع الأميركيين. وأعتبر بوش أن الاستراتيجية الأكثر فعالية ترتكز على تنسيق وثيق بين أعضاء دول التحالف. وحسب قول أحد المقربين إليه: «حتى المجموعات الإرهابية تبغض مكاتفة خاسر».

أما إيران فقد اتخذت التدابير لتحييد عدد من المجموعات الخاضعة لرقابتها، آمرة إياهم بتجاهل الدعوات إلى الحرب المقدسة التي يطلقها صدام حسين. كذلك فإن حافظ الأسد قد أخذ في الاعتبار الحسابات نفسها، فبرأيه أن ميزان القوى الذي يصب في مصلحة التحالف لا يعطي العراق إلا حظاً قليلاً في النجاح.

القرار ٦٧٨

في ٢٦ تشرين الثاني استقبل ميخائيل غورباتشوف طارق عزيز، وكان الزعيم السوفييتي قد صعّد لهجته داعياً «العراق بحزم لتجنب الأسوأ». وقد يكون لهذا التصلب سبب آخر. ففي اليوم التالي، خلف

وزير الخارجية السعودي نظيره العراقي في العاصمة السوفييتية. وبشَّر بمنح قرض مالي وقدره أربعة مليارات دولار للاتحاد السوفييتي.

وفي ٢٩ تشرين الثاني، شهدت واشنطن خلال أسابيع عدة جهوداً دبلوماسية مكثفة توّجت بالنجاح. صوّت مجلس الأمن في الأمم المتحدة على قراره الثاني عشر مديناً به العراق باثني عشر صوتاً ضد اثنين (كوبا ـ اليمن) وامتناع واحد (الصين).

حمل القرار الرقم ٦٧٨ ـ وتلك هي المرة الأولى منذ حرب كوريا سنة ١٩٥٠ التي تصدر فيها الأمم المتحدة قراراً ـ بدءاً من ١٥ كانون الثاني ـ باللجوء إلى القوة لاستعادة سيادة الكويت، فرفضت بغداد هذا «الإنذار».

الفصل السابع

عرض لمناقشة فيها الكثير من المجازفة

وفي غداة تصويت هذا القرار، خلق بوش المفاجئة. إذ عرض فتح مناقشات مع العراق مقترحاً مجيء طارق عزيز إلى واشنطن ومغادرة جيمس بيكر إلى بغداد. وقد بوشر بتنفيذ الاقتراح، قبل بضعة أيام، في حدائق محل إقامة الرئيس المكسيكي كارلوس ساليناس.

وقد انتهز بوش الآتي لزيارة عمل خاطفة فرصة قصيرة للاستراحة كي يتحدث مع سكوكروفت وسونونو. فقال لهما: كان يجب عرض مبادرة تبرهن للكونغرس وللشعب الأميركي أن كل الوسائل قد استنفذت لتجنب الحرب قبل الخامس عشر من شهر كانون الثاني. التقط سنونو فكرة هذا التبديل. بعض العقول الجريئة أكدت أن هدف مثل هذا العرض ليس فقط محادثة العدو إنما لجعل الرأي العام يعتقد أن محاولة للتحدث قد أجريت معه». أما سونونو وسكوكروفت فقد راهنا على تصلب صدام حسين. إنه حساب غير دقيق.

فانتهز الرئيس العراقي الفرصة وقبل واصفاً بوش بأنه «متغطرس» و «عدو الله» ثم أضاف أنه سيستفيد من هذه اللقاءات من خلال مناقشة قضية فلسطين وباقي الأراضي المحتلة». كان هذا عرضاً بارعاً باتجاه الدول العربية الأعضاء في التحالف. أدرك بوش، الذي لم يطرأ على مسيرته حتى الآن أي خطأ، أنه عثر ولأول مرة. إن قرار ارسال بيكر إلى بغداد أثار قلقاً عميقاً لدى الحكام السعوديين. فقد استدعى ولي العهد الأمير عبد الله السفير الأميركي ليبلغه مغتاظاً: «إذا كانت حكومتكم تخبيء لنا مفاجآت أخرى من هذا النوع فلتكشفها سريعاً».

كان بندر بن سلطان وهو السفير السعودي في الولايات المتحدة مسافراً إلى لندن. في ٢ كانون الأول، في الساعة السابعة صباحاً، أيقظه صوت مرح على الهاتف:

«آوه بندر، قف، إنه منبهك». عرف السعودي صوت جيمس بيكر الذي اتصل به من واشنطن وهو غارق في الظلام حيث الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل.

أضاف بيكر: «إنك لا تزال تثق بي، أليس كذلك؟»: وافق بندر بن سلطان. قال وزير الخارجية: «إذاً: لدي خبر أعلمك به. فأمامي نتائج استقصاء الرأي العام التي ستنشرها «الواشنطن بوست» بعد بضع ساعات. إنها تبين ازدياد المساندة الشعبية للرئيس، منذ أن عرض طلب المناقشة هذا. وختم بيكر: أترى؟ لقد نجح الأمر، وهذا هو الهدف الوحيد».

السيناريو المظلم

غير أن الكواليس كانت تخبىء لهجة أقل انتصاراً. إذ اعترف بوش بوقوعه في الشرك. «فلا يزال لغاية الآن ـ حسب قول أحد مستشاريه ـ يتحرك وفقاً لنمط تام. وأخذ يجهد نفسه لإزالة كل معارضة ممكنة، ومثال ذلك ما كان قد أعلنه عن مضاعفة جيوشه حيث اعتمد وبحق على ميول الأميركيين للانضواء تحت راية رئيسهم». وفجأة، اتخذت الأشياء منحى آخر.

فبوش قد أكد بشدة في خطابه الافتتاحي في الكابيتول: «أن الأمم الكبيرة كالرجال العظماء يجب أن تفي بوعودها. وعندما تقول أميركا شيئاً ما يجب عليها احترامه سواء أكان اتفاقاً أم معاهدة أم قَسَماً حفر في الرخام».

ولغاية الآن قد وفى بوعده تماماً برفضه اعتبار ضم الكويت أمراً واقعاً: «فقد أكد استحالة تلوث الشرق مع الشيطان» ولكن، في حال قبل الشيطان التسوية؟ كان في البيت الأبيض خلال تلك الأيام يتصور السيناريو الأكثر غموضاً. فصدام حسين هذا قد يستغل هذه المناقشات التي يعرضها بوش ليطرح الصراع العربي الإسرائيلي ثم يعلن أنه سينسحب إلى شمال الكويت في المنطقة الحدودية الغنية بالبترول حيث لا يعترض أحد كونه يملك هناك بعض الحقوق.

«أتعلمون ماذا سيحدث إذاً ـ قال سكوكروفت خلال اجتماع ما ـ: قد نكرر ونكرر أن هذا شيئاً غير مقبول، وذلك لا يمنع صدام حسين من أن يسجل انتصاراً. فتكتل الحلفاء آنذاك لم يمتنع عن الدخول في الحرب فحسب، بل من المحتمل أن يتشتت».

لم يكن أحد يجرؤ على ذكر العاقبة على الرغم من أهميتها: قد تفقد أميركا هيبتها بعد أن تحشد «ارمادا» أي اسطولاً كبيراً كهذا، وتتبخر أحلامها في زعامة العالم.

وبعدها بقليل، نقل جيمس بيكر لجورج بوش أمراً جديداً، له أثر مهم في تطورات الوضع. فقد أخبره إدوارد شيفارنادزه وزير الخارجية السوفييتي لدى مروره في نيويورك بما يلي: «أنا مثل غورباتشوف. أرى أن ثقتي بطارق عزيز تتضاءل. ولا أعتقد أنه ينقل رسائل صحيحة إلى صدام حسين. إنه يعرف أن هذا الأخير يفضل التقارير الإيجابية وأن حاملي الأخبار السيئة غالباً ما يدفعون ثمناً غالياً».

لم يكن طارق عزيز على الأرجح المسؤول العراقي الوحيد الذي

يمارس السياسة الإخبارية الانتقائية هذه. فالمعلومات الآتية من بغداد أفادت أن صدام حسين بقي مقتنعاً بالضعف الأميركي، لا بل أخذ يردد ذلك أمام زائريه، وأنه كان يدري كل شيء من خلال واقع مشوه. فالتقارير التي أرسلها إليه سفيره في الولايات المتحدة (المشاط) شجعته على الاستمرار في هذا النهج. وقد اعتبر الرئيس العراقي: «أن الصعوبات التي يلقاها بوش في مناظراته حول الميزانية، وسوء حظه في انتخابات تشرين الثاني أثناء التجديد للكونغرس، وتخلي مارغريت تاتشر عن الحكم، كانت جميعها تشكل الدليل على تفكك التكتل القادم وعزلة بوش المتزايدة. حتى أن صدام حسين صرّح لأحد الموفدين العرب بأن فصل رئيس أركان سلاح الطيران ميكاييل دوغان الذي عوقب لأنه بالغ في تصريحاته للصحافة، إنما يبرهن على معارضة قسم من الجيش للرئيس الأميركي وعلى أخطار انقلابات عسكرية تهدده. وإذا كان صدام حسين ـ وهو ليس عبقرياً في التكتيك ـ لم يستغل بحذف أكثر عدداً معيناً من الفرص تسمح له بأن يسجل نقاطاً قيّمة، فذلك لأنه على الأرجح اعتبر الأمر مجرد مبادرات زائدة في وجه حكم أميركي مشلول.

حرب كلامية حول التواريخ

إثر ذلك بقليل، عرضت بغداد تواريخها للحوار الذي اقترحه بوش. فمدد مجيء طارق عزيز إلى واشنطن في ١٧ كانون الأول وجيمس بيكر إلى بغداد في ١٢ كانون الثاني. رفضت واشنطن التاريخ الأخير إذ اعتبرته قريباً جداً من ١٥ كانون الثاني وهو التاريخ الذي حددته الأمم المتحدة للانسحاب العراقي في الكويت. ردّت الإدارة الأميركية بأن زيارة بيكر يجب أن تجري بين ٢٠ كانون الأول والثالث من كانون الثاني. هذه المجادلة حول التواريخ التي تواصلت خلال الأيام اللاحقة كانت مثقلة

بالمراهنات والمجازفات. فسكوكروفت وتشيني شاركا الرأي نفسه القائل بأن صدام حسين عندما يختار الثاني عشر من كانون الثاني لاستقبال بيكر، إنما يريد أن يدفع بتاريخ الخامس عشر من كانون الثاني الذي يحدد بداية انسحاب الجيوش العراقية من الكويت إلى المرتبة الثانية. فلو طرح صدام حسين خلال هذا اللقاء عرضاً مهماً قابلاً للنقاش لجعل من الهجوم العسكري أمراً مشكوكاً فيه.

أثار سكوكروفت مشكلة أخرى ألا وهي: أن طارق عزيز سيتهيأ له في واشنطن مع الصحافة والكونغرس سطحية مثلى لينصرف إلى عملية دعائية يحصل من خلالها على أوسع صدى.

وبينما اقترح العراقيون اقتصار هذه الزيارة على ٤٨ ساعة، اعتبر الأميركيون أنها مهلة تبقى مع ذلك طويلة.

بوش لشامير: لا هجوم وقائي. هل بإمكانك أن تضمن لي ذلك:

في ١١ كانون الأول، وصل رئيس الوزراء الإسرائيلي اسحق شامير إلى واشنطن للقاء بوش. لم يكن الرجلان قد تحادثا أبداً منذ الثاني من شهر آب، فإبعاد هذا الإسرائيلي كان قد قرّح قلبه، بينما أخذ بوش حذره منذ زمن بعيد من صلابة هذا الرجل، ذي القامة القصيرة، البالغ من العمر خمسة وسبعين عاماً، والذي هو رئيسٌ لمجلس الوزراء ولحزب الليكود منذ تخلي مناحيم بيغن. جرى الحوار بين الحاكمين داخل المكتب البيضاوي. وكان من المفروض أن يكون الحوار بينهما متشنجاً غير أنه تميز باللباقة والتسامح. علم البيت الأبيض أن سلاح الطيران الإسرائيلي أخذ يكثف من تدريباته إنطلاقاً من قواعده السرية الواقعة في صحراء النقب على مهمات قصف الأهداف التي تمثل مناطق تمركز قواعد

الصواريخ العراقية.

«بالنسبة إلينا ـ قال معاون لبوش ـ إن زيارة شامير هذه، من الممكن أن تسمح بكشف لغز ما: هل كان باستطاعته حقاً أن يضبط حكومته المنقسمة شيعاً وأن يفرض عليها آراءه إذا افترضنا أن لديه آراءً». لقد حُلَّ اللغز في جزء كبير منه خلال المناقشات. فقد كان لشامير فكرة واضحة جداً عن الموقف الذي يجب اتخاذه حيال الولايات المتحدة. افتتح بوش المحادثات قائلاً لمحاوره:

ـ إننا نفهم جيداً قلق سكان إسرائيل تجاه الأخطار التي تهددهم. أجاب شامير: ـ سيدي الرئيس. أشكرك على هذه الكلمات.

ـ استطرد بوش قائلاً: لدينا مخططات واقعية لهدم مناطق الصواريخ العراقية المتمركزة في شمال العراق. حقاً واقعية. لقد أصر في كل مرة على هذا التعبير.

«لقد سبق وحّددناها ونحن الآن قادرون على تعطيل قاذفات الصواريخ الثابتة والمتحركة على السواء...». كان رئيس الوزراء يصغي باتجاه بوش ويداه مسترخيتان على طرف الكرسي.

ـ ... يجب أن تتركوا قوات التكتل تعمل وألا تتدخلوا في أي وقتٍ كان. أبإمكانك أن تضمن لي ذلك؟

ـ إني أعدك بأننا لن نتدخل في عملية قوات الحلفاء. وجّه له بوش ابتسامة عريضة وبالهدوء نفسه أجاب:

ـ ليس هذا ما أطلبه منك تماماً. هل ستتخلون عن هجوم وقائي ضد العراق. إنها بالنسبة إلينا النقطة الأكثر أهمية...... بدا شامير مرتبكاً لكنه بقي صامتاً. استطرد بوش:

ـ . . . إنك تعلم أننا قد نجحنا حتى الآن بإبعاد أية علاقة بين هذه الأزمة و«الخلاف العربي ـ الإسرائيلي». فتحاش بدورك خلق صلة بمهاجمتك أو بردّك.

ـ سيدي الرئيس:

كان شامير ـ وقد تشنج وجهه ـ يبحث عن كلماته.

ـإنك تطلب منا اتخاذ قرار شديد الخطورة. لن تقبل إسرائيل أبداً بأن تكون ضحية.

ـ حضرة رئيس الوزراء . . .

كان الرئيس الأميركي يتكلم آنذاك ببطء

ـ إن هدم كل الأسلحة العراقية التي باستطاعتها تهديد إسرائيل ستكون الهدف الأول للحلفاء. إني أتعهد بذلك رسمياً.

هزّ شامير برأسه.

ـ إذاً، نقبل.

ثم قدم رئيس الحكومة الإسرائيلية، وهمّه تقوية علاقاته مع واشنطن، تعهداً مزدوجاً: بعدم الهجوم الوقائي، وبإجراء «مشاورات مباشرة» مع الرئيس الأميركي قبل الرد على أي هجوم عراقي محتمل. بعدها عرض الإسرائيليون تنمية التعاون في حقل المخابرات. بدا بوش متردداً ثم قال:

ـ إنها موجودة.

أجاب شامير:

ـ لكن بإمكانها أن تُعزز، باستطاعتنا إمداد القوات الأميركية بمعلومات عديدة.

لاحظ معاونو بوش أن شامير لم يعرض توسيع التعاون ليشمل فرنسا وبريطانيا العظمى. وقد اتفق أيضاً خلال إقامته على إنشاء خط مرور، يوصل باستمرار مركز الأزمة في البنتاغون بوزارة الدفاع الإسرائيلية في تل أبيب.

وبفضل هذا الجهاز المعلوماتي المسمى "Hammer Rick" سيحصل الإسرائيليون وبشكل فوري على كل المعلومات المتعلقة بصواريخ سكود "Scud" الجاهزة للانطلاق على إسرائيل فور أن تلتقطها الأقمار الصناعية الأميركية التجسسية.

وعند عودته إلى أورشليم، قدم اسحق شامير لأعضاء وزارته نتائج مقابلته، فانتقده بقسوة وزراء عديدون يمثلون جناح اليمين ومنهم آرييل شارون الذي شغل منصب وزير الدفاع إبان اجتياح لبنان سنة ١٩٨٢. كان الأخير يدافع عن فكرة العقوبات الفورية في حالة الاعتداء دون العودة إلى الأميركيين. أصغى إليه شامير وهو يعرض وجهة نظره ثم أجاب:

ـ إنك على خطأ. لقد وجدت أن أفضل وسيلة للعمل على هدم صدام حسين، هي في التعاون الوثيق مع الولايات المتحدة.

«الدب» قلق

في ١٧ كانون الأول وهو اليوم المرتقب للقائه مع طارق عزيز، استقبل بوش في البيت الأبيض سفراء ٢٨ بلداً وهم أعضاء في الحلف. والهدف من هذه المبادرة شبه المرتجلة، إقناع العراق بعدم المراهنة على الانقسامات داخل التحالف. غير أن القلق ظلّ سائداً ومستمراً.

وفي منتصف شهر كانون الأول ذهب ريتشارد تيشني وكولن باول إلى

المملكة العربية السعودية ليحدد التاريخ النهائي وتفاصيل الهجوم. وكان أن مدَّ خط مباشر ومستمر منذ شهر آب بين البيت الأبيض ومكتب قائد قوات الحلفاء الجنرال شوارزكوف. لكن بوش ـ الأمين لمنهجه في تحديد الخطوط الكبرى وترك مهمة التفاصيل للأخصائيين ـ لم يكن قد اتصل به أبداً.

أما «الدب» ـ كما لقبه معاونوه ـ فقد أكدَّ قلقه الذي عبر عنه سابقاً في تقارير عديدة نقلت إلى البنتاغون. وفيما أخذ انتشار وتمركز القوات يتم ببطء أكثر مما هو متوقع، أصبح من الصعب الالتزام بتاريخ ١٦ كانون الثاني الذي اقترحه بوش لشن العمليات الحربية.

أجاب تشيني: «إنه من المستحيل الرجوع عن هذا التاريخ دون أن يبدو انذار الأمم المتحدة خدعة». شاركه باول الرأي. ومنذ ما يقارب الشهرين، كرَّر رئيس الأركان رحلاته إلى أوروبا والشرق الأوسط بهدف تثبيت بنية القيادة الموحدة.

قال القائد المساعد القديم للحلف الأطلسي الجنرال «اكهرست»: «إن التنسيق التام فيما بين القوات البحرية والجوية والبرية قد أنجز بفضلي وبوقت قياسي» إنه اقترح اشراك القوات العربية في التحالف، عانياً بذلك انضواء المغاربة والمصريين والسوريين والسعوديين تحت إمرة الجنرال خالد بن سلطان قائد الجيش السعودي.

كانت المتطلبات السياسية تجد نفسها في مواجهة الضروريات العسكرية، وكان باول جندياً وسياسياً في آن واحد، يقف إلى جانب تشيني ضد شوارزكوف.

تفحص الجميع الأهداف المختارة للغارات الجوية. فارتفع عددها

من الثمانين إلى ما يقارب الأربعماية هدف؛ وكان من مهام صواريخ الكروز وقاذفات القنابل الخفية والتقليدية ضرب مناطق الأسلحة النووية والكيميائية، وقواعد السكود والمراكز الصناعية والأجهزة الهاتفية ومراكز القيادة، على أن يُصار في المرحلة الثانية إلى إمكانية هدم المطارات ومراكز الدفاع الجوي لبطاريات سام والرادارات، ثم طرق التموين بشكل تُعزل به القوات المتمركزة في جنوب العراق والكويت. وحين لحظ أن الآلات ستقوم بأكثر من ألفي طلعة يومياً، وجد شوارزكوف ومساعدوه أنفسهم في مواجهة مشكلة أخرى: إذا أن ٥٪ فقط من الطيارين الأميركيين الحاضرين كانوا من ذوي الخبرة في الحرب والمعارك الجوية.

نقل الدب أيضاً أمرين مثيرين للقلق: الأول ويتعلق برصد الأقمار الصناعية المتجسسة لقوافل عسكرية سوفييتية يفوق بعضها الأربعماية شاحنة وهي تجتاز إيران متجهة نحو العراق. فيما يُعلم الثاني - وقد لفت أنظار العسكريين - أن فريقاً من قوات الحرس الجمهوري مع وحدات من الجيش النظامي تركوا جنوب العراق والكويت متجهين نحو الشمال، وهي أعداد مهمة من القوات المسلحة فاقت الثلاثين إلى الأربعين ألف رجل. كانت حركة متواصلة. وهل يعني ذلك بداية انسحاب عراقي؟

أجابه تشيني: «إن على صدام أن يعلن قراره بالانسحاب. فإذا أتمَّ ذلك، فحسناً نعلّ، وإلا فلا حاجة لإفشائه».

أهداف العسكريين وخيار بوش

ترك بوش واشنطن في ١٨ كانون الأول لتمضية أعياد آخر السنة مع عائلته. فكر بأن يبقى غائباً طوال اثني عشر يوماً. وقد شغلت هذه الفترة معاونيه. فالجميع يتذكر الانتقادات اللاذعة التي رافقته خلال

عطلته الصيفية الطويلة في «كنيبنكبورت» بينما الجنود يبحرون باتجاه المملكة العربية السعودية.

لقد خشي أن يتحول الرئيس الحازم في نظر الرأي العام إلى زعيم قاسي القلب في وقت تقترب فيه مخاطر الحرب.

وقد نجح المستشارون المتخوفون الذين بقوا على اتصال دائم به، في ثنيه نوعاً ما عن ذلك. فاحتفظ بالمدة لكنه تراجع عن الذهاب إلى تكساس كما اعتاد أن يفعل في كل سنة، إذ يذهب إلى الصيد برفقة بعض أصحابه قبل أن يمضي يوم رأس السنة في «هيوستن» حيث ممتلكاته.

سيبقى في كامب ديفد مما قد يحد من ظهوره بين العامة ويوفر عليه كل استغلال مؤذٍ قد تنشره الصحافة.

وقبل أن يسافر، أكد بوش ثانية أنه مصر على إبقاء التواريخ التي عرضت للقائه مع عزيز في واشنطن كما هي وتلك التي مع بيكر في بغداد. ثم أضاف قائلاً: «إن كل ما يتصور بعد الثالث من كانون الثاني يعتبر من باب التكهن».

وقبل ساعات قليلة من مغادرته، عقد اجتماعاً أخيراً وهو محاط بجميع معاونيه. «كان يسود جوٌّ غريب ـ قال أحد المشاركين ـ إذ بدا الرئيس مرتبكاً لأول مرة منذ الثاني من شهر آب.

فقد انتابه شعور ـ وربما شمل جميع الحاضرين ـ بأن بعض العناصر أخذت تفلت من رقابتنا. فحدد التاريخ النهائي المتوقع لشن الهجمات: في ١٦ كانون الثاني الساعة التاسعة عشر بتوقيت واشنطن، الثالثة صباحاً بتوقيت الخليج. غير أنه لم يكفّ عن طرح الأسئلة لكولن باول التي استهلها جميعها بـ: ماذا سيحصل إذا. . .؟

نذكر مخاطر الطقس السيء الذي من شأنه أن يشوش على سير العمليات أو هجوماً عراقياً ضد إسرائيل في الخامس عشر، أي عند نهاية مهلة الانذار. وقد عاد إلى التفاصيل في اختيار الطائرات المستعملة وانجازاتها الدقيقة».

وتفحص بدقة أيضاً لائحة الأهداف المختارة وشطب منها ثلاثة مواقع في بغداد: نصب تذكار الموتى العراقي، تمثال عملاق لصدام حسين، وفندق الرشيد الذي أصبح بعد بضعة أسابيع مكاناً لاستضافة الصحفيين الأجانب.

غير أن السي. آي. إي جزمت بالتقاطها مخابرات تكشف أن سرداب هذا الفندق هو أحد مراكز الارسال للجيش العراقي. فبدأ المسؤولون عن الوكالة باستجواب المهندسين الغربيين الذين قاموا بترتيب قاعات مبنية تحت الفندق هي بمثابة غرف محصنة. فتشابهت استنتاجاتهم بقولهم: «إن هذه الأماكن معدة للاستعمال العسكري».

لعبة الاتحاد السوفييتي المزدوجة

كانت الوكالة الوطنية للأمن الواقعة قرب «فورت ميد» على بعد ٦٠ كيلومتراً من واشنطن قد نقلت معلومات أخرى مقلقة: إذا أن مركز التنصت ـ الأكثر إتقاناً في العالم والقادر على التقاط وفك رموز المعلومات الصادرة عن أية بقعة من الكرة الأرضية ـ كان قد التقط رسائل واردة من محطات سوفييتية وموجهة إلى بغداد. وهي تفيد بمعلومات حول تواتر الدورات التي تقوم بها الأقمار الصناعية المتجسسة فوق العراق . هذه الوقائع مضافة إلى القوافل العسكرية المحملة بالذخائر عبر ايران، عكست على الاتحاد السوفييتي دوراً مثيراً للشكوك. هل كان ذلك تقلباً

في الرأي السوفييتي أم مساندة تكتيكية بسيطة؟

لم يكن أحد قادراً على حسم الأمر، لكن تشيني كان من أنصار توجيه تحذير واضح لموسكو: «يجب أن يعلموا أننا نعلم». أما بوش فقد رفض هذه الفكرة.

ـ إنهم يا ديك لا يعرفون حتى الآن ما يكفي لكي يشكلوا بالنسبة إلينا مصدر قلق.

لا تغيير في قواعد اللعبة

كان انكفاء الجيوش العراقية من الكويت وجنوب العراق مدعاة أخرى للارتباك. فقد اعتبر سكوكروفت ـ وغلاف نظارته مطوي باتقان في جيب قميصه ـ أن ردَّة الفعل غير واجبة.

ـ لم يزل الوقت مبكراً لمعرفة ما يهيئون. فإذا ذكرنا هذه الانسحابات سيصبح من الصعب تبرير وجود ٧٠٠ ألف رجل للحلفاء. إن الذي وعدنا به حلفاءنا هو مبدأ يتمثل بحرب أخلاقية ضد عدوان غير مقبول ـ فمن المستحسن ألا نغيّر قواعد اللعبة الآن. وافق بوش. «كان يُظهر وجهاً مغلقاً ـ كما قال أحد المقربين إليه ـ يعكس لديه الارتباك دوماً. فقد عرف الآن أن التراجع ليس ممكناً وقد أصبح العزم الذي أعلنه منذ وقت طويل عبئاً تقريباً. في الواقع، كان يحترس من قلقه الشخصي، فأراد أن يبقى حتى النهاية رئيساً قوياً هادىء الأعصاب، غير أن الضغط الذي ألقي على كاهله أخذ يصعب احتماله أكثر فأكثر. كان دائماً يقول لنا: إن أسوأ الأخطاء بالنسبة إليه هو ذلك الذي ارتكبه وزير الخارجية الكسندر هيغ سنة ١٩٨١ مباشرة بعد محاولة الاغتيال التي نُفذت في واشنطن ضد ريغن. إذ ظهر هيغ أمام الكاميرا مصرحاً: «إنني أسيطر على الموقف».

فكان صوته ومظهره يكذبان هذا التأكيد. وبدا مذعوراً غير قادر على التحكم بمشاعره. في الواقع، كان بمقدوره أن يرعب البلد. بوش الذي كان آنذاك نائباً للرئيس، حفر في ذاكرته هذا المشهد. وقد انتابه شعور بأن أزمة الخليج قد عظمته وجعلته أقوى وأكثر شعبية من أي وقت مضى. فأصبح منذ ذلك الحين يخاف دفع الثمن».

الفصل الثامن

قوة الاخلاق وأخلاق القوة

خلال عطلته في كامب ديفيد، قضى بوش وقته بين أفراد عائلته وبعض أصحابه تارة، وممارسة الصلاة طوراً. فقد برمج أيامه إذ كره الخمول وفكرة الخوض في التفاصيل.

كان يكرس ساعات عديدة في الصباح ليلاعب أحفاده ثم يتصل هاتفياً بالبيت الأبيض ليواكب التطورات الأخير. وبعد وجبة الغذاء يتصل بكافة المسؤولين في الخارج وذلك قبل الذهاب في نزهته بين الممرات التي تحيطها أشجار الصنوبر الواقعة في سفح قمم «كاتوكتانس». ثم يعود فيعمل في الملفات ويقضي السهرة مع أقربائه حول النار. ففي إثني عشر يوماً سجل ٧٢ اتصالاً هاتفياً بثلاثة وعشرين ملكاً أو رئيس دولة أو حكومة.

لقد أُبعدت الصحافة بدقة، غير أن الأسرار القليلة التي أفاد بها الزوار المقبولة إقامتهم لساعات عدَّة أو لبضعة أيام إلى جانبه، وصفته بانسان زال الشك عنه شيئاً فشيئاً. كان قد قرأ تقريراً بمجمله، وارداً من AMNESTY International حول الفظائع التي يرتكبها العراق في الكويت.

وفي إحدى الأمسيات، أخذ يتحدث مع أحد مدعويه المطران براونغ رئيس الكنيسة الانكليكانية، الذي اقترح فكرة التمهل قبل الدخول في الحرب. فأجاب بوش وهو منزعج نوعاً ما: «إقرأ هذا التقرير وانظر ما فعل جيش بغداد. أين كانت الكنائس عندما نفى هتلر اليهود البولنديين؟».

لقد شغلت المناقشات حول الأخلاق والإيمان عند آل بوش مكاناً واسعاً، وعكست أحياناً مشاغل غريبة. وهكذا خلال إقامتهما تساءلت بربارة بوش وزوجها مطولاً حول اختيار كاهن يلتحق باستمرار بالبيت الأبيض، ويقيم الذبيحة الإلهية أو يحتفل بالقداس للزوجين ولمعاونيهما. وإلى حين انتهاء العطلة كان هذا الملف لا يزال معلقاً. غير أن الرئيس الأميركي حسم الأمر فيما يتعلق بمسائل أكثر خطورة وإلحاحاً. عاد إلى البيت الأبيض بعد ظهر الأول من كانون الثاني. كان جون سونونو وبرانت سكوكروفت ينتظرانه قرب الطوافة. فمشى بهما نحو جناحه الخاص: «بدا مرتاحاً وهادئاً بشكل جيد» (سونونو يتذكر). وبينما ارتقى السلّم ليصل إلى الطابق الثاني قال الرئيس للرجلين المحيطين به «لقد وجدت حلاً لكل مشاكلي الأخلاقية. فالأشياء إما سوداء أو بيضاء، إنه صراع الخير ضد الشر». لقد لفظ هذه الكلمات بوضوح، مُقرّاً بحقيقة بديهية لم يعد يضطر إلى العودة إليها.

قال أحد مساعديه: «كان مقرُّ الرئاسة خلال غيابه يشبه مملكة غانية، إنه «كميرلان» يمنح الحياة بضربة عصاه السحرية، ويا عجباً من هذه القوة!».

عدّل بوش في برنامجه. فقد لحظ فيه غداة وصوله اجتماعاً مع كبار معاونيه. فقدمه يوماً. وصل كولن باول، ريتشارد تشيني، روبرت غيتس، برانت سكوكروفت، وجون سونونو في الساعة السابعة عشر إلى غرفة القيادة. cabinet Room حقق بوش مع بول وتشيني فجأة:

ـ حين ينهزم العراق، هل سيكون احتلال البلاد واجباً؟

لم يكن هذا السؤال متنظراً، فبُغت الجميع. كان بول أول من أجاب:

ـ سيدي الرئيس، أعتقد أنه من الواجب فعل كل شيء لتحاشي ذلك.

ـ لماذا؟

ـ لأن الاحتلال دوماً مسألة دقيقة، وقد تكون قواتنا سريعة الانكسار في حرب العصابات.

تدخل تشيني:

ـ لقد سبق وأعلمنا العديد من حلفائنا العرب، أنه في حال اجتيازنا حدود الكويت سينجم عن ذلك في نظرهم وضعاً جديداً كلياً وذا عواقب غير مرتقبة. استمع الرئيس ولم يعلق. وبعد انتهاء الاجتماع اختلى لبضع دقائق في جناحه الخاص، ثم عاد فنزل في الساعة التاسعة عشر. كان بيكر وسكوكروفت وسونونو في انتظاره.

خلال فترة عطلة نهاية السنة، كان الرجال الأربعة قد بقوا يومياً على اتصال دائم فيما بينهم.

لم يكد يجلس حتى أفصح بوش عن نواياه: فهو يريد طلب تصويت من الكونغرس يوافق على استعمال القوة.

إن الدستور الأميركي يجعل من الرئيس القائد الأعلى للجيوش، لذلك اعتبر بوش أن الدخول في الحرب من صلاحياته المطلقة. ومنذ سنوات عدة وهذه المسألة موضوع جدل عنيف.

سأل جورج بوش ـ المعروف بدقته المعهودة ـ معاونيه أن يحصوا له تدخلات الكونغرس في الصراعات السابقة. ظهرت النتيجة في منتهى الوضوح، فخلال مئتي سنة من التاريخ، أرسل الرؤساء الأميركيون جنوداً إلى الخارج في ٢١١ جولة، وأعلن الكونغرس الحرب فقط في ٦ مناسبات. بيد أن جورج بوش تمسك بهذه الإجراءات لسببين: الأول

ويتعلق بإرسال إشارة واضحة إلى صدام حسين ودول الحلف تفيد بأنه حصل على مساندة لا ريب فيها من ممثلي الشعب. فيما الثاني وهو تكتيكي أكثر من سابقه يهدف إلى نصب فخ لأعضاء مجلس الشيوخ ولغرفة الممثلين. فإذا صوتوا ضد الدخول في الحرب فسوف يجدون أنفسهم أمام موقف حرجٍ في حال الانتصار السريع. وإذا تعذرت العمليات العسكرية سيتهمون في نظر الرأي العام بأنهم لم يمارسوا سيطرة كافية على السلطة التنفيذية.

لقد عرف بوش كيف يحصل على أكثرية واسعة في غرفة الممثلين، غير أن الإحصاءات الأخيرة التي أجراها جون سونونو في مجلس الشيوخ كشفت عن نتيجة غير مؤكدة.

ثم تناولت المناقشات موضوع المساهمات المالية التي وعدت بها بعض البلدان الحليفة. وقد أظهرت التقارير أن كلفة الحرب ستتعدى الـ ٨٠ مليار دولار. فالمملكة العربية السعودية والكويت كانا قد وعدا بالمساهمة بعد أن سبق وسدداً الدفعات الأولى. لكن وعود المانيا واليابان بقيت حرفاً ميتاً.

قال سونونو: «علينا أن نتذكر بعد الحرب موقف البعض من أصحابنا». بعدها بقليل، انتقل بوش إلى المسألة التي بدت له أكثر أهمية، وكان هذه المرة يحيي المحادثة باستمرار ولا يمس عملياً الصحون التي قدِّمت إليه.

ـ قال لي كولن: «منذ الآن وصاعداً، لدينا قدر من الرجال يزيد عدداً عما وجد في حرب فيتنام. يجب تحاشي أقل خطوة متعثرة». ودارت في ذهنه فكرة عدم الابقاء على العرض الذي قدمه إلى صدام حسين والقاضي بسفر بيكر إلى بغداد وطارق عزيز إلى واشنطن.

قال جيم لوزير الخارجية: صدام حسين مختبىء في عمق مخبئه وغارق في الظلام، وليس وارداً أن نمدَّه ببصيص نور. ويعني هذا الكلام اقتناع بوش بأن صدام حسين لم يكن حسن الإطلاع على الوضع وأنه يجب استغلال هذا الضعف. فمقابلة بين بيكر والرئيس العراقي منفردين تشكل في رأيه أموراً سلبية أكثر منها ايجابية. قد يستطيع صدام حسين أن يقيس مباشرة ولأول مرة سعة العزم الأميركي ويتصور آنذاك حلاً يتفاوض عليه لا يرغب به أحد في واشنطن.

لم يكن الرئيس الأميركي قد عبَّر عن ذلك الحل بمثل هذا الوضوح، غير أنه في وقت من الأوقات وأثناء العشاء، قال: «لقد أظهر صدام أهتماماً أكثر بالتلاعب في العرض الذي قدمته له، فاستخرج منه فوائد شخصية أكثر من التعبير عن جواب جدّي. اقترحنا عليه خمسة عشر تاريخاً فرفضها جميعها.

بلد محايد لمناقشة الانسحاب من الكويت دون شروط

كان سكوكروفت قد أعدَّ خطة اجمالية دقيقة تفصل مختلف «دوائر» الحكم المسيطر في العراق. ففي رأيه لم يكن طارق عزيز ينتمي إلى «دائرة الأصدقاء المقربين»، وغياب هذا القرب المحسوس من صدام حسين جعل منه المحاور الأمثل. كان على جيمس بيكر أن يذهب قريباً في رحلة بحرية تقوده إلى الشرق الأوسط والخليج؛ حيث باستطاعته التوقف في بلد محايد يلتقي فيه وزير خارجية العراق سواء في السابع أو الثامن أو التاسع من كانون الثاني. ولكي لا تؤول هذه المبادرة كتسوية، كرر بوش إعلانه مؤكداً أن الأمر: «ليس بفتح مناقشات ولكنه فقط عرض للموقف الأميركي: انسحاب فوري ودون شروط من الكويت».

سيحرر أيضاً كتاباً موجهاً إلى صدام حسين يسلمه وزير الخارجية

لطارق عزيز. أصبح تنفيذ هذا السيناريو أمراً ملحّاً. وبالفعل أخذت مبادرات السلام المتعددة والتي لم يعد باستطاعتهم السيطرة عليها تقلق الرئيس الأميركي والمحيطين. وهكذا توجه الزعيم المصري حسين مبارك إلى ليبيا ليلتقي القذافي وحافظ الأسد وقائد الانقلاب العسكري السوداني، بينما كان الرسميون الإيرانيون والأتراك والباكستانيون يجتمعون في أسلام أباد. غير أن الموقف الأوروبي بقي أكثر إثارة للقلق بالنسبة إلى إدارة بوش. ولما كان وزراء خارجية الأسرة سيجتمعون نهار الجمعة في الرابع من كانون الثاني، خشيت واشنطن ألا ينتهي هذا الاجتماع بمبادرة سلام. وكما قال سكوكروفت: «بالنسبة إلينا، لقد حان الوقت بأن نستعيد المبادرة ونضخّ حضوراً أميركياً في هذه الجهود الدبلوماسية». دام العشاء ساعة ونصف.

في ٣ كانون الثاني، أُدخلت حفنة من الصحفيين اختيرت بدقة إلى المكتب حيث كان جورج بوش في انتظارهم في الساعة السابعة والنصف صباحاً، وفي تلك الساعة غرابة. بعد أن صافح بلطف الواحد تلو الآخر مسمياً إياه باسمه، قرأ بوش نصاً مطبوعاً، اقترح فيه لقاء في الأسبوع المقبل في سويسرا بين جيمس وطارق عزيز. وأضاف بوش: «أنه ليس حاضراً لتجديد عروضاته السابقة وأن الأمر هنا يتعلق بالمجهود الأخير لإيجاد حلٍّ سلمي للأزمة».

وقد اختيرت الساعة المبكرة بغية بث الخبر في الاعلان الصباحي المتلفز. بعد هذه المعالجة وصل بوش إلى الـ Cabinet Room وهي غرفة متاخمة للمكتب البيضاوي، شغل القسم الأكبر منها طاولة كبيرة جلست من حولها جماعة من أعضاء الكونغرس كانت في انتظاره. كانت الساعة الثامنة والنصف صباحاً عندما أخذت غالبية البرلمانيين ترتشف فناجين القهوة التي وضعت أمامها. شارك جيمس بيكر في النقاش.

أعاد الرئيس بهدوء العرض الذي أعلنه لتوّه، فقال له الممثل الديموقراطي «للويسكونسن» لي أسبن متعجباً:

ـ سيدي الرئيس. لم يعتبر الثاني عشر من كانون الثاني يوماً تاريخياً متأخراً للقاء صدام حسين، بينما الثامن أو التاسع يليق تماماً بلقاء منفرد مع طارق عزيز؟

ـ يخشى أن تضعنا هذه المبادرة في موقف حرج، بالنسبة لآخرين قد يقيمون حواراً مباشراً مع صدام حسين.

أجاب بيكر:

ـ هذا لن يضعف موقفنا بأي شكل. إن الولايات المتحدة هي القوة العظمى والزعيم الوحيد لهذا التكتل. إن لصوتنا وحده التأثير القوي.

تمنى بوش هذا اللقاء مع البرلمانيين لأن المؤتمر الثاني بعد المئة من تاريخ الولايات المتحدة كان سيفتتح بعد بضع ساعات، وهو ما يلزمه قطعاً تمرير خبرين موجهين لخمسمائة وثلاثة وخمسين سيناتوراً وممثلاً أميركياً.

سيكون هناك جدل وتصويت على قرار من الكونغرس لمساندة الدخول في الحرب، غير أن نهاية المؤتمر حتى ولو كانت سلبية، لن تؤثر على عزمه. لم يبحْ بوش بأية معلومات دقيقة حول تاريخ بداية الحرب، غير أن أكثرية محاوريه بدت من أنصار الانتظار. واتفق الجميع على ألا يحدث أي جدل خلال جولة وزير الخارجية إلى الخارج.

نُقل العرض الأميركي إلى العراقيين عن طريق القائم بالأعمال في بغداد، وهو دبلوماسي في الأربعين من عمره، يتقن الفرنسية جيداً، اسمه جو ولسون. دخل هذا الأخير في الثالث من كانون الثاني ظهراً إلى مكتب نزار حمدون الوزير المساعد في الخارجية والسفير السابق في واشنطن.

أجاب العراقيون بعد أربع وعشرين ساعة بقراءة نص متلفز لطارق عزيز. أعطى رئيس الدبلوماسية العراقية موافقته على لقاء جيمس بيكر في التاسع من كانون الثاني في جنيف رغم «الطرح الوقح الذي واكب العرض الأميركي» والذي «يعبّر عن نوايا سيئة» لدى إدارة بوش. وأضاف عزيز: «كنت حاضراً للذهاب إلى واشنطن مقابل زيارة بيكر إلى بغداد فيما لو تصرفت الإدارة الأميركية بشكل لائق، محترمة القواعد الدولية المعترف بها».

ومباشرة بعد الجواب العراقي، أبعد جورج بوش ـ وقد سئل ـ فكرة زيارة وزيره إلى بغداد.

في اليوم نفسه، عرض وزراء خارجية الـ ١٢ على طارق عزيز فكرة المجيء إلى لوكسمبورغ بعد لقائه مع بيكر، للتحادث مع بعثة أوروبية. فرفضت بغداد العرض.

إنذار ١٥ كانون الثاني موجّه إلى صدام حسين لا لقواتنا المسلحة:

ألقى بوش في الخامس من كانون الثاني خطاباً إذاعياً سبق وأن سجل بالأمس في استاديروم Study Room وهي صالة صغيرة متاخمة للمكتب البيضاوي. فجلس حول طاولة مستديرة ـ حيث وُضع أمامه مذياعان ـ ممسكاً بيده اليسرى نصّ الخطاب. وقد اختير الوقت بشكل رمزي لمدة عشرة أيام قبل نهاية إنذار الأمم المتحدة، مشحوناً بلهجة لم تترك مكاناً للتسوية.

«إننا مهددون ـ قال خاصة ـ بدفع خسائر فادحة في الأرواح البشرية إذا ما تركنا لصدام حسين الوقت الكافي لكي يتهيأ للحرب». وأجاب بصدد اللقاء المنتظر في ٩ كانون الثاني في جنيف: «لن يكون هناك

دبلوماسية سرية، سينقل وزير الخارجية بنفسه رسالة إلى صدام حسين: «انسحبوا فوراً من الكويت دون شروط وإلا ستواجهون عواقب وخيمة». وعبَّر أيضاً عن براهين جديدة تصب في خانة التصلب: «يشكل العراق تهديداً استراتيجياً على عواصم ومدن مصر، العربية السعودية، إسرائيل، سوريا بمقدار الخطر الذي يشكله على رجالنا ونسائنا الموجودين في منطقة الخليج... والواقع أن صدام حسين، سبق واستعمل أسلحة كيميائية ضد مدنيين أبرياء. وعلى مرور الأيام، يقوِّي قدرته على تنمية الأسلحة البيولوجية والذرية والصواريخ لإطلاقها». وإضافة إلى ذلك قدَّم حجة اقتصادية: «سيصبح ارتفاع أسعار البترول عبئاً ثقيلاً لا تستطيع تحمله الديموقراطيات الجديدة في أوروبا الشرقية وأميركا اللاتينية. وفي الوقت الذي أذيعت فيه خطبته، كان جورج بوش يقيم في كامب ديفد منكباً على دراسة نص الرسالة الموجهة إلى صدام حسين.

كان قد رفض كل مساعدة من «السبيتش رايتورز» (كاتبي خطبه)، هؤلاء المعاونون الذين يحرّرون معظم خطاباته السياسية. لقد رغب في كتابة هذه الرسالة بمفرده. واضطر إلى إعادة كتابتها مراراً لأن اللهجة المستعملة ضد الزعيم العراقي كانت شديدة العنف.

سأله أحد المقربين:

ـ ما هو هدف هذه الرسالة؟

أجاب بوش:

ـ القول لصدام حسين، لديك خياران: «إرحل أو ستكون الحرب». وانقطع قليلاً عن العمل ليستقبل الأمين العام للأمم المتحدة بيريز دوكويار. دخل الرجلان إلى قاعة مضاءة، لها شرفة زجاجية مزينة

بأشتال من الزهور. جلس بوش على كرسي أبيض، وإلى يمينه طاولة من الأكاجو وُضع عليها قنديل وبعضٌ من صور العطلة التي يظهر فيها الرئيس الأميركي مع عائلته. وجلس الأمين العام للأمم المتحدة على كرسي عميق من طراز إنكليزي أكثر علواً من سابقه.

ارتدى كل منهما بزة فضفاضة كناية عن سترة من قماش «التويد»، وقميص مفتوح العنق. أراد بيريز دوكويار معرفة ما إذا كانت نهاية الانذار ـ يعني ١٥ كانون الثاني ـ تشير حقيقة إلى بداية الصراع. وبينما كان يتكلم بحذر وقلق، أخبر الرئيس الأميركي أنه يتمنى الذهاب إلى بغداد قبل الخامس عشر.

أجابه بوش بلياقة مبدياً شكوكه بالفرصْ التي من شأنها تليين موقف العراقيين، غير أنه لم يعارض سفراً كهذا. كان الدبلوماسي لا يزال متمسكاً بإمكانية الحل عن طريق المفاوضات ومقتنعاً بأن صدام حسين باستطاعته انتظار اللحظة الأخيرة لأخذ المبادرة.

لم يعترف بوش وأعوانه الحاضرون بأن ذلك ما كانوا يخشونه تماماً. «فبمقدور هذا الرجل أن يهيىء لنا مفاجئة كريهة». هذا ما قاله بالأمس جون سنونو.

الأكثرية تصوت مع الحرب:

قضى أمين عام البيت الأبيض هو الآخر عطلة الأسبوع في كامب ديفيد. وعندما أنهى لقاءه مع بيريز، عاد لينضم إلى بوش. تمحص الرجلان في استراتيجيتهما للحصول على الأكثرية في الكونغرس عند التصويت المنتظر بعد بضعة أيام، وعلى الموافقة باللجوء إلى القوة ضد بغداد.

كشفت الإحصاءات التي أجريت مساندة واضحة للرئيس في غرفة الممثلين. أما مجلس الشيوخ ذو الأكثرية الديموقراطية فكان أرضاً خصبة للأخطار والشكوك. فأخذت اللهجة وكلمات المجادلة تحتد حتى أن إدوارد كينيدي صرح بما يلي: «إننا نواجه الإدارة الأكثر غطرسة منذ قضية ووترغيت».

وقد أعد بوش لمواجهة مجلس الشيوخ هجوماً مؤلفاً من نقطتين: تكليف سنونو بالحفاظ على تلاحم المجموع الجمهورية؛ وبموازاته ينطلق البيت الأبيض في عملية إغراء مركزة فقط على ثلاث ولايات وستة شيوخ لا غير. عمل بوش في تكتيك سياسي دقيق هو نفسه الذي اتبعه في أزمة الخليج. كان من بين المختارين الشيوخ: جون بريو وبينيت جونستون من لويزيانا، هويل هفلن وريتشارد شيلبي من آلاباما، ريتشارد بريانغ وهاري رايد من نافادا. واتسم هؤلاء جميعاً بالمنحى نفسه: ديموقراطيون تقليديون منقسمون بين الوفاء لحزبهم والرغبة في مساندة مبادرة الرئيس. وقد ظن بوش وسنونو أن كل سيناتور سيكون أكثر حزماً للتصويت مع الحرب إذا ما قام زميله في الولاية نفسها بالاختيار ذاته.

وكان على جهاز الحزب الجمهوري أن يتحرك خلال الأيام القادمة ويمارس ضغطاً قوياً على الشيوخ المستهدفين، وذلك بفضل إمكانيات المناوبة التي يتمتع بها في الولايات الثلاث.

وستشكل محيطات رجال الأعمال المحليين، والمنظمات الدينية ورابطات المستهلكين القسم الأكبر من الفرق المنطلقة للهجوم.

أوروبا التسوية:

وصل جيمس بيكر إلى لندن في ٦ كانون الثاني حيث أجرى محادثة

في ١٠ داوننغ ستريت مع رئيس وزراء بريطانيا جون مايجور الذي كان قد خلف لتوّه مارغريت تاتشر. أسف المسؤولون الأميركيون على ذهاب «السيدة الحديدية» التي كانت بالنسبة إلى جورج بوش من أكثر الحلفاء تأييداً له. منذ بداية الأزمة، ورغم كونه زعيم حزب المحافظين، لم يكن مايجور سياسياً ذا طابع محدد، إذ تبدو طفولته ومراهقته كرواية من روايات ديكنز. كان أبوه بهلواناً في السيرك قبل أن يرميه حادث خطير في الفقر المدقع. وفي السادسة عشر من عمره، ترك الدراسة وعرف البطالة. إذاً، كان هناك نقاط قليلة مشتركة بين البريطاني المتأصل من الطبقة العامة والتكساسي الوريث الموسر، ما عدا المشاركة في وجهات النظر الكاملة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية. وفي لحظة ما، سأل مايجور وزير الخارجية الأميركية عن لقائه القريب في جنيف مع طارق عزيز.

ماذا ستقول له؟

أجاب بيكر وقد بان العزم على وجهه: «أمراً أساسياً، غادر الكويت أو ستخسر الحرب».

التقى بيكر بعد ذلك وزراء الخارجية الأوروبيين المجتمعين في لندن. وكرر لهم استمرار واشنطن في رفض كل مبادرة يقام من خلالها رابط بين أزمة الخليج والمسألة الفلسطينية. بدا بيكر ـ وهو الذي عوّد زملاءه على دبلوماسية لبقة ـ مغتاظاً من المبادرات الأوروبية. ففي وقت ما خلال النقاش قال: «فلنتحاشَ ارسال إشارات متناقضة من شأنها جعل الأشياء أكثر غموضاً».

إن صدام حسين بالنسبة إلى الأميركيين الرسميين: «شخصاً انقطع عن العالم وعن وقائعه منذ خمسة أشهر، ومن السذاجة الكلية الاعتقاد بأنه قد يتغيّر لاحقاً».

وخلال المراجعة، كرر وزير الخارجية الفرنسية رولان دوما طرح العرض الذي عبَّر عنه فرنسوا ميتران، والقاضي باقتراح اجتماع أخير لمجلس الأمن قبل تنفيذ الهجوم. أجاب بيكر: «إن بوش غير موافق على هذه المبادرة».

وتفرق الأوروبيون مدركين بأنه عملياً، لم يعد هناك مكان للتسوية وذلك من خلال ما أكَّده بيكر من جديد حيال لقاء جنيف الذي لن يتيح الفرصة «للمفاوضات».

بقي وزير الخارجية خلال جولته الأوروبية على اتصال دائم بالبيت الأبيض. قلق بوش وبطانته من تدفق سيل المبادرات الدبلوماسية الأخيرة، فأخذ بيكر علماً بتوقيف هذا السيل. وتوقف في الثامن من كانون الثاني على التوالي في باريس وبون وميلان، واصغى لعرض الرئيس الفرنسي الذي استقبله في الاليزيه. فقد اقترح هذا الأخير ارسال وزير خارجيته إلى بغداد فيما لو سقط لقاء جنيف. كما أعلن، أنه ومن جهة أخرى، سيعقد فوراً مؤتمراً صحفياً بعد نهاية المقابلة الثنائية في سويسرا. لم تفرح هاتان المبادرتان بيكر. فقد أصر على نقطة واحدة: وهي أن كل جهود الوساطة يجب ألا تنتهي بكسب عراقي. ومثال ذلك، الوعد بقمة دولية حول الشرق الأوسط اقترحتها فرنسا لاقناع بغداد بمغادرة الكويت.

أعاد بكير طوال ذلك النهار قراءة الرسالة نفسها إلى ميتران وهيلموت كول وجياني دو ميكلليس وزير الخارجية الايطالي: «بقدر ما يزداد صدام حسين شكاً بأن القوة لن تستعمل بعد الخامس عشر من كانون الثاني، بقدر ما تخف ارادته في الانسحاب من الكويت». وصل وزير الخارجية إلى جنيف في الليل الثامن. وكانت طائرة الخطوط الجوية

العراقية الناقلة طارق عزيز قد حطت منذ قليل. لاحظ المراقبون أن أخ صدام من أبيه بارازان التكريتي ـ وهو أحد قادة الدوائر وبطل المهمات ـ كان يرافقه.

كان هذا الرجل ذو الشارب الدقيق والوجه الهادىء، قد قام برحلات سرية عديدة إلى إيران.

قال طارق عزيز: «جئت بحسن نيتي... أنا مستعد لعقد محادثات إيجابية، بناءة، إذا شاركني وزير الخارجية بيكر النوايا نفسها». اتجهت أنظار العالم كله نحو سويسرا. في تزامن تام، وفي اللحظة حيث البعثتان تصلان إلى الفندق طلب جورج بوش من الكونغرس التصويت على قرار يؤيد استعمال القوة إذا لم يتم انسحاب العراق من الكويت في الخامس عشر من كانون الثاني.

اتخذت محاولة الرئيس شكل رسالة منقولة إلى الكابيتول، للزعماء الديموقراطيين والجمهوريين حيث طلب بوش من الشيوخ والممثلين: «أن يرسلوا إلى صدام حسين رسالة أكثر وضوحاً تشير إلى حتمية الانسحاب من الكويت دون شروط».

أضافت الرسالة أن القرار المصوت عليه «سيساعد في تبديد الاعتقاد السائد في ذهن الزعماء العراقيين والقائل بأن الولايات المتحدة ينقصها الاتحاد الضروري للعمل بشكل نهائي في ردِّها على الاعتداء الذي ارتكبه العراق ضد إمارة الكويت».

كشف احصاء للرأي العام قامت به آنفاً نيويورك تايمز والسي. بي. أس. أن ٥٧٪ من الأميركيين مقابل ٤٤٪ قبل شهر أصبحوا يؤمنون بمواجهة مسلحة مع بغداد. وكان ٦٠٪ من الأشخاص الذين سئلوا

رأيهم يقولون بوجوب تصويت الكونغرس على الحرب قبل دخول القوات المسلحة في المعارك.

ويبقى لغز واحد: كيف سيتم لقاء الغد في جنيف وكل فريق باقٍ على تصلبه.

وحسب قول أحد الشيوخ: يبقى هناك بصيص أمل. فعندما تكون هناك مواجهة، تؤول الأشياء دائماً إلى التطور ويصبح الخط الفاصل بين المناقشات والمفاوضات بدءاً من وقت معين ما، مستحيلاً تمييزه.

الفصل التاسع

تاريخ غلاف

أقام العراقيون والأميركيون في فندق الأنتركونتيننتال حيث تم اللقاء. حضره أيضاً وزير الخارجية الجزائري ورئيس الدبلوماسية في منظمة التحرير الفلسطينية فاروق القدومي وكانا قد التقيا العراقيين. في التاسع من كانون الثاني الساعة الحادية عشرة، جلست البعثتان في قاعة المحاضرات من صالون الأمم حول طاولة مستيطلة مغطاة بلبادٍ رمادي. وقد وُضع عليها رزمات من الورق وزجاجات ماء معدنية. أبدى جيمس بيكر وجهاً متشنجاً فيما أظهر طارق عزيز، وهو ذو شعر رمادي اللون ونظارات قاسية ونظرة حادة ـ الابتسامة. جلس بارازان التكريتي الأنيق الملبس إلى يمين وزير الخارجية: كان رئيسا البعثة قد ألقيا السلام باستخفاف «نهارك سعيد يا حضرة الوزير». بيد أنهما قبلا المصافحة بالأيدي نزولاً عند رغبة الصحفيين والمصورين. وعندما غادرت الصحافة بدأ وزير الخارجية بالكلام.

ـ حضرة الوزير. كيف ترغب أن نباشر؟

ـ كما تريد، بإمكانك المباشرة.

إننا نصغي إليك يا حضرة وزير الخارجية.

كان الواحد منهما يتكلم بصوت هادىء وموزون. قال أحد المشاركين: «لقد بقيت لهجة تبادل الأحاديث دبلوماسية جداً».

افاض بيكر بشرح الموقف الأميركي. أصغى طارق عزيز إليه وهو مكتوف اليدين. وعندما وصل إلى نهاية عرضه أعطى الأميركي الوزير العراقي غلافاً أسمر غير مختوم، من نوع «ماني» وبعنوان البيت الأبيض.

ـ كلفني الرئيس بوش بتسليمك كتاباً تنقله إلى الرئيس صدام حسين. تردد طارق عزيز لحظات قصيرة، ثم أدار وجهه نحو بارازان التكريتي مستشيراً إياه بالنظرات ثم أخذ الغلاف الموضوع على الطاولة. قرأ النص باهتمام وبوجه هادىء، بعدها طوى النسخة وأرفقها بالمغلف.

قال: «آسف؛ لا أستطيع أخذ مثل هذه الرسالة. إن لغتها لا تتلاءم واللغة التي يجب استعمالها في مراسلات رؤساء الدول. فعندما يكتب حاكم إلى حاكم آخر ويكون لديه حقيقة نية البحث عن السلام، يستعمل لغة مهذبة».

قد عبَّر عن هذه الملاحظات بلهجة حازمة، خالية من أية صفة عدائية، ودفع بكتاب جورج بوش إلى وسط الطاولة، على بعد متساوٍ بين البعثتين.

استطرد الوزير العراقي مذكراً بالاعتراضات العراقية. دام حديثه عشر دقائق وفيها قاله: «إن الاجتياح مبرر لأن الكويت في الحقيقة كان يهدد العراق». أضاف بعدها بقليل: «على أية حال، فأن المشكلة الحقيقية في المنطقة ليست في احتلال الكويت إنما في احتلال إسرائيل للضفة الغربية وغزة».

وثبت طارق عزيز براهينه بأمثلة تاريخية، فيها بان على أعضاء البعثة الأميركية نوع من نفاذ الصبر.

كان جيمس بيكر يدوّن الملاحظات أو يصغي هادئاً. وعندما أنهى العراقي كلامه أجاب: لا أظن أن العراق قد اجتاح الكويت واستعبد شعبه وسرق كل ما يمكن أن يسرق بهدف تحرير فلسطين. إنكم لم تفعلوا

ذلك إلا لهدف واحد وهو «توسعكم الخاص» ثم أصر على الكلمة الأخيرة قبل أن يذكر بسنة خلت من الجهود التي بذلها محاولاً الوصول إلى حوار إسرائيلي فلسطيني. «غير أننا لا نريد رابطاً بين مسألة الكويت والصراع العربي الإسرائيلي. إنكم تطلبون قمة سلام مقابل انسحابكم ونحن نعتبر أن ربط المشاكل لن يسهل عملية السلام ولا يُوجد تسوية للمسائل المعلقة في المنطقة وذلك سيعتبر فقط مكافأة للعدوان والمعتدين». في الساعة الواحدة، اتفق رئيسا البعثتين على رفع الجلسة للالتقاء ثانية بعد الظهر. دام اللقاء ساعتين. وفور توقف المناقشات قال طارق عزيز: «نحن مستعدون لكل شيء في سبيل التعاون على سلام عادل في المنطقة». وفي اللحظة التي استعدت فيها البعثتان للنهوض أشار بيكر بإصبعه إلى الظرف المتضمن كتاب جورج بوش إلى طارق عزيز الموجود في وسط الطاولة.

ـ هل أنت واثق من رفض استلامه؟

وجه له العراقي ابتسامة مختصرة:

ـ نعم إني متأكد من ذلك.

وبقيت الرسالة في وسط الطاولة التي كانت طوال مدة تعليق الجلسة في حراسة عنصرين من دائرة الاستخبارات الأميركية. توجه جيمس بيكر إلى جناحه فوراً، فاتصل هاتفياً بالبيت الأبيض ونقل إلى بوش رفض طارق عزيز استلام الرسالة وأضاف: «إن لهجة الوزير العراقي متعقلة جداً غير أني لم ألمس أي تغيير في الموقف».

مصيبتنا أنه لم يعد لدينا معلم

امتدت جلسة بعد الظهر لأربع ساعات ونصف. وهذه الفترة التي

لم يكن ينتظرها أحد أثارت عبر العالم موجة من التفاؤل، عكست ردة فعلها ارتفاعاً في الأسواق المالية غير أن الفرصة لم تكن مبررة. خلال تبادل المناقشات، رفض طارق عزيز وبارازان التكريتي الذي تكلم باختصار اعطاء توضيح حول انسحاب محتمل من الكويت وفقاً لقرارات الأمم المتحدة؛ قال عزيز بصوت متقزز: عندما تصل القرارات المتعلقة بإسرائيل إلى مجلس الأمن في الأمم المتحدة نجد الولايات المتحدة دائمة الاستعداد لغض النظر ولابداء صبر لا متناهٍ بانتظار أن يحترم الإسرائيليون أخيراً تلك القرارات. ولكن عندما يتعلق الأمر بالعرب فإنكم تلوحون بالعصا.

وفي وقت لاحق صرح العراقي منتقداً موقف الاتحاد السوفييتي: مصيبتنا أنه لم يعد عندنا معلم.

نظر إليه بيكر متعجباً.

ـ تابع طارق عزيز: نعم يا حضرة أمين سر الدولة، لقد قلت «معلم». فلو بقي السوفييت معلمينا، لما صوّت على قرار واحد ضدنا في مجلس الأمن، ولكانوا استعملوا في كل مرة حق النقض.

كان كلام عزيز مزيجاً غريباً من الصلابة والملاحظات الانتقادية أو المتقززة حول تحيُّز الغرب. وفي وقت ما عرض حلاً عربياً، قد يتمثل باتفاق الحكام العرب على ترتيب يقدم إلى الأمم المتحدة.

رفض بيكر هذه الفكرة وقال لعزيز:

ـ إن رفضك يبرهن أنك الأكثر تصلباً بيننا.

«تلك كانت لعبة منهكة ومرهقة ـ كما رأى أحد أعضاء البعثة

الأميركية ـ والتنازلات الوحيدة التي قدمت لم تحمل سوى نقاط تتعلق بالتفاصيل فقط».

وعد العراقيون بأن الدبلوماسيين الأميركيين الباقين في مراكزهم في بغداد سيسمح لهم بحرية مغادرة العراق. فكنا نجيبهم بإصرارنا على طلب تخفيض عدد موظفي السفارة العراقية في واشنطن. غير أن بلادهم بإمكانها الإبقاء على بعثة دبلوماسية. لم تتعد التسويات ذلك. وفي وقت ما حاول طارق عزيز أن يضفي على الجلسة جواً من الانفراج: «لي من العمر خمسة وستون عاماً، وأنت ستون كما أعتقد يا حضرة أمين سر الدولة، أتعرف أننا رجال حكماء؟ أجل، تبدو متعجباً. تعتبر الثقافة عندنا أن الرجل لا يصبح حكيماً إلا عندما يتخطى الأربعين».

بعد ذلك بقليل اندفع دونيس روس وهو المسؤول عن قضايا الشرق الأوسط في وزارة الخارجية في دراسة عن الحرب العربية الإسرائيلية سنة ١٩٦٧ وفقاً للمفهوم الأميركي.

قاطعه عزيز:

ـ قل لي يا سيد روس، كم لك من العمر كي تذكر أحداثاً قديمة كهذه؟ أجاب روس بهدوء: «عمري يفوق العمر الذي بدءاً منه حسب قولك يصبح فيه الانسان حكيماً».

وفيما بدا واضحاً أن المناقشات أخذت تراوح مكانها، ولم يعد ثمة مجال للوصول إلى اتفاق ما، انحنى جيمس بيكر نحو محاوره قائلاً:

ـ يا حضرة الوزير، لقد عبَّرت عما أريد قوله، وإني لا أرى مبرراً للاستمرار. إذا كان لديك شعور مختلف، قد يسعدني البقاء وإلا أقترح تأجيل الجلسة.

لم يفاجأ الوزير العراقي وأجاب بهدوء:

ـ كلا، إني أوافقك، ليس لدي ما أضيفه. وقف الرجلان وجهاً لوجه، وفي لحظة افتراقهما قال بيكر بلهجة مهيبة:

ـ هل تدرك بأن الحرب مع الولايات المتحدة ليست شبيهة بالتي قد شنيتموها ضد ايران؟

ارتسمت على وجه العراقي ابتسامة عريضة لدى سماعه هذه الكلمات، فأدار وجهه نحو بارازان التكريتي ومعاونيه وقد أخذه الضحك جزلاً كما لو سمع ملحة عذبة.

ـ ولكن يا حضرة أمين سر الدولة ينبغي أن تفهم أن حلفاءكم العرب سيتخلون عنكم، ولن يقبلوا بقتل عرب آخرين، ونتيجة لذلك سينهار حلفكم وتبقون وحدكم تائهين في الصحراء.

كان يتكلم بحماس: إنكم لا تعرفون ما هي الصحراء يا حضرة أمين سر الدولة إنك لم تمتط جملاً أبداً.

لا تقدم

وفي الوقت الذي أشرف فيه لقاء جنيف على نهايته، استقبل بوش في البيت الأبيض خمسة عشر برلمانياً. دخل جون سونونو فجأة إلى القاعة.

ـ سيدي الرئيس: أمين عام سر الدولة بانتظارك على الهاتف. اعتذر بوش، وتغيب ثمانية دقائق، عاد بعدها منقبض الوجه متلفظاً بكلمتين: «لا تقدم».

سأله أحد البرلمانيين: إذاً لِـم طال اللقاء إلى هذا الحد؟

أجاب الرئيس الأميركي باقتضاب: لقد ألقى العراقيون دروساً في

التاريخ. بعد قليل اتصل ميتران بجورج بوش. فقام رولان دوما بدور المترجم بينهما. ومما قاله لاحقاً وزير خارجية فرنسا: «لقد شعرنا في ذلك الحين أن الرئيس الأميركي كان قد قطع «الروبيكون». وقد أُصغي في البيت الأبيض باهتمام إلى المؤتمر الصحفي الذي عقده طارق عزيز في نهاية اللقاء والذي نقلته شبكة السي. أن. أن. وقد انتهز المسؤول العراقي الفرصة من خلاله ليطلق دعوة غير مباشرة للرأي العام الأميركي محاولاً اقناعه بأنه كان أكثر اعتدالاً في المحادثات من جيمس بيكر، وأعاد التأكيد خلال حديثه أن إرادة العراق هي تحرير فلسطين. ولدى سؤاله عن احتمال هجوم تقوم به بلاده ضد إسرائيل عند اندلاع الصراع أجاب: «نعم، قطعاً نعم».

وفي رأي الأخصائيين في البيت الأبيض ووزارة الخارجية كان التصلب في اللهجة يهدف إلى جر الرأي العام العربي على القبول بحرب أصبحت بغداد ترى حتمية وقوعها.

كان ذلك في الواقع رأياً خاطئاً كلياً. فالعراقيون خرجوا من هذا اللقاء بتفاؤل أكثر مما كانوا عليه يوماً. وعندما انتهت المناقشات، اتصل بارازان التكريتي ببغداد وتحدث مع أخيه من أبيه صدام حسين قائلاً: «الأميركيون لا يريدون الحرب، إنهم يبحثون فقط عن السبل للتخلص، إنهم ضعفاء».

صاحب الجلالة، هذا آخر اجتماع لنا قبل الحرب

في اليوم التالي، الخميس ١٠ كانون الثاني، غادر جيمس بيكر سويسرا بعد الظهر متوجهاً إلى الرياض. وانتقل فور وصوله إلى القصر الملكي حيث كان فهد بانتظاره.

وكان السعوديون قد تلقوا بذهول نبأ اللقاء في جنيف وهم الذين عارضوا منذ البداية كل اتصال دبلوماسي مع العراق. وكان بوش قد اتصل بفهد هاتفياً فور انتهائه من تقديم عرضه ليقول له: بوسع جلالتكم التأكد من أنه لن يكون هناك أقل تسوية. لكن هذه الكلمات الرئاسية لم تبدد خوف فهد وبطانته. وعندما انتهى بيكر من عرض تفاصيل مناقشاته مع طارق عزيز، انفرد به العاهل السعودي جانباً وبعيداً عن مجموعة المستشارين الذين حضروا المقابلة. وفي ليلة خيم فيها الجو اللطيف على العاصمة السعودية: كان فهد، ذلك الرجل ذو البنية الضخمة يتنزه متوئد الخطى بين ممرات الحدائق واصفاً لزائره الأشجار التي غرست هناك والاهتمام الدقيق في صيانة المروج عندما التفت فجأة نحو الأميركي:

ـ أحقاً ليس هناك أي اتفاق سري بينكم وبين العراقيين؟

فاجتهد بيكر طويلاً في طمأنته وأضاف: تأكد يا جلالة الملك بأن هذا اللقاء هو الأخير بيننا قبل اندلاع المعركة.

سأله العاهل: ما هو التاريخ المحدد للدخول في الحرب؟

لم يبحْ بيكر بالوقت المقرر مجيباً أنه لم يحدد نهائياً بعد: «سيكون ذلك بعد الخامس عشر من كانون الثاني بيومين أو ثلاثة».

في الحادي عشر وعقب خطاب ألقي أمام الطيارين الأميركيين ـ والذي يشكل في الواقع تحذيراً نهائياً لصدام حسين ـ جاء فيه: «إن تاريخ الخامس عشر من كانون الثاني هو حدٌّ جدي. إنه واقع حقيقي. «فمحاولة الغائه أو تمديده لن تجدي نفعاً».

ـ غادر جيمس بيكر العربية السعودية متوجهاً إلى الامارات العربية المتحدة.

وفي أبو ظبي وعد الشيخ زايد بالاستمرار في المساهمة المادية للمجهود الحربي الأميركي في الخليج. وكانت الامارات قد دفعت أكثر من ملياري دولار ما بين الثاني من شهر آب والواحد والثلاثين من كانون الأول. ثم انتقل بيكر إلى الطائف وهي مدينة جبلية داخل المملكة السعودية حيث يوجد فيها أمير الكويت منعزلاً وفي حالة ا[illegible].

وخلال الأربعة الأشهر الأخيرة كانت مساهمة الكويتيين المادية قد بلغت خمسة مليارات دولار مع وعد من الأمير جابر بزيادة مهمة لعام ١٩٩١.

قال بيكر لسمو الأمير الغارق في مقعده: «إنها المرة الخامسة التي نلتقي فيها يا سمو الأمير. . . ارتسمت على وجه زعيم آل الصباح ابتسامة عابرة ـ استطرد الأميركي: وآمل في المرة المقبلة أن أراك في مدينة الكويت».

ضعف غورباتشوف المتزايد:

في ١١ كانون الثاني اتصل غورباتشوف مطولاً بجورج بوش، كانت الساعة الخامسة عشر في موسكو، الثامنة صباحاً في واشنطن. وقد فوجىء الأميركيون بالوقت الذي اختاره الرئيس السوفييتي وبمحاولته. فالكونغرس يتهيأ للتصويت على قرار يعطي الرئيس سلطة كاملة باستعمال القوة. تلقى بوش المكالمة في مكتبه البيضاوي، وكان المترجم الكائن في Situation Room حيث رمزت المخابرة، يجتهد ليلحق بسرعة كلام الزعيم السوفييتي. اقترح غورباتشوف على الرئيس الأميركي عرضاً

جديداً للسلام وقال له: «أترغب في استقبال سفيرنا في واشنطن، لقد نقلت له هذه الأفكار وسيعرضها لك بالتفصيل». اتصل البيت بالسفارة السوفييتية وبعد ساعة ونصف التقى الكسندر بستمرنيخ بجورج بوش. بدا السفير رجلاً باهت المنظر. وقد جعلت النظارات السميكة وجهه أكثر صلابة، وظهر مرتبكاً لعلمه المسبق بمدى ركاكة الأفكار المكلف بتقديمها.

كان الاتحاد السوفييتي يقترح توفير مخرج أخير لصدام حسين يحفظ له ماء الوجه كي لا يبدو مستسلماً تحت وطأة ضغوطات الولايات المتحدة والأمم المتحدة. هذا كل ما في الأمر.

أجاب جورج بوش: شكراً يا سعادة السفير على تفكيركم بطريقة طريفة تجعل العراق يرحل دون حرب.

لم يكن في لهجته اي أثر للسخرية ومع ذلك وجد الكثيرون من معاونيه أن المحاولة السوفييتية محيرة ودون هدف، وقد ازداد ارتباكهم أيضاً حين سمعوا السفير يقول لبوش:

- سيدي الرئيس يجب أن أغادر لأستشير موسكو. وفي حال توفرت لي عناصر أخرى، هل يمكنني أن ألقاك مجدداً؟

أجاب بوش: أنا على استعداد تام للقاء آخر.

كان سكوكروفت وغايتس ومعاونوهما في مجلس الأمن الوطني قد التقوا حول التحليل نفسه: «لم يكن لدى غورباتشوف ما يعرضه، لقد اختار أن يتدخل اليوم فقط وقبل التصويت في الكونغرس ليعلم محيطه وأعداءه أيضاً وقادة الدول العربية أنه لن يتخلى عن العراق ولا عن أمل في حل متفاوض عليه. شغل ضعف غورباتشوف المتزايد المسؤولين

الأميركيين إلى أقصى حد، وكما قال أحدهم: «كنا نراقب السياسة السوفييتية عن كثب».

أما المنعطف الكبير، فكان يمر في تدخل ادوارد شيفارنادزه الدراماتيكي في ٢٢ كانون الثاني من على منبر مؤتمر النواب السوفييت.

فبعد أن دان مخاطر الدكتاتورية، أعلن وزير خارجية الاتحاد السوفييتي استقالته، مما أثار سخط غورباتشوف وأذهل الأميركيين.

لقد أظهر حقاً مسؤول جمهورية جورجيا الأسبق منذ ترأسه الدبلوماسية السوفييتية سنة ١٩٨٥ أنه محاور لبق ومتفهم بالنسبة إلى الولايات المتحدة. كان الرجل منفتحاً وودوداً، وقد اقام معه جيمس بيكر علاقات صداقة حقيقية واستقبله مراراً في داره الكائنة في Wyo-ming. ورأت واشنطن أن تخليه من شأنه أن يترك فراغاً هائلاً. وفي انتظار تعيين خلفه حاول الاختصاصيون في البيت الأبيض وفي وزارة الخارجية كشف المتغيرات التي طرأت منذ استقالته، فاتفق الجميع على أن ميخائيل غورباتشوف يبقى محرك سياسة بلده الخارجية الرئيسي إلا في حقل واحد حيث التبديل واضح، وهو حقل المفاوضات حول السيطرة على التسلح.

إن التصلب السوفييتي فيما يتعلق بهذه المسائل يشير إلى عودة تأثير العسكريين بقوة.

وسبق أن ظهرت الخلافات بين موسكو وواشنطن بعد التوقيع على معاهدة حول الأسلحة المتفق عليها في أوروبا. فزعم الأميركيون أن السوفييت نقلوا بعض الأسلحة إلى خارج المنطقة التي تغطيها المعاهدة وأعادوا تركيز أنواع أخرى من الأسلحة البحرية، وذلك لتجنب دخولها

في كشف الحساب. ويعتبر رجل كسكوكروفت: «إن التطور الداخلي في سياسة الاتحاد السوفييتي المتزايدة في الاهتزاز والتقلّب قد يلحق في النهاية الضرر بالعلاقات بين الدولتين العظميين». فالتشنجات التي اكتشفت حول مسألة حد الأسلحة كانت إشارة بليغة ودراماتيكية.

«إن المأزق الذي وضعنا فيه غورباتشوف ـ كما يقول أحد معاوني بوش ـ كان سهلا للغاية: إلى أي مدى كنا مستعدين أن نساعده؟ هل هناك معطيات غير واضحة؟ هل كان مهدداً؟ هل انتقص من سلطته»؟ في الواقع كانت الإدارة الأميركية بطريقة حذرة ومتزنة قد بدأت بتنويع اتصالاتها، ولو أن اللقاءات المنفردة مع زعيم الكرملين بقيت المحور الأساسي في العلاقات السوفييتية الأميركية. فالتقى جورج بوش وجيمس بيكر بحكام الجمهوريات البلطيقية. واستقبل برانت سكوكروفت ولورنس إيغلبرغر رسميين من ارمينيا وأوكرانيا وكازاخستان وبيلوروسيا «لتلافي اشتعال الضغوطات داخل الإتحاد السوفييتي». ويبقى السؤال الكبير المطروح: ما هو الموقف الواجب اتخاذه تجاه بوريس يليتسين، زعيم روسيا ومنافس غورباتشوف القوي.

ضم المترددين

عاد السفير السوفييتي الكسندر بستمرنيخ إلى البيت الأبيض عند الغروب. كانت هذه الزيارة المكررة تغذي كل الآراء المتضاربة. خطأ. لم يكن لدى الدبلوماسي شيء جديد يعرضه، لقد أكد فقط أن: «الرئيس غورباتشوف قد ألزم نفسه بجهود حثيثه لإيجاد الوسيلة الناجعة لحفظ السلام».

شكره بوش بجفاء وانصرف. ورغم احتفاظه ظاهرياً بهدوئه، كان التدخل السوفييتي غير المجدي يغيظه ويزيد من تشنجه كلما اقترب

موعد التصويت في الكونغرس. فالتقصيات التي أجريت في مجلس الشيوخ كشفت أن أكثريته الضئيلة بلغت حداً من الشك، فيما أخذت التكهنات تتراوح مناصفة ٥٠ ـ ٥٠.

كان سام نون سناتور جورجيا وزميله ديفد بورن من أوكلاهوما وكلاهما من الديموقراطيين، يعملان مجتهدين فعلاً على ضم المترددين. وأخذ ممثلو إدارة بوش يبذلون قصارى جهدهم بين أروقة الكابيتول محاولين جذب البرلمانيين ومرددين: «إن تصويتاً سلبياً قد يدل على انقسام بيننا ويشكل رسالة مضرّة تنقل الى صدام».

وفي اليوم نفسه، قرر بوش ارسال الوزير المساعد في الخارجية لورنس إيغلبرغر على رأس بعثة مؤلفة من أخصائيي البنتاغون إلى إسرائيل. وإيغلبرغر هو خبير دبلوماسي، كان قد عمل إلى جانب كيسنجر. اقتصرت مهمته على طمأنة القادة الإسرائيليين بأن يوضح لهم التدابير التي قد تتخذها الولايات المتحدة الأميركية في حال اندلاع الحرب، ويذكر اسحق شامير بالوعد الذي قطعه بعدم قيامه بأي هجوم وقائي. على أية حال، كان بوش قد تكلم ظهراً مع رئيس الوزراء الإسرائيلي ليعلمه بارسال البعثة الأميركية دون أن يذكر له المعلومات التي حصل عليها من البنتاغون والتي تشير إلى أن طائرات أل ف ١٦ وُضعت في حالة تأهب قصوى بشكل يومي وعلى مدار الساعة وأوقفت على مدرج في قاعدة «رامت داوود»، شمال البلاد، مستعدة للإقلاع.

وبدا من المؤكد أن الحياد الإسرائيلي أمر ضروري لا سيما وأن البيت الأبيض قد بذل جهوداً قصوى في سبيل الحصول على معاونة عسكرية من بعض الحلفاء العرب. كما طلب بوش من بيكر التوقف في دمشق في اليوم التالي (السبت في ١٢ كانون الثاني). والواقع أن حافظ الأسد ورغم

وعوده القريبة العهد، لم يكن بعد قد أعطى موافقته النهائية بالنسبة إلى التزامه الفعلي في حال نشوب الحرب.

وبدت مماطلة السوريين هذه «عنصراً مقلقاً قابلاً لإحداث الصدع في الإئتلاف في اللحظة الأخيرة».

مأساة الجمهوريات البلطيقية

صوّت الكونغرس نهار السبت في ١٢ كانون الثاني على القرار الذي يجيز للرئيس استخدام قوات الولايات المتحدة المسلحة لتطبيق قرارات مجلس الأمن. «وصوّت مجلس الشيوخ، الذي تردد حتى اللحظة الأخيرة على هذا القرار بإثنين وخمسين صوتاً مقابل سبعة وأربعين».

أحدثت بربارة بوش المفاجئة يوم الأحد في الثالث عشر، حين أُنزلت من الطوافة العائدة بها من كامب ديفيد. فقد أُجلست على كرسي متنقل بسبب كسر في ساقها، سبَّبه انحدارها بسرعة في مزلج على ربوة مغطاة بالجليد، مما أدى إلى اصطدامها بشجرة. فأسعفها الممثل أرنولد شوارزينينجير وهو صديق مقرب لآل بوش يقضي غالباً عطلته الأسبوعية في كامب ديفد، وهو الذي ركز جهازاً لتقوية العضلات مختصاً بالرئيس وموافقاً له.

كان جورج بوش يتنزه مرتاحاً إلى جانب زوجته التي يدفعها شرطي من الدائرة السرية عندما بادره أحد الصحفيين بالقول: ما هي نتيجة الحادث؟ أجاب بوش: ـ لم تصب الشجرة بأي أذى.

في الواقع، إن المزاح والارتياح الباديين عليه كانا مجرد خدعة. فبوش حقيقة كان في غاية التوتر منذ إبلاغه أن قوة مسلحة تابعة للجيش الشعبي السوفييتي استعملت القوة في فيلنيوس داخل الجمهورية

البلطيقية الليتوانية حاصدة بذلك ثلاثة عشر قتيلاً على الأقل، وعندما اتصل به غورباتشوف هاتفياً يوم الجمعة في الحادي عشر ليطلعه على مبادرته للسلام ذكر الأزمة البلطيقية.

دامت محادثاتهما خمساً وعشرين دقيقة قال فيها زعيم الكرملين: «أحاول تسوية هذه المسألة سلمياً».

بالنسبة إلى الرسميين الأمركيين، كانت المحاولة واضحة: «فغورباتشوف إما أنه يكذب أو يفقد السيطرة على بلاده» وقد عبَّر عن هذه الملاحظة أحد المشاركين في اجتماع دعا إليه جورج بوش مساءً وحضره نائبه دان كويل وأمين سر عام البيت الأبيض جون سونونو وأمين سر الدفاع ريتشارد تشيني، ورئيس مجلس الأمن القومي برانت سكوكروفت مع مساعده روبرت غايتس.

تشيني وكويل كانا دائماً الأكثر تشكيكاً بمقدرة وإرادة غورباتشوف في التغيير، وقد قال أمين عام الدفاع في وقت ما: «إذا استخدم غورباتشوف العنف لابقاء السيطرة على جمهوريات البلد وأطلق العنان لدباباته، فذلك سيشكل إشارة خطيرة ورهيبة موجهة إلينا، وخاصة بالنسبة لما يتعلق بإمكانية الإصلاحات المستقبلية وتطبيق الديموقراطية في الاتحاد السوفييتي.

أما جون سونونو فقد أصرَّ على النقطة التالية قائلاً: «إن مأساة كهذه تمنع من الآن وصاعداً الاتحاد السوفييتي من استمرارية الاستفادة من المساندة الأوروبية الغربية والأميركية.

وبقي بوش أكثر تحفظاً: «انتظر كي أتكلم مع غورباتشوف».

كان روبرت غايتس كما سكركروفت يعتبر أن اختيار الوقت لهذا التدخل الدامي لم يكن وليد الصدفة. فغورباتشوف وحاشيته قد راهنوا على أن اندلاعاً مفاجئاً للحرب مع العراق قد يزيل سريعاً ذكر المأساة البلطيقية. وكانت أكثرية الرجال المحيطة بالرئيس الأميركي ترى وجوب القيام بردة فعل. أما هو فكان أكثر حذراً، ويميل كما اقترح عليه إلى إلغاء قمته مع غورباتشوف التي كانت ستعقد في موسكو في ١١ إلى ١٣ شباط. وأظهر تحفظاً تجاه أية فكرة قائلة بإلغاء المساعدة التقنية وارسال الأغذية إلى الاتحاد السوفييتي.

شغلت الأزمة البلطيقية أكثر من نصف الاجتماع المنعقد في البيت الأبيض، أما الوقت المتبقي فقد كرّس للتحضيرات الأخيرة في الخليج.

أكد تشيني الساعة المحددة لبدء الهجوم: في ١٧ كانون الثاني الساعة الثالثة صباحاً بتوقيت بغداد، تاركين لصدام حسين ولفريقه يوماً ونيف بعد انتهاء مهلة الانذار.

كان بيكر قد استلم وهو في طائرته التي تقوده إلى أنقرة اتصالاً من بوش يتضمن تعليمات بالقاء خطاب حازم فيه تنبيه موجه إلى موسكو وأضاف: «جيم، أنا أعتقد أن غورباتوشف قد سدد ضربة لنفسه قبل كل شيء». بالنسبة إلى الرئيس فقد تُفهم الرسالة بوضوح أكثر في الكرملين إذا ما عبّر عنها بيكر الذي كان دائماً في طليعة الحوار السوفييتي الأميركي.

عندما وصل أمين عام الدولة إلى تركيا صرّح بما يلي: «إن التعاون والحوار السوفييتي الأميركي سيصبحان مستحيلين إذا لم يعد هناك احترام للقيم المشتركة».

شامير يحدد وعوده

كثَّف لورنس إيغلبرغر في تل أبيب لقاءاته مع الرسميين الإسرائيليين. وقد رافقه أخصائيون عسكريون ومسؤولون في المخابرات. دارت المناقشات حول الأهداف العراقية المختارة، وُطرق الهجوم وطبيعة الغارات الجوية ضد المطارات ومناطق تمركز الصواريخ. وقد قررت الولايات المتحدة الكشف عن جزء من تحضيراتها العسكرية بغية طمأنة وتهدئة المخاوف الإسرائيلية المتزايدة. وثمة أمر فاجأ الأميركيين، فالأقمار الصناعية حددت مناطق عديدة لصواريخ السكود الثابتة والمتحركة المنتشرة شمال غرب الصحراء العراقية.

غير أن عسكريي «تساحال» أي الجيش الإسرائيلي بدوا غير مكترثين لهذا الخطر، وقد قالوا مراراً عديدة: «إنه احتمال ضئيل». كانت هذه العبارة كثيراً ما تردد، إذا اعتبروا هذه الأسلحة عديمة الإتقان، وأن مسافة ستماية ميل تفصل بين الحدود العراقية والدولة العبرية تشكل حماية إضافية. كما اعتبر مسؤولو الجيش الإسرائيلي أن الخطر الأساسي قد يكمن في قاذفات الصواريخ السوفييتية الصنع «سوخوي ٢٤» والتي يملكها العراقيون بكثرة. فهذا النوع من الطائرات باستطاعته أن ينقل حمولات مهمة من القنابل، ويطير على علو منخفض ليفلت من التقاط الرادارات.

وجدد شامير وعوده إلى الدبلوماسي الأميركي بعدم شن أي هجوم وقائي: «عملياً، نحن كالعميان، لا نعرف شيئاً عن الأخطار التي تهددنا» كان يتكلم وهو محاط، بموشي أرينز وزير الدفاع وبعض المسؤولين في الاستخبارات العسكرية الذين أصروا جميعاً للحصول على منفذ وصول المعلومات التي تلتقطها أقمار الولايات المتحدة المتجسسة.

وعندما أكد الأميركيون أن ليس باستطاعتهم التقيد بأي التزام من هذا النوع قبل العودة إلى الرئيس، برزت على وجوه الرسميين العبريين علامات خيبة الأمل.

المساعي الأخيرة

نهار الاثنين في ١٤، تلقى بوش مكالمة هاتفية مطولة من أمين سر عام الأمم المتحدة بيريز دوكويار الذي اتصل به من مكتبه في نيويورك بعد عودته من بغداد، حيث حاول فيها القيام بوساطة أخيرة.

كان صوته على شيء من الحدة والغيظ وهو يصف الإذلال الذي تعرض له في العاصمة العراقية على يد صدام حسين، فقد فرض عليه البقاء في غرفة الانتظار لساعات طويلة قبل أن يتنازل الزعيم العراقي ويستقبله.

وكما قال أمين سر عام الأمم المتحدة، كل هذا الكيد كان قد انتهى مونولوجاً طويلاً أجراه الرئيس العراقي المتمادي في صلابته ولا مبالاته إزاء الطغوطات الخارجية. «أتعلم، قال بيريز دوكويار بلهجة بريئة، لقد أساء فعلاً معاملتي». وفور انتهائه من مكالمة كان يجريها بعد الظهر مع بيكر العائد لتوه من أوتاوا إلى واشنطن، اتصل به هاتفياً وزير خارجية لوكسمبورغ «جاك بوس» وهو رجل أهيف، ذو شعر أبيض، ورئيس مالي للأسرة الأوروبية، بدا خلال المكالمة وكأن ضخامة التحديات قد أرهقته.

وأعلن أن الأسرة الأوروبية تراجعت بدورها عن مبادراتها المتعلقة بالسلام. شرح بوس أن الرئيس العراقي لم يبد اهتماماً حتى على سبيل غسل ماء الوجه، وذلك بالتزامه الاتفاق الذي عرضته عليه الدول

الاثنتي عشر، ويتمثل بالانسحاب من الكويت والدعوة لعقد مؤتمر دولي للسلام حول الشرق الأوسط. أبدى بوس قلقاً وحيرة عميقين من التطورات المأساوية للوضع.

وفي رأي الإدارة الأميركية، فإن جميع العقبات الدبلوماسية قد زالت باستثناء واحدة ما انفكت تشكلها فرنسا التي أخذت تجهد نفسها لعقد اتفاق في الدقيقة الأخيرة، مبنيٌّ على وعد بالدعوة لمؤتمر دولي مقابل الانسحاب من الكويت. وقد اتصل جورج بوش هاتفياً بميتران ليعلمه عدم رغبته باتفاق كهذا لأنه مسعى غير مناسب.

وفيما بقيت اللهجة لطيفه بين الرجلين، أبدى بوش حزماً أذهل به الرئيس الفرنسي.

الفصل العاشر

يوم، هو في الظاهر كغيره من الأيام

في الخامس عشر من كانون الثاني، استيقظ جورج بوش في الساعة الخامسة والنصف صباحاً. فاتصل هاتفياً عند الساعة السادسة والنصف من جناحه الخاص بجيمس بيكر، الرجل الوحيد الذي كان يكشف له عن أسراره في الأوقات الدقيقة. في السابعة راح يتنزه وحيداً في المرج الأخضر الجنوبي المنحدر قليلاً وراء البيت الأبيض. كان مارلن فيتزووتر المتحدث باسمه ينتظره على بعد يحفظ له الاحترام، وحين وصل إليه بوش قال له: «نزهة جيدة يا سيدي الرئيس». أجاب بوش واضعاً يده على كتف فيتزووتر: «كنت أفكر بهذا اليوم». أراد بوش أن تستمر الرئاسة بنشاط عادي، غير أن ذلك كان وهماً تتزايد صعوبة الابقاء عليه. وطلب من معاونيه الغاء أو تأجيل كل التزاماتهم ليكونوا على مدار الساعة في استعداد تام.

هذا وقد ألغى رحلات عدة داخل البلاد وصار يلتقي بريتشارد تشيني مرتين في اليوم على الأقل، وبقي على اتصال دائم ببرانت سكوكروفت وروبرت غايتس. كانت التدابير الأمنية قد عززت حول ١٦٠٠ جادة بنسلفانيا. فأقيمت العوائق وزيد عدد القوات المسلحة المكلفة بحماية الرئيس وحاشيته. لكن ثمة متظاهرون من محبي السلام قضوا الليلة كلها في «الأفايات بارك» وهو الحي المقابل للبيت الأبيض، فبدا أن تلك التحركات قد تفاقمت في البلاد. ومن إحدى الشعارات التي نادوا بها ورفعوها: «كم ضحية لكل ليتر بترول يا سيدي الرئيس».

أخطار الانحسار الاقتصادي

في ذلك الصباح، ومن باب الصدفة الغريبة، كان الاقتصاد هو

الموضوع الأول الذي تناوله بوش. فاستدعى في الساعة الثانية والنصف جميع مستشاريه إلى «الكابينيت روم». جلس حول الطاولة كلاً من نيقولا برادي وزير المالية، وآلن غرينس بان حاكم البنك المركزي الأميركي «فيدرال ريزيرف»، وميخائيل بوسكن المستشار الاقتصادي في البيت الأبيض، وجون سونونو وروجيه بورتر مساعد الرئيس المكلف بمسائل السياسة الداخلية.

بادرهم بوش بالسؤال: «أيها السادة كيف ستكون مضاعفات الحرب على اقتصادنا».

شارك في الرأي الاقتصاديون برادي صاحب البنك القديم في وول ستريت وغرينس بان وبوسكن وأجمعوا على ما يلي: قد تستطيع حرب قصيرة تُتوَّج بالنجاح أن تتيح عودة الازدهار الاقتصادي إلى بلادنا، السائر نحو الانحسار. وعكس ذلك، اعتبر الجميع أن الصراع، إذا طال، فقد يشكل «خطراً» على البلاد. كان برادي من استعمل هذه العبارة: «وسيقول أحد المشاركين فيها بعد أن بوش أدرك حدود ونقاط ضعف الاقتصاد الأميركي لكنه حاول البحث من خلال مناقشاته معنا عما إذا كان باستطاعته أن يدفع بهذه الحدود إلى الوراء ويخفف من نقاط الضعف».

وعلى الرغم من ترديد آلن غرينبان من «أن حرباً في الخليج تشكل في جميع الأحوال مجازفة خطيرة بالنسبة إلى البلد ليس فقط على الصعيد الاقتصادي بل السياسي والعسكري» فقد برزت من تلك المحادثات تأكيدات عدة. ووسع حاكم «فيدرال ريزيرف» عدة سيناريوهات، كان الأكثر واقعية منها يظهر حقيقة مقلقة ألا وهي: «أن حرباً طويلة نسبياً قد تؤدي إلى ارتفاع كبير في سعر البرميل يضطر على أثرها «الفيدرالي

ريزيرف» إلى وقف سياسة تخفيض نسبة الفوائد. أما الانحسار الناتج عن هذه الحرب فيخشى أن يؤدي إلى افلاس مئات المصارف الأميركية التي سبق وأجهدتها أزمة النظام المالي. أضاف أحد المستشارين الاقتصاديين بشيء من التهكم: «إن الحروب السابقة قد انتهت بزيادة التضخم المالي. وسنكون اليوم أقل عرضة لمثل هذا التضخم قياساً مع دخولنا في مرحلة الانحسار. كما أن تعبئة الاحتياطيين المحتملة يا سيدي الرئيس قد تكون أقل تأثيراً على وضع سوق العمل الذي هو الآن في حالة انهيار».

بين السيناريوهات المصممة ـ كان غرين سبان يملك أهلية كبيرة في التخطيطات المستقبلية ـ أبعد واحد كلياً: ويتمثل بأن أحداً لم يكن يتصور إمكانية إعطاء هذه الحرب زخماً دائماً للصناعة، وقد صح ذلك أثناء حرب فيتنام والحربين العالميتين، وحتى في حروب الانفصال.

لكن الإطار العام الحالي يختلف كلياً عما فسّره ميخائيل بوسكن. فخلال الفترات السابقة حصلت تعبئة هائلة؛ فقد تحولت سلسلة المصانع المدنية بشكل سريع لإنتاج أسلحة جديدة.

أما اليوم فأميركا موجودة على رأس ترسانة عملاقة لا مثيل لها في الماضي. وإن قوة عسكرية كهذه هي نتيجة جهد هائل لإعادة التسلح الذي بوشر به خلال حكم ريغن. وكما يقول أحد الأخصائيين: «حتى لو خسرنا في هذه الحرب ألف دبابة M I ـ وهذا غير معقول ـ فذلك لا يوجب إعادة انتاج هذا الطراز، فالجيش يملك أكثر من سبعة آلاف منها مما يجعله قادراً على مجابهة كل الأزمات التي قد تنشأ».

بعد هذا الاجتماع، استقبل جورج بوش سفير الولايات المتحدة في

نيوزيلاندا، ثم اجتاز الأروقة ليصل إلى قاعة الأعياد حيث أقيمت فيها حفلة صغيرة بمناسبة إحالة عدد من معاوني البيت الأبيض ذوي المستوى المتواضع كأمناء السر وموظفي الهاتف إلى التقاعد.

اختلط بوش بمختلف المجموعات، وقبل بلطف جلسات التصوير وكتابة كلمات الإهداء. فبدا حار المشاعر، بمنتهى البساطة والارتياح وكأن لديه متسعاً من الوقت.

ساعة الحقيقة تقترب

كانت الساعة العاشرة والنصف، عندما توارى أخيراً ليذهب إلى المكتب ذي الشكل البيضاوي حيث كان في انتظاره أعضاء ديوان حربه. دام الاجتماع ساعتين. وحضره جيمس بيكر، ريتشارد تشيني، برانت سكوكروفت، جون سنونو، روبرت غايتس، كولن باول ونائب الرئيس دان كويل. كانت ساعة الحقيقة تقترب بالنسبة لهؤلاء الرجال. أشرف الجميع على الوضع العسكري والدبلوماسي بمجمله. وفي لحظة ما، أخذ بوش ملفاً وترك مكتبه ليجلس على مقعد إلى جانب الموقد حيث فرقعة النيران. أعاد قراءة الوثيقة التي كانت بين يديه باهتمام، ثم وقعها بسرعة وسلمها لتشيني. وقد عبّر هذا النص المعروف باسم «تعليمات الأمن القومي» عن دخول الولايات المتحدة في حرب ضد العراق. أعاد بوش غطاء قلمه، وأشار إلى أمين سر الدفاع بوجوب اتخاذ التدابير لتنفيذ الأمر الذي لم يعد قابلاً للنقض إلا بقرار نهائي منه.

وكانت بداية القصف الجوي على بغداد قد تقررت في السابع عشر من شهر كانون الثاني، الساعة الثالثة صباحاً بتوقيت الخليج؛ السادس عشر منه السابعة مساءً بتوقيت واشنطن. وبعيداً عن هؤلاء الرجال، فإن

بقية دول العالم بما فيها الحلفاء الموثوق بهم استمروا في جهل أن الوثيقة التي وقعها الرئيس الأميركي هذا الصباح لم تكن تشمل الهجوم فحسب بل الهجوم البري الذي كان من المتوجب تنفيذه «بعد أربعة أسابيع من القصف». وفي الخامس عشر من شهر كانون الثاني، الساعة الثانية عشرة والنصف خُتم على مصير العراق العسكري.

عمل بوش قسماً من بعد الظهر في «الستادي روم» وهي غرفة الدراسة المتاخمة للمكتب ذي الشكل البيضاوي.

كانت تلك الغرفة مشرقة، ومزينة بأوان خزفية صينية مُلئت بأشتال خضراء فارعة الطول ووضعت قرب النوافذ. وشغلت أحد الجدران خزانة داكنة اللون تعلوها ساعة ضخمة أحاط بها شمعدانان. كما ركزّت في وسط القاعة طاولة مستديرة.

كان جورج بوش ـ وقد لبس قميصاً ـ ينقح مضمون الخطاب الذي سيلقيه مساء الغد معلناً دخول الولايات المتحدة الحرب. وكان قد بدأ في صياغته منذ شهر كانون الاول، وعدّل فيه أربع مرات.

وفي ذلك الوقت، اخذ كلبه المتمدد ـ واسمه رينجر من جنس كوكر أبيض واسود ـ على كنبة تبعد بضعة امتار منه. ينظر اليه غير مكترث.

وعند العصر، استعد لتسجيل سلسلة من الرسائل المتلفزة والتي ستوجه لعائلات الجنود المتمركزين في الخليج. اما الوقت الذي اختير لبثها فكان بمنتهى الحذاقة: وهو وقت الاستراحة اثناء المباريات النهائية في «السوبر بول» التي ستجري في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني.

وتوقع مستشارو الاتصالات في البيت الأبيض تحقيق رقم قياسي

لدى المستمعين اثناء النقل المتلفز لهذا الحدث.

وكان بوش قد أُعلم في أول فترات بعد الظهر بتعيين وزير الخارجية السوفييتي الجديد. وعلى ضوء ذلك سيخلف ادوارد شيفاردنادزه السفير الحالي في واشنطن، الكسندر بسمرتنيخ الذي كان قد استقبله خلال ثلاثة ايام مضت.

غير أن غورباتشوف. لم يكن ليسمح بإعلان شيء من هذا القبيل خلال محادثاته الهاتفية الأخيرة. وكان بسمرتنيخ ومعنى اسمه «الرجل الذي لا يموت ابداً» قد اختبر مهنته في وزارة الخارجية كاختصاصي في الولايات المتحدة.

وأجمعت الآراء التقييمية التي قام بها رسميون سبق وأن عاشروه على أنه «محترف جيد تنقصه قوة الجاذبية». وكان هاوي الفن والموسيقى الكلاسيكية هذا، قد بدا منذ وصوله إلى واشنطن كسفير في أيار ١٩٩٠ بمظهر الرجل الصلب.

ورغم أزمة الخليج والاحداث الطارئة على الجمهوريات البلطيقية، فإن ترقيته تؤكد رغبة الزعيم السوفييتي بالإبقاء على العلاقات الوثيقة مع الولايات المتحدة.

في الساعة السادسة والدقيقة السابعة والعشرين، عاد جورج بوش الى جناحه الخاص، وبعد ان تابع الصحف المتلفزة، تناول العشاء منفرداً مع زوجته بربارة.

لم يعلم أحد ما إذا كان قد تأمل هذا المساء اللوحة التي يحبها كثيراً والتي علقت في المكتب الصغير الواقع قرب غرفة نومه. وهي لوحة يبدو

فيها لينكولن متحدثاً مع قادته خلال حروب الانفصال. وقد علّق بوش محدثاً نفسه وهو يريها لبعض المقربين اليه: «لقد وُضع لينكولن في امتحان النار وهناك كشف عن عظمته». في الحادية عشرة والنصف، ذهب الرئيس للنوم وفقاً لسرّ افشت به دائرة الصحافة في البيت الأبيض.

وكان على بعد عشرات الأمتار خمسماية معارضٍ للحرب يسهرون وهم يطلقون الأغاني والشموع في ايديهم.

أما بقية الناس الذين عاشوا ذلك اليوم في انتظار اندلاع الحرب فبدوا وكأنهم في ريب من المواجهة الوشيكة رغم استعدادهم لها.

مراقبون فضوليون جداً

أما في الخليج، فالرجال الذين يعلمون كانوا قلة، غير أن الفكرة التي كوّنوها عن العدو على أثر المعلومات التي توفرت لهم دفعتهم إلى مواجهة هذه الحرب بأعصاب هادئة.

ومنذ اسابيع، أتمّت قوات التحالف، لا سيما الفرنسيين والانكليز والأميركيين تسلل بعض الكوماندوس إلى داخل العراق والكويت. وينتمي هؤلاء الرجال ومعظمهم من أصل عربي من الناحية الأميركية إلى Fask force Griysly وال Task force taro وكلاهما مرتبطان بفرقة البحارة الأولى. فجالوا في أراضي العدو وراقبوا بانتباه تفاصيل التشكل العسكري القتالي المناوىء. ثم عادوا ليجمعوا في شهادات مماثلة على أن التقديرات الأولى التي قدمتها دوائر الاستخبارات تجاوزت في حساباتها قدرة قوات صدام حسين. كما تبين أن حقول الألغام والخنادق وسواها من العوائق القائمة على طول الحدود الكويتية أقل بكثير مما كان

متصوراً. غير أن الفرق المحصنة تحت الأرض والتي بنتها القوات المتمركزة في الخطوط الأمامية كانت متقنة الإنجاز ومزوّدة بكميات كبيرة من الذخائر. وقد صنع قسم منها في الأردن.

وفي المقابل كانت الجيوش المتمركزة في الشمال وقرب مدينة الكويت تعيش في معسكرات بدائية سيئة الصيانة. ومما لفت انتباه هؤلاء المراقبين المتخفين كان «هزالة» وقلة عدد الجنود المسلحة. حتى أن العقيد «بيل ستيد» رئيس التخطيط في العمليات البحرية، اعتقد «أن بعض الوحدات كانت تملك أقل من ٥٠٪ من عديدها العضوي». ولكن ثمة تفسير لهذه المعاينات المميزة. فخلال الأسابيع السابقة للخامس عشر من كانون الثاني كان قادة الفرق العراقية قد منحوا رجالهم مأذونيات كثيرة للتمكن من زيارة عائلاتهم. فإذا بأكثر من ثلاثين بالمئة منهم لم يلتحقوا بوحداتهم أبداً. كما كشفت المعاينات التي أجريت أن القوات العراقية جهزت بكمامات وألبسة توفّر لها الحماية في حال اندلاع الحرب الكيميائية، غير أن احداً من الأفراد التابعين للكوموندوس المتسلل لم يكن باستطاعته أن يؤكد وجود أسلحة كيميائية وجرثومية على الأرض. كل هذا كان يضاف إلى قوات بغداد التي سبق وأن غادرت الكويت وجنوبي العراق متجهة نحو شمالي البلاد.

تجدر الاشارة هنا إلى أن الجيوش التي كان صدام حسين قد سحبها من ساحة القتال تميزت بفتوّتها وتمرسها في الحرب. إذ تألفت بخاصة من القوات المسلحة التابعة للحرس الجمهوري الشهير.

المناورات الأخيرة

في الخامس عشر من كانون الثاني، وعشية شن الهجوم، كان

شوارزكوف ومعاونوه المقربون إليه يدركون أن الرؤية التي كوَّنت عن الكويت ـ وقد تحوَّل إلى معسكر محصن يستحيل تقريباً الإستيلاء عليه حيث يتمركز أكثر من خمساية الف جندي صمموا على القتال ـ لم تعد إلا وهماً يستحسن ألا يشاع. فمجموع المقاتلين العراقيين وصل بالكاد الى مئتي وخمسين ألف جندي. وقد أكدت ذلك كل التقارير الواردة.

ومما قاله لاحقاً أحد القادة العسكريين الأميركيين الميجر جنرال «وليم كايز»، كانت عبارة «Deception» «خيبة أمل» إحدى الكلمات الرئيسة لمخططي الحرب الأميركيين. وهي تعني في اللغة الإنكليزية «غش ومعلومات ملفَّقة». في هذه اللعبة السابقة للحرب حيث الخدعة لها قيمة الحركة، قد تحرز عملية «حصان طروادة» نجاحاً باهراً. فقد حشدت فرقةٌ وهميةٌ بأكملها كانت قد تمركزت على الحدود السعودية، دبابات مزيفة وقطعاً مدفعية من البلاستيك حول بعض المعسكرات حيث يعمل أربعماية وستون جندياً، لإيهام العدو بوجود ستة عشر الف رجل من المارينز.

وقد حطَّت المروحيات مرات عديدة يومياً في وسط القاعدة لتضفي على العملية مزيداً من الصوت. وقد أخبر منسق العملية، البريفادير جنرال «طوم دراند» بما يلي: «في الوقت الذي اردنا فيه خلق انطباع بأننا اقوياء، كنا نأمل ايضاً بألا نتعرض لأي هجوم، لأننا في الواقع، لم نكن نملك ولو صاروخاً واحداً مضاداً للدبابات ندافع فيه عن أنفسنا».

الجيش الرابع في العالم

كانوا محللو السي. أي. إي C.A.I و الدّي آي. أي D.I.A. المستقرون في «الحجر الأسود» مركز القيادة العامة في الرياض يراقبون باستمرار

تصرفات صدام حسين. فعملوا باهتمام على تحليل كلماته وخطبه وتقاسيم وجهه وحركاته، لا بل أخذوا يفسرون بدقة كل ظهور متلفز له. وخلصوا في نهاية الأمر إلى نتيجة واضحة تتمثل بتمكن القلق منه. إذا بات يتكلم بلهجة أكثر هدوءاً وأقل ثقة بالنفس، وأحياناً يتردد لوقت طويل. وفيما بدا التعب والإنقباض على تقاسيم وجهه خفَّ تحرك نظراته التي لم تعد قاطعة.

وأكدت المعلومات الواردة إلى الأردن قلق سيد بغداد المتزايد. فقد أسرَّ الملك حسين أن الإتصال به أصبح مستحيلاً. وأضاف: إن صدام حسين لم يعد يستخدم الهاتف أبداً أو يجيب على أية مكالمة، خيفة تمكن قوات الحلفاء من تحديد مكانه.

إنه من غير المعقول عمليا ألا تكون جميع هذه المعلومات قد وصلت إلى الرئيس الأمريكي الذي كان منذ الثاني من شهر آب الاستراتيجي الحقيقي، ينسق كل ردود التكتل. بيد أنه لم يظهر أي تغيير في الموقف ولو لمرة واحدة. وفي النهاية قد يكون على الأرجح قد وافق أحد أقرب مستشاريه الرأي القائل: «في الواقع إن خطأنا الأكبر يكمن في أننا لم نقدر باكراً عدم قدرة صدام حسين في تدبير الحسابات وفقاً لمصالحه الخاصة».

أما «الديكور» الذي ركَّزه الأميركيون منذ عدَّة اشهر فلم يكن بحاجة إلى أي اصلاح. فما يقارب السبعماية الف رجل بينهم خمسماية وثلاثون الف أميركي، ينتمون الى ثمانية وعشرين دولة عضو في التكتل، اخذوا يتهيأون لمواجهة الجيش الرابع في العالم. لكن ذلك اختلف مع تقديرات الكواليس في البانتاغون حيث اخبر احد المقربين من تشيني بما يلي: إن

الجيش العراقي يتألف في الواقع من ١٠٪ جنود فئة أولى، ٢٠٪ جنود فئة ثانية و ٧٠٪ جنود فئة ثالثة.

الفصل الحادي عشر

نزاع من النوع الثالث

كان السادس عشر من كانون الثاني يوماً رمادياً ممطراً في واشنطن، جلياً وفي منتهى الاشراق في الخليج. وفيما غرقت العاصمة الأميركية في الليل، صار الوقت ظهراً في الرياض حيث كان مركز القيادة الجوية التكتيكي الذي خطط تفاصيل العمليات الجوية، في غليان تام.

وكان الليوتنان جنرال شارل هورنر البالغ من العمر اربعة وخمسين عاماً والقائد الأعلى لقوات التحالف الجوية يقف في وسط القاعة الكبرى مراقباً الرجال المنهمكين في دراسة الخرائط المنشورة على الجدران وشاشتي الرادارين العملاقين القائمين في مؤخرة القاعة. كانت عملية «عاصفة الصحراء» ستبدأ ليلاً بغية الاستفادة من عامل المفاجأة ومن قدرات الطيران العراقي المتدنية للغاية في القتال عند هبوط الليل.

مبدئياً، كان حوالي مليون ومئتي الف رجل في حالة تأهب للمواجهة. ولم يسبق أن هُيئت حرب مثل هذه الدقة من الجانب الأميركي. وهنا ايضاً كان لمثل فيتنام السلبي أثره الشديد. فالمسؤولون العسكريون والسلطة السياسية في تلك الحقبة كانوا مضطرين باستمرار لاستحداث الخطط وفقاً للحاجات الطارئة. اذ أُرغموا تحت ضغط الظروف على إرسال المزيد من القوى الجديدة لإعادة تقييم الحاجات المتزايدة من القوات الجوية. أما عملية التحضير في حرب الخليج فقد أبعدت باهتمام كل ما بإمكانه احداث المفاجآت.

لقد رُقِّمت بدقة المحاسب كلفة العمليات الجوية على الشكل التالي: سبعماية مليون دولار يومياً، كلفة عدد طلعات جوية تقدر بألفين

أو ألفين وخمسماية طلعة. وهو رقم قد يصل إلى ملياري دولار عند بدء شن الهجوم البري. وبلغت كلفة الصاروخ الواحد من طراز «توما هاوكس» مليوناً وثلاثمائة ألف دولار.

كان ذلك نزاع أراد لنفسه أن يكون من النوع الثالث مع «أسلحة ذكية» قادرة على تسديد الضربات بدقة «العملية الجراحية» وحيث كانت المعلوماتية قد لعبت دوراً رئيسياً.

كان الجهاز المثبَّت في مركز القيادة الجوية في الرياض يحمل اسم المرَقَّم CFMS ويرتكز على عمل ما يقارب عشر ناظمات آلية عملاقة تنشط على مدار الساعة. لقد خططت هذه الآلات باعتناء يوماً يعد يوم، اسابيع القصف الأربعة على العراق والكويت.

وملأت تفاصيل يوم واحد من القصف ثلاثمائة صفحة. واشارت الوثيقة المسماة ATO بنوع خاص، إلى الأهداف المختارة والموجات التي يجب استعمالها في الاتصالات ومواضع وأوقات التموين في الجو.

عرقلة حرية الصحافة

كانت الرقابة التي يجب ممارستها على الصحافة قد نسقت بالعناية ذاتها التي أعدَّ فيها الهجوم. وأولى المسؤولون الأميركيون منذ بداية الأزمة اهتماماً كبيراً بالأبعاد النفسية. وشكل الاحتفاظ برأي عام متحد في الحرب إلى حين انهزام العراق التام أولوية مطلقة، وأكثر من ذلك عقيدة أملاها البيت الأبيض، ونمَّق تنفيذ تطبيقها مسؤولو البانتاغون. وبعد اجتماعات مطولة عمد كل من ريتشارد تشيني وكولن باول إلى نشر وثيقة، تعدد في ست صفحات، القيود المفروضة على الصحفيين الموجودين في العربية السعودية وعلى أجهزة الصحافة العاملين في

خدمتها. ومن أهم ما جاء في الوثيقة ما يلي:

١ ـ وجوب المراقبة على جميع الأفلام والمقالات قبل إرسالها إلى الوكالات.

٢ ـ اقتصار «تغطية» الحرب على «هيئات» صحفية انتُقيت بدقة.

٣ ـ منع المراسلين الموجودين على أرض المعركة بالاختلاط مع العسكريين.

٤ ـ فرض الحظر على زياراتهم إلا اذا كانت دقيقة التوجيه.

كل ذلك حدا بمسؤولي الصحف وشبكات التلفزة الذين اعتادوا أن يُعاملوا «كسلطة رابعة» إلى الاجتماع بقوة ضد هذه العوائق التي من شأنها أن تلحق الضرر «بحقوق الإعلام». غير أن هذه الإحتجاجات لم تؤثر على المسؤولين المنهمكين فقط ـ كما قال أحدهم ـ «بالحفاظ على الرقابة الكلية والدائمة على مجريات الحرب».

زوِّدت معظم الطائرات الأميركية التي ستقلع في مهمات القصف الجوي بآلات تصوير. وقد تقرر انتقاء المسلسلات التي تبين أروع مشاهد الرماية على الأهداف بغية بثها في كل يوم إلى الصحافة. وبهذه الطريقة لن ترى أميركا والعالم إلا صواريخ وقذائف تصيب اهدافها مباشرة. وهذه العمليات المنسقة بمنتهى الدقة كان من شأنها تقوية ثقة الرأي العام في حرب تدور بمثل هذا التفوق التكنولوجي.

«لن نخسر». هذا ما قاله شوارزكوف لمجموعة من الصحفيين لدى استقباله لهم قبل بداية النزاع ببضعة أيام وهو يمضغ سيجاره، شارحاً وبطريقة مقتضبة تعليمات السلطة السياسية: «يجب أن نفعل كل شيء كي لا يشك أحد بإمكانية انتصارنا».

وقال أحد أبرز الاختصاصيين العسكريين الأميركيين: «كان يجب قطعاً أن يكون هذا النزاع هو الأول من نوعه حيث لا تحصى فيه الجثث كل يوم كما في فيتنام، بل فقط هياكل الطائرات والدبابات والبطاريات المحطمة».

لقد بدأ العد العكسي

عملياً، وكما في كل صباح، بدأ جورج بوش يوم السادس عشر من كانون الثاني بالإصغاء إلى العرض «الذي يتناول مسائل الأمن والاستخبارات» المنجز على يد أحد المسؤولين في السي. آي. إي. وقد شارك جيمس بيكر في جلسة التعليمات هذه التي قدّم توقيتها بشكل استثنائي إلى الساعة السابعة صباحاً.

وفي السابعة والنصف، التحق سكوكروفت وغايتس بهما. أكد بوش الابقاء على الساعة المحددة لبدء عملية «عاصفة الصحراء». عاد برانت سكوكروفت إلى مكتبه في الساعة الثامنة، فاتصل بتشيني لينقل له تأكيد الرئيس. ثم اتصل أمين سر عام الدفاع بدوره بالأركان العامة، وطلب من باول نقل الأمر إلى شوارزكوف.

وفي الثالثة والنصف بتوقيت الخليج أعلن «الدب» «بدء العد العكسي للعملية» لكبار مساعديه وبخاصة الليوتنان جنرال شارل هورنر قائد القوات الجوية.

وفي الثامنة والربع، ذهب جيمس بيكر إلى مكتبه في الطابق السابع من وزارة الخارجية للإتصال بالسفير السعودي بندر بن سلطان.

ـ بندر، هل باستطاعتك المجيء فوراً؟

بعد خمس واربعين دقيقة من المكالمة، كان السعودي يجلس قبالة أمين سر الدولة.

قال بيكر: بندر، لقد اوشك «البالون» أن يطير، فحكومة الولايات المتحدة تطلب من السلطات في بلادك الإذن باستخدام القوات المتمركزة على الأرض عسكرياً. هل بإمكانك نقل هذا الطلب فوراً؟

عاد بندر بن سلطان لتوه إلى سفارته، واتصل بالملك فهد. انتظر دقائق طويلة قبل أن يمسك العاهل بسماعة الهاتف. فتكلم معه كلمات جانبية ملغزة دُسَّت بينها جملة، هي بمثابة اشارة اصطلح عليها وتعلن عن بداية الهجوم الأميركي. وتتضمن هذه الجملة كلاماً عن صديق مريض قال عنه بندر: «سيصل في الساعة الثالثة صباحاً (أي ساعة بدء العمليات الحربية في العربية السعودية) سأذهب لاستقباله».

بدا فهد متردداً مبغوتاً ثم أجاب باختصار مستعملاً بدوره كلمة اخرى ملغَّزة عنى فيها موافقته.

كان السعوديون قد احتاطوا بهذه الطريقة وأتقنوها خيفة أن تتنصت عليهم دوائر السفارة السوفييتية التي قد تنقل فيها بعد الخبر إلى بغداد. وعند الظهر انفرد بوش في تناول الغداء مع بيكر، وقبل جلوسهما إلى الطاولة تنزها معاً لبعض الوقت في الحدائق فمشيا جنباً إلى جنب وكلٌ منهما يرتدي بزَّة داكنة اللون ويداه في جيبيه. ارتسمت على وجهيهما علامات الوقار. فأخذا يتبادلان مناقشة حادة بصوت خافت غير شاعرين بالبرد. وبعد الظهر، عاد بيكر إلى وزارة الخارجية حيث كان في انتظاره «زلمان شوفال» سفير إسرائيل. فأعلمه بالهجوم الوشيك وأعاد تأكيد الهدف الأميركي المزدوج ويتمثل بنقطتين: الأولى وفيها تعهد أميركي بهدم كل الطاقة العسكرية العراقية منذ الساعات الأولى

للقصف، وخاصة تلك التي تهدد الدولة العبرية. أما الثانية فتعهد إسرائيلي بالتأكيد على أن الدولة العبرية ستبقى خارج النزاع.

لم يعطِ شوفال الحذِر أي التزام ثم قال مختتماً: ـ «اشكرك على هذه المعلومات والملاحظات؛ وسأعلم بها حكومتي».

وخلال ساعات قليلة، حيث الأزمة قائمة، كان الأميركيون قد أعلموا بالأفضلية حليفيهما المهمين في المنطقة.

صلوا لأجل البلد كما أصلي

في الوقت نفسه، اختلى بوش في قاعة روزفلت، وهي قاعة مظلمة لا نوافذ لها، حيث كانت في انتظاره جماعة من الأخصائيين جاؤوا ليبحثوا معه مشاكل التربية.

وحين انتهى الاجتماع وعاد بوش الى مكتبه، اقترب منه صحفي معتمد في البيت الأبيض قائلاً له: ـ تبدو مشغول البال.

ـ قهقه الرئيس الأميركي ثم أجاب: انك لا ترى إلا ما تأمله. هيّا ابتسم!

كانت الساعة آنذاك قرابة الخامسة مساءً، الواحدة صباحاً بتوقيت الخليج. اقلعت اولى قاذفات الـ أف ١٥ المجهزة بصواريخ جو ـ جو من القاعدة الجوية الأميركية الرئيسية المتمركزة في الأراضي السعودية. وبعد عشر دقائق تزامن إقلاع خمس طائرات مراقبة من طراز «أيواكس» من قاعدة عسكرية واقعة قرب الرياض مع إقلاع ست طائرات تموين من طراز KC ١٣٥. في الساعة الخامسة والدقيقة السادسة والعشرين، الواحدة والدقيقة السادسة والعشرين فجراً بتوقيت الخليج، تحركت

ستون طائرة من طراز F٤٦ مجهزة كل واحدة منها بصاروخين من طراز «هارم» و«سبارو» نحو مدارجها، ومهمتها تهديم الرادارات العراقية والبطاريات المضادة للطائرات.

في السادسة مساءً ، الثانية صباحاً بتوقيت الخليج، أقلعت مئة وخمسون طائرة سعودية وأميركية من طراز ف١٥ . كما تزامن اقلاع اربع وعشرين طائرة بريطانية من طراز «تورنادو» مع مجموعة اخرى أقلعت من البحرين.

في العاشرة والنصف، الثانية بتوقيت الخليج أقلعت افواج من طائرات المطاردة من طراز FA 18 Mornet بمعدل واحدة كل ربع دقيقة. كل ذلك، لم يكن إلا بضعة من اسراب تؤلف «الأرمادا» الجوية الأكثر ضخامة حتى الآن ، والتي لم يسبق أن استخدمت في هجوم على بلد.

وكانت جميع التحركات التي جرت في مركز القيادة الجوية التكتيكي في الرياض، قد ظهرت على شاشات الرقابة المضيئة في الرادارات. لكن وحدها «الطائرات الخفية» من طراز F117 A لم تظهر لأنها لم تكن بحاجة لأية مواكبة. وحسب رأي الأخصائيين، فإن ثمانية طائرات من هذا الطراز باستطاعتها تأمين الفاعلية ذاتها التي تؤديها خمس وسبعون طائرة عادية.

تشكل كل سرب هجومي من اربع طائرات من طراز F ٤٦ وأخرى من طراز EF111 مزوّدة بتجهيزات الكترونية قادرة على تحطيم الرادارات واجهزة الدفاع الأخرى، مفسحة المجال بذلك لاثنتي عشرة طائرة مطاردة وقاذفة من طراز ف ١٦ بحماية اربع مطاردات من طراز ف ١٥ .

كانت السماء صافية في ليلة دامسة، وتلك هي الحالة المثلى لسهولة رمي القذائف من نوع «توما هاوكس» ولاستخدام أجهزة تتيح الرؤية في

الليل، إذ أن الضباب والغيوم أو الدخان عوامل من شأنها أن تحدث فيها خللاً.

في الخامسة والنصف بتوقيت واشنطن، الثانية والنصف صباحاً بتوقيت الخليج، جلس جورج بوش في «الستادي روم» وهي غرفة الدراسات المتاخمة للمكتب ذي الشكل البيضاوي. فاتصل بزعماء الكونغرس ليعلمهم بقصف بغداد الوشيك.

فتمكن من الإتصال دون صعوبة بروبيرت دول زعيم الأقلية الجمهورية في مجلس الشيوخ وبجورج ميتشل زعيم الأكثرية الديموقراطية، غير أنه لاقى صعوبة اكثر في الاتصال «بطوماس فولاي» المتحدث باسم غرفة الممثلين. كان فولاي في إحدى المخازن في واشنطن بغية شراء بعض القمصان عندما وصل سائقه راكضاً:

ـ الرئيس في انتظارك على الخط. هَمَّ فولاي إلى سيارته وتناول السماعة، فقال له بوش: ـ اذهب الى مكتبك، سأتصل بك على خط أكثر اماناً. رجع توماس فولاي الى الكابيتول وانتظر مكالمة البيت الابيض. فحدثه بوش بصوت خافت قائلاً: «إن المعركة قد بدأت، وأنه سيرسل بعد ساعة روبيرت غايتس الرجل الثاني في مجلس الأمن القومي حاملاً تقريراً يفصِّل إخفاق كل المبادرات الديبلوماسية، ويبين أن العقوبات المطبقة كانت قد خفضت ٩٧٪ من صادرات العراق و ٩٠٪ من وارداته. وخلال النهار، كان الرئيس الأميركي قد اتصل بكبار حلفائه، وتكلم ثلاث مرات مطولاً هذه المرَّة مع «جون مايجر» رئيس الوزراء البريطاني. وكانت الطائرات الـ RAFمن سلاح الطيران الملكي البريطاني قد شاركت في الهجمات الأولى. ثم أجرى مع ميتران محادثة مختصرة. أما السوفيات فقد بلغهم الأمر عن طريق بيكر وحوالي الساعة

السادسة أي قبيل ساعة من صب القنابل الأولى على بغداد. غير أن امتناع بوش بنفسه عن إبلاغ غورباتشوف، كان يهدف الى شجب المواجهات الأخيرة الدامية التي طرأت على ليتوانيا. اتصل بيكر ببسمرتنيخ في بيته. كان الوزير السوفييتي نائماً، فبدا وكأنه اذهل بالخبر، فاتصل مباشرة بغورباتشوف. طلب الرئيس السوفييتي منه اعادة الإتصال ببيكر في واشنطن ومحاولة اقناع الأميركيين بوقف هجماتهم الى حين يتمكن من الإتصال بصدام حسين. وفيما كان بسمرتنيخ ينقل هذا الطلب، حاول غورباتشوف عبثاً الاتصال بسفيره في بغداد ـ ويبدو أن الخطوط كانت معطلة آنذاك ـ إلا أن هذه المحاولة الأخيرة لم تكن لتنجح في جميع الأحوال.

في الواقع، اصغى بيكر بلباقة إلى السفير السوفييتي الذي بادره بالقول: «إن الرئيس غورباتشوف يعرض على الرئيس بوش القيام بجهود اضافية بغية التوصل الى اتصال مباشر مع صدام حسين للحصول على تصريح فوري يعلن فيه انسحابه من الكويت».

اجاب امين سر الدولة: ـ «إننا نشكركم، لقد سبق وحاولتم مراراً دون جدوى، أما الآن فقد فات الأوان».

وحين علم غورباتشوف بهذه النهاية السلبية من واشنطن، دعا فوراً في الساعة الثانية صباحاً بتوقيت موسكو إلى الكرملين فضلاً عن بسمرتنيخ، افجيني بريما كوف، الرجل الذي فاوض صدام حسين، ووزير الدفاع ديمتري يازوف، ورئيس الكا. جي. بي. فلا ديمير كيريوتشكوف وأثناء هذه المحادثة، كان بوش قد عاد إلى جناحه الخاص ليستحم ويبدل لباسه. فاختار قميصاً ازرق وربطة عنق كامدة اللون، ثم تبادل النقاش لبعض الوقت مع زوجته بربارة. وقبل أن يغادر اتصل

هاتفياً بالمطران براونغ، رئيس الكنيسة الأنكليكانية التي ينتمي إليها، ليعلن له بداية الحرب فقال: «صلِّ لأجل البلد كما اصلي».

رئيس يلهو بتغيير موجات التلفاز

في السادسة والدقيقة العاشرة، اجتازت سيارة روبيرت غايتس، الرجل الثاني في مجلس الأمن القومي والمدير المساعد السابق في السي. آي. إي حواجز البيت الابيض المشبكة.

في السادسة والنصف، دخل غايتس إلى مكتب «روبيرت دول» في الكابيتول. كان في انتظاره رئيس الأقلية الجمهورية في مجلس الشيوخ برفقة جورج ميتشل زعيم الأكثرية الديموقراطية. قال دول: «لم يعد هناك جمهوريون أو ديموقراطيون، هناك فقط أميركيون متحدون مع الرئيس».

في الوقت الذي قام فيه غايتس بتسليم البرلمانيين نسخاً من الرسالة التي وجهها لهم بوش، كان الأخير يجلس على مقعد في «الستادي روم»، (غرفة الدراسات)، وفي يده «تليكومند» (آلة لتحريك جهاز عن بعد). أحاط به كلٌّ من نائب الرئيس دان كويل، برانت سكوكروفت، جون سونونو ومارلين فيتزووتر. فجلسوا حول جهاز التلفاز، ماركة «سوني ترينيترون» الموضوع في وسط الغرفة. فبدوا وكأنهم جماعة من الأصدقاء التقوا لتمضية سهرة هادئة أمام الشاشة الصغيرة. كان بوش يبدِّل باستمرار في موجات التلفاز ماراً بالسي. بي. أس، وال أن بي سي، وال إي بي سي منتهياً بالسي. أن. أن.

في السادسة والدقيقة الخامسة والثلاثين، أوقف البث فجأة على شبكة المعلومات المبرقة ورفع الصوت. كان أحد المبعوثين الخاصين إلى

بغداد «برناردشو» ينقل تقريراً عن رمايات مضادة للطائرات DCA، قد بدأت لتوّها وأخذت تشتد.

وكان باستطاعة بوش كما الملايين من مشاهدي التلفاز عبر العالم، أن يرى بقعاً مضيئة تنطلق رزماً وتحدث ثقوباً في الليل.

وقف الرئيس حائراً ووجهه يكاد يلتصق بالشاشة فسأل من حوله: «ما هذه الآثار في السماء؟ هل ترون لها تفسيراً؟ أجاب مارلين فيتزووتر: «إن بدء القصف مقرر في تمام السابعة، و هذه الأضواء الملتمعة في السماء قبل الوقت المحدد تقريباً ما هي إلا لغزُ بالنسبة إلينا. إذ لا يمكننا الاعتقاد بأن المضادات الأرضية DCA هي التي تعمل». في الواقع، لم تكن سوى قاذفات الشبح «fantomes» من طراز ف ١١٧ التي لا يمكن اكتشافها بالعين المجردة. في الساعة السابعة، سمع دويّ انفجار قوي عبر خط الهاتف حيث يتكلم صحفي من السي. أن. أن. هزّ بوش رأسه راضياً فترك آلة «التليكومند» والتفت إلى معاونيه قائلاً: «تماماً في الساعة المتوقعة»! ثم توجه إلى المتحدث باسم البيت الأبيض ـ وهو رجل جسيم، أصلع، ودود الطبع ـ يغادر القاعة قال له بوش بارتياح: «أنت ولد لطيف يامارلين».

فتقدم فيتزووتر بين آلات التصوير والمذاييع المركزة في قاعة الصحافة معلناً بمهابة: «لقد بدأ تحرير الكويت».

جريمة الشيطان بوش

في نيويورك، أخلى اعلان الحرب الطرقات. وفيما تدافع المارة إلى المخازن الكبرى للتجمع أمام شاشات التلفاز اسدلت المخازن الصغرى ستائرها. أما في المحطات مثل grand central في قلب منهاتن، فساد

صمت غير عادي. وأخذ المسافرون في القطارات المتجهة نحو الضاحية يتجمعون على الارصفة حول من يحمل مذياع.

وكان مركز التنصت الواقع قرب نيقوسيا قد التقط لتوّه خطاباً لصدام حسين، بثته اذاعة بغداد. وفيه يتهم بصوت خافت «الشيطان بوش بالجريمة» ويعلن «لقد بدأت أم المعارك».

في البنتاغون، كان ريتشارد تشيني وكولن باول على اتصال دائم مع الرياض والمقر العام للقوات الجوية، وكان الجنرال «شارل هورنر» وفرقه يتلقون في كل دقيقة المعلومات التي كان ينقلها لهم خمسة وأربعون مدير آلة يعملون في أربع طائرات من طراز «ايواكس».

أما البوينغ F3A وهي بحجم البوينغ ٧٠٧، فلم تعد طائرات مراقبة واستكشاف فحسب، بل كانت وهي تحلق على علو ١٢ ألف متر بمثابة محطات وصل حقيقية تعمل لمصلحة المقر العام. ففي داخلها تسع شاشات رادار منظمة على امتداد حجرة الطيار وتعمل باستمرار. وكان كل مدير آلة يتبع مسار خمس وعشرين طائرة مطاردة.

كان صدام حسين قد اخبر بعض حلفائه العرب وبخاصة ياسر عرفات ورئيس اليمن بما يلي: «إني أعي تفوق الولايات المتحدة الجوي، غير أني باقٍ على اقتناعي بأن المعارك الحاسمة ستقع أثناء المواجهات البرية».

لم يكن يدرك أن الحرب التي شُنَّت ضده الآن قد تغيَّرت طبيعتها. وذلك خلافاً لما جرى في فيتنام حيث جعلت الأدغال تحديد الاهداف صعباً، أما العراق والكويت فهما عبارة عن مناطق مسطحة وخالية في القسم الاكبر منها، مما يسهل اكتشاف الاهداف.

وخلال الليل، أطلقت البارجة «ويسكنسون» وبقية البوارج الاخرى الراسية في عرض السواحل مئة وخمسين صاروخاً من طراز «توماهاوكس»، فأصابت خمسة وثمانون بالمئة من الصواريخ اهدافها. زد على ذلك أن الاجهزة الالكترونية التي جُهِّزت بها الطائرات الاميركية، كانت قد أسكتت أو أرعبت المضادات الأرضية العراقية، متيحة بذلك للقنابل والصواريخ الجوية الموجهة بواسطة الليزر إصابة أهدافها بدقة. هذا ونقل تشيني وباول تعليمات من البيت الابيض تفيد بتحاشي الخسائر المدنية مهما كلف الأمر. فبدت هذه التعليمات غير مجدية لأن السيطرة والتفوق التكنولوجي عند قوات الحلفاء كانا كليين.

مرافعة من أجل نظام عالمي جديد

جلس بوش وراء مكتبه قبيل الساعة التاسعة، ورافقه المبشّر التلفزيوني بيللي غراهام الذي كان قد دعاه الى البيت الابيض لتمضية السهرة وللصلاة إلى جانبه.

وضع بوش أمامه بضع وريقات، هي نص خطابه، ثم تبادل بعض النكات مع الفرق التقنية التي احكمت آلات التصوير.

وفي التاسعة تماماً قطعت جميع شبكات التلفزة الأميركية برامجها فاسحة بالمجال لكلام الرئيس.

عبَّر بوش بصوت حازم وخالٍ من الانفعال بما يلي: «منذ ساعتين تماماً، بدأت القوات الجوية للحلفاء هجومها على الاهداف العسكرية في العراق والكويت. وتتواصل هذه الهجمات في الساعة التي اكلمكم. لم تشترك أية قوة برية. لقد بدأ هذا النزاع في الثامن من شهر آب، عندما اجتاح ديكتاتور العراق بلداً صغيراً ومسالماً. وقمنا خلال شهور عدة

بجهود دبلوماسية مكثفة باءت جميعها بالفشل، ولم يعد أمام الولايات المتحدة وحلفائها، سوى خيار واحد ألا وهو ارغام صدام حسين على مغادرة الكويت بالقوة».

لم يكن خطاب الرئيس الذي اذيع عبر العالم بأكمله يتضمن فقط شرح وتبرير هذه الحرب، بل تعلق الامر ايضاً بإذاعة بيان سياسي هو مرافعة لصالح «النظام العالمي الجديد» الذي اجتهد بوش ومستشاروه في تنفيذه.

إنها «لحظة تاريخية» ـ قال الرئيس في لحظة ما ـ ثم أضاف: «لقد انجزنا تفوقاً كبيراً وملموساً خلال السنة الماضية بوضعنا حداً لتاريخ طويل من الصراعات والحروب الباردة. أما الآن فأمامنا فرصة تتيح لنا وللأجيال القادمة أن نضع نظاماً عالمياً جديداً، حيث سيادة القانون هي التي ستحكم سلوك الامم لا شريعة الغاب».

وعندما أنهى بوش ـ الذي يخاف دائماً البلاغات المتلفزة حيث لا يشعر بالإرتياح لدى سماعها ـ حديثه، : التفت نحو سكوكروفت وبيللي غراهام يسألهما بالإيماء:

ـ هتف القس: ممتاز.

وفي تلك اللحظة، اتصل بيكر ـ الذي كان قد بقي وحيداً في مكتبه في وزارة الخارجية يتابع من هناك خطاب الرئيس ـ ليهنئه قبل عودته الى بيته. واكد خلال مكالمته الهاتفية أنه تم في الساعة السابعة ارسال برقية مرموزة الى كل السفارات الأميركية عبر العالم معلنة اندلاع الحرب، وطالبة تطبيق أقصى التدابير الأمنية.

اصغى اليه بوش ثم تبادل معه بعض الكلمات الموجزة قبل أن يختم

قائلاً : «شكراً يا جيم إلى الغد».

بقي بوش في المكتب ذي الشكل البيضاوي، حيث اخذت أنباء الحرب ترده تباعاً على يد روبيرت غايتس من غرفة العمليات».

ومن ناحية هذه القاعة الفسيحة الكائنة في سراديب البيت الابيض، كان كينيدي قد اطلق إنذاره الى خروتشوف إبان أزمة كوبا. وهناك قام سكوكروفت باتصالات مستمرة بواسطة الفيديو مع السي. آي. إي. والبنتاغون ووزارة الخارجية. وتحاور مع تشيني وباول ووليم وبستر مدير وكالة الاستعلامات ناقلين اليه تفاصيل جديدة عن الانتصارات.

كان العسكريون قد تكهنوا شؤماً بسقوط مائة وخمسين طائرة في الليلة الأولى. غير أن طائرة واحدة لم تصب بأذى. مما جعل ضعف الرد العراقي عامل تعجب هائل.

وخلال المحادثة التي أجراها لتوّه مع جورج بوش، سأل بيكر عما إذا كان سير الغارات الجوية يجري بشكل مرضٍ.

اجاب: حتى اللحظة، كل شيء على ما يرام.

حينئذ رد بيكر: ولكن أين صدام حسين؟ يبدو وكأنه غائب أو نائم.

حتى الآن كل شيء على ما يرام

عادجورج بوش، وهو رجل له عاداته، إلى جناحه الخاص، حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف على الرغم من الظروف الاستثنائية. أخذ المتظاهرون في الخارج يصرخون: «وقوفاً يا جورج وقوفاً».

وقبل أن يغادر، كان قد استلم اولى تفاصيل تقصيات الرأي العام.

حقق خطابه في المستمعين رقماً قياسياً في تاريخ التلفزة الأميركية. فمشاهدو التلفاز الذين حضروا وسمعوا كلماته فاق عددهم نسبياً، المشاهدين الذين كانوا قد اتبعوا خطوات أول رجل على سطح القمر.

استلم تشيني في منتصف الليل تقريراً من كولن باول يشير فيه إلى تدمير جميع مراكز القيادة العسكرية ومناطق الصواريخ المستهدفة، وأن ستمائة واحدى وسبعين طائرة، منها اربعة وعشرون طائرة بريطانية عادت جميعها إلى قواعدها سالمة بعد أن اصابت مئات الأهداف العراقية بقسوة.

فردَّ تشيني متحمساً ـ وقد خرج عن تحفظه المعتاد ـ على رئيس الأركان العامة بقوله: «الآن، كل شيء على ما يرام».So for, so food

هذا وكانت الغبطة ذاتها تسيطر على المطارات العسكرية حين تعود الطائرات من مهماتها.

لقد اخبر الطيارون، أن تنفيذ المهمات كان سهلاً، لا بل حسب قول أحدهم «كان غاية في السهولة».

وصرّح العقيد «ألتون وايتلي» قائد سرب القاذفات الخفية من طراز F117A بحماس أضيفت عليه مسحة شعرية غريبة: «إنك تختار الهدف وتصيبه بالدقة ذاتها، كما لو أنك صوَّبت على مراحيض الرجال الموجودة تماماً إلى جانب مراحيض السيدات».

الفصل الثاني عشر

عندما تسير الأمور على ما يرام ينبغي ألا نبالغ في التفاؤل

في ١٧ كانون الثاني رأى حراس الدائرة السرية ـ المكلفين بأمن وحماية البيت الأبيض ـ جورج بوش في الساعة الرابعة والنصف صباحاً. كان يمشي في الأروقة وهو يرتدي قميصاً رياضياً بأكمام طويلة مع بنطال فاتح اللون وينتعل حذاءً يستخدم في لعبة كرة المضرب. لم يزل شعره مبللاً إذ كان لتوّه قد استحم.

كان من وقت لآخر يلتفت إلى الوراء بانتظام ثم يصرخ: ـ يللي ـ رينجر، هلما. كان يكلم كلبيه الذين كانا يتبعانه على بعد امتار قليلة. خرج يتنزه لبضع دقائق في المرج الأخضر حيث الظلام لم يزل مخيماً. ثم اتجه إلى المكتب ذي الشكل البيضاوي ليمكث فيه بعض الوقت. بعدها سلك الدرج المؤدي إلى سرداب البيت الأبيض حيث تقع ال «Sit-Room uation» غرفة العمليات. عرّج إلى القاعة المخصصة للصحافة ففاجأ بدخوله صحفيَيْن ـ وقد اخذهما النعاس ـ أثناء قيامهما بالمناوبة. فقال لهما مبتسماً:

ـ كنت أريد رؤية أولئك الشجعان الذين قضوا ليلتهم هنا.

سأله أحد الصحفيين وهو مصوِّر في مجلة «نيويورك تايمز» عما إذا كان قد سمع أصوات المتظاهرين في الليل.

أجاب الرئيس: ـ بالكاد سمعت، لماذا؟

شرح له المصدر عن تغطيته للمظاهرة. فأصغى بوش والإهتمام بادٍ على وجهه.

ـ أوه! هذا جيد. لا بد أنكما التقتما صوراً جميلة. ـ لا! هل أنا على خطأ؟ سأله صحفي آخر يعمل في السي. بي. أس. عن التوقعات العسكرية.

أجاب: الأمور تسير بشكل جيد ـ حقاً بشكل جيد. وتماماً كما نقلتموها انتما وزملاؤكما. سألهم بعد ذلك عن طرق عملهم وأوقاتهم. كان متكئاً على المقرأ الذي يتكلم من ورائه الرسميون حين يعقدون مؤتمراتهم الصحفية. ثم استأذن من الجميع بعد أن حدَّق في ساعته قائلاً: تشجعوا عافاكم الله. يجب أن أذهب الآن إلى غرفة العمليات «Situation Room»، وغرقت القاعة في شبه ظلمة. لم تكن غرفة العمليات هذه مركزاً هاماً وحساساً يجمع كل المعلومات فور وقوع الأزمات فحسب، بل كانت مخزناً للأسرار حتى التي لم يبح بها.

وكانت القرارات المأساوية حين نشبت أزمة كوبا وحرب فيتنام «قد اتخذت في هذه القاعة التي امتلأت بالمعلومات وبشاشات الفيديو والتي تبوأت حيطانها خرائط ضخمة للعالم. زد على ذلك قضية «إيران غيت» تلك المغامرة الخيالية المنسوبة إلى العقيد نورث معاون رونالد ريغان، وموضوعها تهريب اسلحة وتمويل خفي.

كانت هذه القاعة الإطار الصامت الذي يشبه حرماً توارى في مكان عميق. وأشارت المعلومات الواردة لبوش إلى أن القصف على العراق والكويت مستمر بالشدة نفسها. وعند بزوغ الفجر وصل جيمس بيكر وريتشارد تشيني إلى البيت الأبيض ليتناولوا الفطور مع الرئيس الذي كان في هذا الوقت قد بدَّل ثيابه وارتدى بزة وربطة عنق. وبعد قليل انضم إليهما برانت سكوكروفت الذي بقي كتشيني يسهر قسماً كبيراً من الليل. وكان قد غفا على ديوان موجود في مكتبه. حمل تشيني معه صوراً

كثيرة التقطتها الأقمار الصناعية، تبيّن ضخامة الأضرار التي الحقت بالمنشآت والأبنية العراقية. نظر بوش باهتمام إلى «الكليشيهات» وهو يشرب عصير البرتقال. ثم اخذ يعقد حاجبيه وكأنه يريد بذلك أن يشاهد بدقة كل التفاصيل المرئية. وأظهرت الصور خاصة، تهديم القصر الرئاسي ووزارة الدفاع.

وفي لحظة ما، وبعد صمت طويل، التفت بوش نحو تشيني:

ـ ديك، إذا كانت هذه الأبنية قد هدمت حقاً، فلمَ لا أزال أراها؟

فاجأت هذه الملاحظة تشيني.

ـ باستطاعتي أن أؤكد لك بأنها قد أصيبت جميعها وأنه لم يبق منها إلا بعض الجدران المصدعة. إنها مجرد تأثير بصري.

ـ هزّ بوش رأسه راضياً بشرحه.

وكان قد تقرر بعد الظهر ذهاب الرئيس إلى البنتاغون حيث سيقدم له باول تقريراً مفصلاً عن اليوم الأول لسير العمليات.

وهكذا بدأت عاصفة الصحراء تتوج بنجاح باهر.

نقل تشيني خبراً مفاده أن عسكريين في البنتاغون سبق وأن عارضوا التدخل في الخليج، أخذوا يطلقون بلاغات شديدة البهجة. فتبسم بوش لدى سماعه هذا الخبر وأجاب: «كان لوالدتي مبدأ مافتئت تردده: «لا تفرطوا في التفاؤل عندما تكون الأمور سائرة بشكل حسن».

وبقي معتمداً تطبيق المخطط المرسوم والقاضي بتكثيف القصف خلال الأسبوع الثاني: «إن فعالية هذه الحملة ستحدد المدة وحجم

تكاليف الحرب». جازف بيكر بالقول: ربما تمكنا من اجتناب هجوم بري؟

أجاب بوش: من المبكر جداً افتراض مثل هذا السيناريو.

في نهاية الفطور وبينما توجه تشيني إلى البنتاغون، طلب بوش من بيكر البقاء لحضور اجتماع تعليمات السي. آي. إي. ثم استقبل وفداً من البرلمانيين. وصل الجميع وقد غمرتهم الفرحة بجو الانتصار الذي بالغ فيه التلفاز. فأحاطوا بالرئيس وهم مقتنعون بهزيمة العراق الوشيكة.

قال أحدهم:

ـ سيدي الرئيس، عليكم أن تدعوا صدام حسين لإلقاء السلاح وللاستسلام. حاول بوش التخفيف من هذا الحماس.

ـ ليس لدينا أي تأكيد بأن هذه الحرب ستكون قصيرة وسهلة. ثم سأل وهو يومي بنظره إلى البرلمانيين:

استيقظت اليوم باكراً، أتعملون لماذا؟

لأنني رغبت في معرفة ما إذا وقعت خسائر أم لا. كنت أنازع فعلاً وأنا استفيق. الحمد الله حتى الآن لم يحصل شيء من هذا القبيل، لكن الأمور قد تتبدل بسرعة.

حسناً، أعتقد أني أدرت اليوم هذه الحرب بما فيه الكفاية

بعد هذا الاجتماع، غادر بوش البيت الأبيض متوجهاً إلى فورت مير. وكان قد طلب من القس بيللي غراهام إحياء قداس لأجل السلام في كنيسة القاعدة العسكرية الخاصة الكائنة في فيرجينيا. اختلط بوش وهو محاط بمعاونيه سنونو، وبيكر، مع عائلات العسكريين مرتلاً مزماراً

بعنوان النعمة العجائبية، ثم استمع إلى غبطة المبشر في التلفاز وهو أحد المقربين من الرؤساء الأميركيين منذ عهد أيزنهاور.

قال بيللي غراهام للحاضرين: «تداهمنا أوقات ينبغي علينا فيها القتال من أجل السلام». وأتقن في خطابه هذا فنَّ البَلاغة، ثم أضاف بصوت قوي: «ما هي الميول الشريرة في الجنس البشري؟ لماذا لا نستطيع حلَّ مشاكلنا دوماً بطرق سلمية؟

وعندما انتهى القداس، توقف بوش على درج الكنيسة متحدثاً مع نساء العساكر والضباط. ثم وصل بواسطة الطوافة إلى البنتاغون برفقة تشيني. ومنذ ذلك الحين، أحاطت بتنقلاته تدابير أمنية استثنائية. ولدى وصوله إلى وزارة الدفاع، اختلى فوراً في «التانك» حيث ينتظره كولن باول محاطاً بعدد من كبار الضباط. قام رئيس الأركان العامة بعرض مفصَّل لأكبر هجوم جوي عبر التاريخ العسكري: فخلال أربع عشرة ساعة تقريباً، حققت قوى التحالف اكثر من الف طلعة، بينما في المرحلة الشهيرة من حرب فيتنام في أيلول ١٩٦٥، أنجز الطيارون الأميركيون ثلاث آلاف طلعة في الأسبوع. كان مقدراً أن يُرمى على العراق والكويت خلال اليوم الأول ٢٢٣٢ طناً من القنابل. وهنا أيضاً تعدَّت الأرقام بحجمها الأرقام العائدة لفيتنام. بعد هذا العرض، أرهق جورج بوش كولن باول بأسئلته المتلاحقة:

ـ «ما حجم الأضرار التي الحقت بقوى صدام حسين؟ هل أصيبت القوى المستهدفة؟. ماذا بقي من القوى الجوية العراقية والطاقة الكيميائية؟.

أجاب باول بهدوء ودقة على جميع الأسئلة وحتى على تلك التي

أعادها الرئيس مرتين. تابع بوش: وقواعد الصواريخ التي تهدد إسرائيل هل دمرت؟. أجاب رئيس الأركان العامة: «لقد استبعد منذ الآن تقريباً كل خطر على الدولة العبرية». دام تبادل الأحاديث هذا، حوالي الساعة تقريباً، غير أن بوش الذي بقي متشنجاً ومركزاً التفت فجأة إلى الوراء مظهراً ابتسامة عريضة: «حسناً أظن أني أدرت الحرب بما فيه الكفاية لهذا اليوم». قهقه الجميع مؤكدين عباراته.

السي. أن. أن تربح الحرب

وفيما عاد إلى البيت الأبيض كانت تشتعل حرب عنيفة أخرى تمثلت بنسبة المستمعين الذين أحصتهم شبكات التلفزة منذ أن وقعت معارك الليلة الأولى. وبدت شبكة الإعلام المبرقة السي. أن وكأنها المنتصر الأكبر. فقد أكدت أن مراسليها الخاصين هم أول من أعلنوا أنباء عمليات القصف الأولى منذ الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والثلاثين. وكان منافسوها الذين يعلمون الأهمية التي من شأنها استقطاب الحضور الإضافي وجذب الملايين من الدولارات عن طريق الإعلانات، يردون بحرب نشرات حقيقية.

حللت الإي. بي. سي. بدقة التسجيلات وأكد الناطق باسمها: «لقد وصف أحد مراسلينا السيد شيبارد، الأضواء المنبجسة في سماء بغداد في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والثلاثين والثانية السادسة والعشرين. لقد كنا اسرع بدقيقة من السي. أن. أن وأعتقد أننا السباقون. أما السي. بي. أس والأن. بي. سي فهما شبكتان كبيرتان كانتا قد بثّتا بلاغ النصر ذاته. في سباق السرعة المضطرب هذا لجمع أقصى

حد ممكن من مشاهدي التلفاز، كان بإمكان شبكة السي . أن . أن التفوق على الأخيرتين بعدد من الشهادات القيمة. فقد أبقى العراقيون ومثلهم المسؤولون الأميركيون أجهزتهم على اتصال مستمر بشبكات الإعلام وباح تشيني بسر شاع في كل مكاتب التحرير: «لقد حصلت خلال الليل على أكثرية المعلومات من شبكة السي . أن . أن. فمن خلالها رأيت وسمعت أحسن التقارير».

وعند الغروب، أجاب الناطق باسم البيت الأبيض على سيل من الأسئلة حول الموقف الواجب اتخاذه تجاه صدام حسين.

قال: «جيد، إذا أراد تغيير مجرى الأمور فكل ما يتوجب عليه هو الإستسلام والانصياع إلى قرارات الأمم المتحدة».

ـ سأل أحد الصحفيين: هل ذكر الرئيس بوش إمكانية الاستسلام.

أجاب فيتزووتر: لم يتلفظ بهذه الكلمات، ولم يذكر هذه الفرضية. كان بوش الذي دخل إلى مكتبه قد تابع على شاشة التلفاز، هذا الحوار الذي جرى على بعد بضعة أمتار. بعدها بقليل وبينما خرج من المكتب البيضاوي ليذهب إلى سكوكروفت لحق به الكثير من المراسلين إلى وسط الممشى. فشكلوا مجموعة كثيفة حول الرئيس وأعادوا طرح السؤال نفسه:

ـ هل ستطلب من صدام حسين الاستسلام؟

بدا بوش مبتهجاً وقال:

ـ لكن، أين الانضباط . . . ؟

ثم التفت إلى فيتزووتر وأضاف:

. . . . أعتقد يا مارلين أنه ليس بإماكاننا تجاه مثل هذا التهديد إلا الاستسلام.

وابل من الصوارخ على إسرائيل

لقد باح أحد الأخصائيين بما يلي: «إنها الحرب الأولى. حيث تشارك الأقمار الصناعية بمساعدة مباشرة في العمليات الجارية على ساحات القتال». ورغم السرية التي كانت قد أحاطت بإطلاقها، فبالإمكان اعطاء العدد سبعة للأقمار الأميركية التي دخلت في النزاع. فقد ركزت جميعها على علو اثنين وعشرين ألف وخمسماية ميل.

وكان إحداها ويسمى «لاكروس» مجهزاً برادار يستطيع وحتى من خلال الغيوم كشف أحجام أصغر من سيارة جيب. أما الستة الباقية والمسماة «كيهول» فقد استعملت كآلات تصوير مرصدية مهمتها تغيير الزاوية لخمس أو ست مرات في الدقيقة بغية تغطية أقصى مسافة أرضية ممكنة. كذلك فإن دقة الإتقان في هذه الآلات سمحت باكتشاف انطلاق أي صاروخ عراقي.

وكان القمر الصناعي فور إطلاق صاروخ العدو، ينقل الخبر في الوقت المحدد إلى محطة القوات الجوية الأميركية المتمركزة في «الأليس سبرينغ» Alice Spring في اوستراليا، فيعمد المحللون في خمسة وأربعين ثانية تقويم الخبر، ويقررون نقله أو عدم نقله إلى مقر القيادة العامة في «النوراد» (North American Aerospace Defense Command) وقاعدته في كولورا دوسبرينغ حيث يؤخذ القرار الأخير. وكانت آنذاك قد انقضت دقيقتان على اطلاق الصاروخ ولكي يتعاقب الخبر من جبال كولورادو إلى الخليج، كان يتوجب مرور دقيقة أو اثنتان.

هذا ويبقى للرد تقريباً حوالي دقيقتين. وتلك سعة من الوقت كافية مبدئياً لكنها ضعيفة.

إن جو المرح الذي ساد منذ بداية الحرب، قد أدى في الواقع بالعديد من المسؤولين العسكريين الأميركيين إلى الاعتقاد بأن صواريخ السكود لم تعد تشكل خطراً. فأفواج الطائرات التي ضربت غربي العراق، وهي أكثر المناطق تهديداً على اسرائيل، قد هدمت منصّات عديدة ثابتة ومتحركة. وفي الحال كانت تقديرات دوائر الاستعلامات الأميركية جازمة: فبغداد لا تملك أكثر من ثلاثين قاذفاً من طراز سكود المتحرك. وأظهرت الأحداث أن العراقيين امتلكوا منها ما يقارب المائتين دون الأخذ بعين الاعتبار ما يسمى «بالخدائع» إذ كانت عديدة وعلى شكل بطاريات من البلاستيك نظمت لإيهام الهجوم.

كان بوش في مساء السابع عشر يتناول وجبة العشاء في جناحه الخاص مع مدير وكالة حماية البيئة «وليام ريللي» عندما اتصل به سكوكروفت ـ الباقي في مكتبه ـ عند الساعة السابعة.

ـ بدا صوت رئيس مجلس الأمن القومي متشنّجاً.

سيدي الرئيس لقد أطلقت صواريخ إلى إسرائيل لم يعرف عددها حتى الآن، وهدفها تل أبيب وحيفا. إني بانتظار المعلومات الدقيقة.

شكراً يا برانت (Brent). اتصل بي ثانية.

عاد بوش إلى المائدة دون أن يذكر شيئاً. روى بعدها للمقربين إليه أن ردة فعله الأولى كانت «الإسراع» إلى المكتب البيضاوي ليطّلع على الأخبار وينسق رداً ما. بيد أنه ـ كما قال ـ فكر مباشرة بأن ذلك هو الفخ الذي وقع فيه أسلافه، إذ أصبحوا سجناء لها حين أرادوا إدارتها.

بدأت الإيضاحات تصل تباعاً، إذ كان الأمر هو إطلاق سبعة صواريخ سكود Scud، حيث أعلنت حالة الإنذار في البلاد لحرب كيماوية، غير أن الصواريخ كانت تقليدية ولم يصب إلا اثنا عشر شخصاً جروحهم طفيفة.

كان هذا الهجوم الصاروخي على إسرائيل مدمراً على الصعيد النفسي، مما جعل آلاف الإسرائيليين يختبؤن في منازلهم ويتهافتون على ارتداء الأقنعة الواقية من الغازات عند سماعهم صفارات الإنذار.

فجأة أصبحت الحرب امراً واقعاً حيث ولأول مرة منذ العام ١٩٤٨، يضرب صاروخ معادٍ الاراضي العبرية... ولم تستعمل بطاريات الصواريخ المضادة Patriot التي تسلمتها إسرائيل من الولايات المتحدة، لعدم وجود من يحسن استعمالها.

الفصل الثالث عشر

لم تعد المعادلة رابحة

لقد مرت تلك الليلة كما أخبر فيما بعد، مستشاري أحد بوش، حيث، فجأة، أصبح كل شيء من جديد أقل سهولة. كان إطلاق صدام حسين لصواريخه قد عمّ فجأة أفقنا. لقد تهيأنا لهذه الحرب لدرجة أننا فكرنا في الواقع أنه من غير الممكن أن تخرج عن سيطرتنا. وأذكر أن جماعة البنتاغون تناقلوا نكتة أضحكتهم كثيراً، وهي أنه خلال إحدى مراجعات الأخبار بمجملها في المملكة العربية السعودية، وبعد الليلة الأولى من القصف، سأل الضابط المكلف لتلقي المعلومات:

« ـ هل أدخلت B52 في عمليات القصف؟

« ـ ردَّ الضابط بالايجاب مما أثار ذهولاً لدى الصحفي

« ـ لكن ألا تشعر بأن في المسألة تفاوتاً ؟ فكأنك تريد قتل برغشة بمطرقة.

« ـ عندها أجاب الضابط بابتسامة عريضة :

« ـ لكنه جميل أن تقتل برغشة.

« لقد ثبت لدينا هذه الليلة أن بإمكان البرغشة أن تعقص وفي المكان الأشد حساسية : «الحلف السياسي».

كانت ردة فعل البيت الأبيض على هذا النبأ عادية، غير أنها مترددة، فتلمست الأمور كإنسان يسير ببطء في غرفة غرقت فجأة في الظلام.

كان جيمس بيكر أول شخصية بعد بوش تلقت النبأ من شوارتزكوف

حيث تناقش الرجلان معاً حول الوسيلة الأمثل للاتصال بالمسؤولين الإسرائيليين. وكان رأي بيكر عدم الاستعجال لأنه ـ حسب رأيه ـ يجب في بادىء الأمر جس نبض الحلفاء العرب. كان رئيس الدولة ووزير خارجيته آنذاك مقتنعين بحتمية الرد الإسرائيلي، وأن الأمر يقتضي وجوب التوصل إلى تفاوض معهم حول الحجم الممكن للرد؟؟ بينما اتصل شوارتزكوف هاتفياً بمنزل ريتشار تشيني في فرجينيا الذي كان قد دخل لينام بضع ساعات، كما اتصل وزير الخارجية بيكر بسفراء مصر وسوريا والعربية السعودية وأكد لهم ما يلي:

ـ سنمارس أقصى حد ممكن من الضغط على تل أبيب، لكن أفهموا حكوماتكم أننا لسنا قادرين على منع ردة فعل إسرائيلية.

اعترض سفير سوريا بسخرية على العبارة الأخيرة «كنت أجهل يا حضرة الوزير أن إسرائيل تستطيع أن تفلت لهذه الدرجة من سيطرتكم!».

أما سفير مصر فقد وصف رمايات الـ Scaud بأنه «عمل بربري»، وأضاف: بالنسبة لنا إنه شيء رهيب أن يكون صدام حسين عربياً. أما المحادثة التي كانت أكثر فائدة بالنسبة لبيكر فهي تلك التي أجراها مع السفير السعودي بندر بن سلطان، فكان قد أطلق أيضاً صاروخ سكود على العربية السعودية وأسقطه صاروخ أرض ـ جو (Patriot).

ـ إننا قلقون جداً يا «جيم». إذا ردّت إسرائيل سيربح صدام رهانه وسيحدث تصعيد في الموقف، حيث ستترك دول عربية الائتلاف على الرغم من تأكيدهم لكم عكس ذلك اليوم. ليس هناك سوى حل واحد وهو أن تحموا إسرائيل كما تحمونا. أرسلوا لهم بطاريات Patriot وخبراء

عسكريين للعمل عليها، لكن بعد أن تأخذوا عهداً منهم بعدم التحرك.

وجد بيكر هذه الفكرة حذقة ومغرية، ولحظة إنهاء المكالمة كان شوفال سفير إسرائيل يخابره على الخط الآخر.

قال السفير: الحكومة الإسرائيلية قلقة من الصمت الأميركي. كيف يمكن تفسير هذا الصمت؟ وأضاف أن وزير الدفاع موشي ارينز يتمنى التحدث مع نظيره الأميركي في أسرع وقت، بواسطة الخط الخاص (Hammerr Rick) الذي اقيم بين البلدين.

حاول بيكر طمأنة شوفال ثم أسرع إلى البيت الأبيض ليلتقي بوش في جناحه الخاص.

انفرد الرجلان بعد أن فرغ الرئيس من تناول عشائه وأصغى إلى بيكر وهو يذكر له نفاذ صبر الإسرائيليين ويعرض عليه فكرة إرسال بطاريات صواريخ Patriot لحماية الدولة العبرية.

ارتأى بوش التريث قليلاً وطلب من بيكر الاتصال أولاً برئيس الوزراء الإسرائيلي.

بدا بوش للذين رأوه ذلك المساء وصباح اليوم التالي «ليس قلقاً بل مرتبكاً، راغباً في معرفة كنه هذا الخطأ الذي اندس في المعادلة الظافرة التي خطط لها أمامه».

كان دائماً حذراً من الشعور بالتفاؤل الذي يؤدي ـ في رأيه ـ أولاً إلى الاغتباط ثم إلى . . . العمى.

والحال، ان العسكريين الذين ترددوا في بادىء الأمر من فكرة

الدخول في الحرب، اصبحوا، فيما بعد، في حالة شديدة من السرور.

بالنسبة لبوش ـ وهو الرجل البراغماتي ـ شكل هذا الأمر دليلاً على انحراف في التفكير، لعله من الممكن أنه كان على خطأ حين اعتقد أن الأميركيين قد انتخبوه وسيعيدون انتخابه للعمل الذي كان بمقدوره القيام به. لم يكن يتحمل فكرة أن مثل هذا المشروع يمكن أن يعرقله خطأ في التقدير.

وقد أكد له باول (Powel) أنه لم يعد يوجد عملياً بطاريات Scaud في الخدمة، واكتشف الآن أن ذلك كان خطأ.

استقر بيكر في مكتب سكوكروفت، بينما الرجلان يجريان إتصالاتهما. كل من جهته.

كانت البرقيات تصل حاملة إيضاحات جديدة حول الوضع وردود الفعل في العالم. اتصل سكوكروفت بلورنس ايغلبرغر، مساعد وزير الخارجية الذي يتمتع بعلاقات حسنة مع الحكام الإسرائيليين. وطلب منه الحضور على الفور.

وقف بيكر في زاوية القاعة واتصل بدوره بموشي ارينز وزير الدفاع الإسرائيلي الذي تمركز في غرفة محصنة تحت الأرض في تل أبيب، استعملها مركزاً للقيادة.

بدا في منتهى التشنج والاضطراب وقال:

ـ نأسف بشدة لقلة التنسيق بين بلدينا.

ـ أجابه بيكر: «هذا لن يحدث ثانية، ولكن لا تتدخلوا مهما كلفكم الأمر».

رد ارينز قائلاً:

ـ سيأتي الوقت الذي يجب فيه الرد.

أراد ارينز مناقشة بعض المسائل العسكرية، أما بيكر فقد فضّل عليها مسائل سياسية. وافترق الرجلان ببرودة.

عاود ارينز فوراً الاتصال بالولايات المتحدة مستخدماً الخط المباشر والمرموز الذي يصله بـ «غرفة العمليات» في البنتاغون الواقع في أحد الأروقة، وكان تشيني قد وصل لتوّه.

قال ارينز: يا حضرة الوزير، يجب فوراً إقامة تنسيق عسكري وثيق بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

كان الوزير الإسرائيلي، مثل تشيني، ذا هيئة هادئة صادقة. ولكن بدا هذا المساء متشنجاً ويتلعثم في نطقه أحياناً. قال له نظيره الأميركي أنه علم لتوّه بأن عشرات الطائرات الإسرائيلية أصبحت جاهزة للإقلاع منذ انفجار صواريخ Scaud. أجاب ارينز بشدة:

- إن مهمة هذه الطائرات هي حماية أجواء البلاد ضد هجوم عراقي آخر وليست معدة لعمليات قصف.

بعد هذه العبارات، وبينما ناقش الرجلان تفاصيل التعاون الذي يمكن البدء في تنفيذه قال ارينز:

- يجب أن تمدونا بالرموز الالكترونية.

هذه الرموز التي استعملتها طائرات الحلفاء للتعرف على هوية بعضها بعضاً لم تكن أبداً قد نقلت إلى إسرائيل. وفي مثل هذه الظروف، كان خطراً بالنسبة لإسرائيل أن تقلع طائراتها التي ربما تواجه خطر الإسقاط لأنها قد تعتبر طائرات عراقية.

أجاب تشيني أنه لا يرفض هذا الطلب وأن أحداً لا يستطيع اتخاذ مثل هذا القرار سوى الرئيس بوش.

أصرّ أرينز قائلاً:

ـ اطرح عليه الطلب سريعاً.

عندها اقترح الوزير الأميركي المباشرة بتبادل مستمر للمعلومات الذي يسمح لإسرائيل بمعرفة مناطق الصواريخ التي تصوّب عليها القوات الحليفة في غرب العراق والتأكد من نتائج العملية.

وجد الوزير الإسرائيلي المبادرة جيدة جداً، غير أنه خشي أن يستغرق هدم كل قواعد Scaud وقتاً طويلاً.

ـ إنه نوع من الترف ليس بإمكاننا أن نقدمه لأنفسنا يا حضرة الوزير.

عرض ارينز على محدثه إيقاف عمليات قصف الحلفاء في غرب العراق لمدة حوالي أربع ساعات، وهو الوقت اللازم للقوات الجوية الإسرائيلية للتدخل. ومن أجل نجاح مثل هذه العملية تقدم ارينز بطلب غريب:

كان على واشنطن أن تطلب من السعوديين السماح للإسرائيليين بالتحليق فوق أراضيهم وأن يعينوا ممراً جوياً للطائرات الإسرائيلية المتجهة لقصف غرب العراق.

كان هذا الحل بالنسبة لأرينز أضمن ومرضياً أكثر من التحليق فوق الأردن الذي يعتبر حليفاً لبغداد. وبينما تتابعت المناقشات بين ارينز وتشيني كان بيكر يتكلم مع اسحق شامير الذي وجده معتدلاً، ولم يذكر فرضية الرد ولو لمرة واحدة.

قال بيكر وقد أحدث فيه موقف شامير تأثيراً حسناً. أهنئك على هذا الاعتدال، لقد كلفني الرئيس اعلامك بأنه سيتصل بك.

أجاب شامير بأنه موجود طوال الليل في مكتبه.

كان جميع من في البيت الأبيض يجهلون أن شامير كان في الواقع عرضة لضغوطات شديدة من قبل قسم من الجيش، ومن الأعضاء المتطرفين في حكومته، وكان هؤلاء يميلون إلى رد فوري.

إسرائيل سجينة أميركا

اتصل بوش بشامير في الساعة العاشرة والنصف، الخامسة والنصف في إسرائيل وبدأ حديثه بالقول:

- يا حضرة رئيس الوزراء، سنكثف من عملياتنا في غرب العراق، ليس هناك ما تستطيع أن تفعله قواتكم الجوية ما تعجز عنه طائراتنا، أو إذا كان هناك ما نجهله قل لي ما هو وسنقوم به. إني أقدر كثيراً امتناعك، سنوسع تعاوننا العسكري، ولكن لا تذهب للّعب بين أيدي صدام.

أجاب شامير:

لست مستعداً أن ألعب بالطريقة التي ينتظرها صدام مني...

ثم تنهد طويلاً وأضاف أن الخطر العسكري الذي يهدد إسرائيل هو في منتهى الخطورة، وأن الرد يفرض نفسه، لكن علي قبل ذلك أن أستشير أعضاء حكومتي.

كان لدى بعض الرسميين الأميركيين الذين نقل إليهم بوش محادثته هذه، القناعة بأن شامير «مستسلماً للرد أكثر مما هو مصمم حقاً عليه».

بعد هذه المحادثة بقليل تحرك هذا الرجل القصير الذي يبلغ من العمر ستة وسبعين عاماً، والذي لم يؤثر فيه سهر ليلة كاملة، وترك مكتبه في القدس ليرأس اجتماعاً طارئاً لوزارته المقيمة بصورة استثنائية في وزارة الدفاع في تل أبيب.

كان الوزراء وكبار الضباط الذين تجمعوا هناك على قناعة بأن العراق سيضرب مجدداً، وهذه المرة أكثر دقة وفتكاً. أكد قائد سلاح الجو الميجر جنرال أفيهو بينون أن الطيارين الإسرائيليين يقومون بعمل أفضل من الأميركيين، وأنه من الوهم الاعتقاد أن بطاريات Patriot باستطاعتها حماية إسرائيل.

كان شامير جالساً وسط الطاولة وهو يصغي إلى الآراء والاقتراحات المتبادلة. وكان قد تبلور خلال الاقتراحات إجماع بوجوب الرد وعدم الالتفات إلى التردد الأميركي أو التهديدات التي تأتي من العرب.

حبذّ شامير هذا الخيار على الرغم من أن محادثته مع بوش قد أقنعته بالانتظار ليرى كيف سيقضي الأميركيون على الخطر الذي تمثله صواريخ Scaud. وقدم عرضاً لإعطاء الجيش الضوء الأخضر لإعداد مخطط هجوم تفصيلي على مناطق الصواريخ العراقية.

هذا المشروع قد يقدم خلال يومين بتاريخ ٢٠ كانون الثاني في الاجتماع المقبل لمجلس الوزراء. وتقرر أيضاً أنه سيستفاد من هذه المهلة للحصول على تنسيق عسكري أفضل مع الولايات المتحدة. وفي وقت ما لفت أحد الوزراء، وهو الأشد صلابة في الحكومة، الانتباه «على أن إسرائيل، للمرة الأولى في تاريخها، وكأنها في حكم سجين الإرادة الأميركية».

وعندما نظر إليه زملاؤه بذهول، قال:

ـ أصر على هذا القول، فإذا لم ينقل لنا الأميركيون الرموز التي تسمح بمعرفة الهوية فستكون طائراتنا وليست طائرات العراق هي التي ستسقطها القوات الحليفة.

بدّد شامير لحظة من الصمت الطويل، وقال:

ـ سيعطوننا إياها.

في يوم الجمعة ١٨ كانون الثاني، كان قد اتخذ في واشنطن القرار بعدم إعطاء الرموز للإسرائيليين، فكان باول وتشيني يمارسان ضغطاً شديداً على شوارتزكوف لكي يقضي بأسرع وقت ممكن على مواقع Scaud.

لقد اكتشف الأميركيون لتوّهم أن الطائرات كانت قد قصفت أهداف «خادعة» عديدة، وأنه كان من الممكن أن تكون هناك بطاريات متحركة مخبأة في سفوح الجبل أو تحت الأرض، وتخرج في لحظات فقط لإطلاق الصاروخ وتعود لتختبىء، وهكذا يكون اكتشافها صعباً.

كانت الأقمار التجسسية بمقدورها مبدئياً أن تدل على الموقع الصحيح لكل صاروخ حالما كان يطلق، فتنطلق الطائرات فوراً وتقصف المنطقة. بيد أن العسكريين الأميركيين كانوا يخشون أن تكون الفترة التي انقضت كافية لكي يضع العراقيون تلك البطاريات في مأمن.

وقال شوارتزكوف:

ـ إن أمر اكتشاف قواعد الصورايخ هو ببساطة، كمن يبحث عن إبرة في كومة قش.

كانت الملاحظة قد أغاظت باول، إذ كان يريد الحصول على نتائج فورية ويعطي بذلك دليلاً جديداً على فاعليته.

ـ كانت الحرب فعلاً تتخذ وجهاً غريباً إذ صارت طائرات الحلفاء تقوم بأكثر من الفي طلعة يومياً، بالرغم من أن النتائج التي كانت تصل إلى البنتاغون وضيعة جداً، اذ قدر أن احدى عشرة طائرة أتلفت من أصل السبعمائة طائرة التي كانت تتشكل منها القوات الجوية العراقية.

وقال الأميرال جان ماك كونللي مدير الاستخبارات في الأركان:

ـ «نعتقد أن صدام حسين لا يزال يملك السيطرة الكاملة على قواته المسلحة».

وكان زميله في الأركان الليوتنات جنرال توماس كيلي مديرالعمليات يوجه إلى باول التقرير ذاته على ضوء المعلومات التي كانت تصله من ساحة المعركة:

«من الصعب تقييم حالة الاتصالات العراقية الراهنة، لقد هدمنا منها جزءاً، لكن صدام حسين لديه وسائل أخرى ليبقى على اتصال مع جيوشه».

وكما أخبر أحد معاوني تشيني: «كان علينا أن نجابه أمس الغبطة الفائقة، وعلينا اليوم أن نواجه الشك. وبصراحة، لم نكن نعلم في تلك اللحظة أيّنا كان الأكثر تبريراً».

كان ميخائيل غورباتشوف قد اتصل بجورج بوش في فترة ما بعد الظهر، وكانت لهجة الرئيس الأميركي معتدلة حذرة تقريباً عندما جاء على ذكر العمليات: «إننا نتبع مخططاتنا».

وفي الإجابة على سؤال طرحه الرئيس السوفييتي حول مدة الحرب، قال بوش: «عدة أسابيع على الأقل»... «إن العراق لا يزال يملك طاقة عسكرية قوية».

هل أراد الرئيس الأميركي من وراء ذلك تضليل محاوره أم أنه كان مقتنعاً بأن الأشياء كانت تصعب عما كانت عليه؟ والواقع أنه كان هناك مزيجاً من الأمرين.

بوش يقول لشامير: أطلب منك أن تفكر

كانت مسألة تحييد إسرائيل بالنسبة للرئيس الأميركي تشكل هدفاً له

الأهمية ذاتها التي ترتديها قضية هدم منصّات Scaud .

كان ريتشارد تشيني قد استعرض مع بوش فرضية يعتبرها مسؤولو البنتاغون محتملة أكثر فأكثر. وهي أن الولايات المتحدة والعالم كانوا جميعاً على حافة أزمة كبرى. فلو أطلق العراق على إسرائيل صواريخ Scaud مزودة بشحنات كيماوية، ستكون هناك احتمالات قوية بأن ترد الدولة العبرية مستخدمة اسلحة نووية تكتيكية. وكان بوش من وجهة النظر الجدية لهذا الاحتمال، ومستشاروه يقترحون عليه أن يربح مزيداً من الوقت ليطمئن إسرائيل دون أن يزودها بالرموز.

كان سكوكروفت قد ذكّر بالاخطار التي تهدد الائتلاف بالتفكك في حال تدخل إسرائيلي ضخم قائلاً :

«تتذكر سيدي الرئيس أننا قد جعلنا، ولأول مرة، بلداناً عربية، ومنها من هم أعداء، تتكتل في حلف مع دول استعمارية سابقاً كفرنسا وبريطانيا العظمى. ويشكل هذا قطيعة أساسية مع الماضي، وعلامة تغيّر عميق داخل العالم العربي. وقد تجد إدارتك نفسها، عندما ينتهي الصراع. في موقع أحسن بكثير من التي سبقتها لتحاول الحصول على حلّ لمشاكل المنطقة، منها الاعتراف بإسرائيل» .

بعدما أصغى إلى هذا الرأي اتصل بوش بشامير ثانية فصرح له شامير:

ـ سيدي الرئيس : وزارتي تعتبر أن عملاً عسكرياً يفرض نفسه، غير أنها تقبل بالانتظار ثمانٍ وأربعين ساعة قبل أن توافق على خطة الهجوم. ولم يذكر شامير مرة واحدة المشاكل التي تطرحها تلك الرموز رغم أنها كانت تمنع إقلاع طائراته .

أجابه بوش:

أطلب منك أن تفكر قبل تفعل. سيذهب مساعد وزير الخارجية ايغلبرغر إلى بلدكم بصفته مبعوثاً شخصياً لي. ومن ناحية أخرى أعطيت أوامر لكي ترسل لكم فوراً بطاريات صواريخ Patriot مع الفرق المتخصصة لتشغيلها.

وخلال المحادثة ذكر شامير عنصراً يراه أساسياً:

«إننا لا نعلم بسير العمليات، في الوقت الذي نحن فيه جزء من الجبهة». كان موشي أرينز بالأمس قد أثار النقطة ذاتها مع تشيني طالباً أن تأخذ إسرائيل علماً «كغيرها من الحلفاء» بالقرارات العسكرية التي تؤخذ في القيادة العامة الأميركية في الرياض.

بالنسبة للأميركيين كان هذا الإصرار يشكل إحراجاً إذ كان رفضه يقوي العزم الإسرائيلي للقيام بضربة عسكرية. أما قبوله فكان يعني الدخول في صراع مع السعوديين الذين حسبما قال أحد أعضاء البيت الأبيض «سوف لا يطيقون تركيز خط مباشر بين أورشليم والرياض، حتى ولو كان الأمر متعلقاً بقيادتنا العامة، لإطلاع الإسرائيلين على عملياتنا».

لم يتخذ بوش أي قرار وردّ على شامير بأنه سيفكر بهذا الاقتراح.

دامت المكالمة بين الرجلين عشر دقائق سمع بوش خلالها صفارات الانذار. فطمأنه شامير قائلاً «إنه على الأرجح إنذار خاطىء يا سيدي الرئيس».

وقبل مغادرته إلى كامب ديفد وقّع بوش أمراً يسمح لوزير الدفاع بموجبه دعوة مائة وسبعة وأربعين الف جندي احتياطي وزيادة عددهم حتى المليون إذا اقتضت الظروف ذلك.

كما اتصل بوش بالرئيس المصري مبارك طالباً منه الاتصال بالزعيم السوري حافظ الأسد مؤكداً على وجوب عدم انسحاب سوريا من الائتلاف مهما كلف الأمر. في حال أقدمت إسرائيل على الرد.

بطاريات باتريوت لمساعدة إسرائيل

كانت الحرب منذ ذلك الحين قد دخلت البيت الأبيض مباشرة حيث بقيت الاتصالات بشبكة CNN في المكتب المتاخم للمكتب البيضاوي، وكان كبار معاوني الرئيس الأميركي يعملون باستمرار أمام شاشات التلفزيون. كما أن بوش لم يعد يتنقل إلا ورافقه جهاز استقبال منقول يحمله أحد مرافقيه، وكان قد تابع كما فعل الملايين من مشاهدي التلفزيون، أول اجتماع للتعليمات يقوم به الجنرال شوارتزكوف، ويعاد بثه من العربية السعودية.

وبغية توضيح فاعلية القصف كانت قد أذيعت أشرطة فيديو، حيث كانت الصور المنقولة من الطائرات المشاركة في الهجوم تبين قنابل موجهة بواسطة الليزر Laser تضرب مقر القيادة العراقية ومناطق صواريخ Scaud، وأهدافاً أخرى. كان بوش منبهراً وهو ينظر إلى شاشة التلفزيون ويردد:

ـ يا يسوع! انظر إلى هذا، يا يسوع! انظروا وإصبعه يشير على الشاشة بينما كانت القنابل تدمّر الأهداف المتباعدة بعضها عن بعض كيلومترات عديدة.

عند الساعة السابعة عشرة وصل الرئيس ترافقه زوجته إلى الباحة الجنوبية حيث كانت المروحية في انتظاره، أما أعضاء الدوائر السرية الذين يرافقونه فكانوا يحملون أقنعة واقية من الغاز.

بعد أن عرّج لفترة على البنتاغون للقاء قصير مع تشيني وباول عاد الرئيس وأقلع ثانية باتجاه كامب دايفيد تتبعه مروحية أخرى مطلية هي أيضاً باللونين الأخضر والأبيض والتي كانت تنقل أعضاء المواكبة الرئاسية، وكانت مروحيتان اخريان تحومان حول منطقة التحليق.

في تلك الأثناء، كانت طائرات شحن عملاقة C5 Galaxie، رابضة في قاعدة عسكرية بألمانيا تشحن حمولتها بسرية تامة. كانت نصف مقطورات ضخمةتغوص في بطن الطائرات ناقلة معدات كبيرة مغطاة بإتقان: ست بطاريات صورايخ Patriot ضد الصواريخ ورادارات تتيح اكتشاف الـ Scaud، ووجهتها إسرائيل.

كما كان هناك طائرة أخرى جاهزة للإقلاع ناقلة أجهزة ضرورية لتركيز الـPatriot واستعماله.

وقد بدا أنه كان هناك رسميون أميركيون عديدون مستاؤون جداً من المسؤولين الإسرائيلين، بسبب أن حكومة إسرائيل رفضت في السابق كل مساعدة تقنية عندما تسلمت بطاريتي Patriot في كانون الأول، مفضلة استخدام عمال الكترونيين إسرائيليين، وعند تلقي أول هجوم لم يكن قد أتمو تدريبهم.

استمرت إسرائيل تطلب بطاريات بأعداد كافية ليس فقط للدفاع عن مدن البلاد الرئيسية بل أيضاً عن «المنشآت الحيوية».

وقد استشار البنتاغون، خبراء الشركة التي تضع «الباتريوت» وكان حكم أخصائييهم أنه يجب نشر ست بطاريات على الأقل لتأمين حماية فاعلة للسكان المدنيين والمناطق الاستراتيجية، وكانوا يلفتون الانتباه إلى أن بطاريات Patriot قد صممت لإصابة طائرات العدو وأن تعديلها

لتصبح سلاحاً ضد الصورايخ هو تعديل حديث، ولا تضمن فاعلية مئة بالمئة.

وقبل منتصف الليل في يوم الجمعة، تلقى شوارتزكوف في «جحره الأسود» وهو مقر قيادته في الرياض، حصيلة عمليات القصف الضخمة التي تمت خلال النهار وعند المساء على غرب العراق.

عشر بطاريات متحركة من صورايخ Scaud كانت قد دمرت، وتلك نتيجة غير مرضية ومذّلة اضطر شوارتزكوف وهو يشعر بالسأم أن ينقلها إلى باول.

انتهى الخبر إلى بوش باتصال هاتفي من سكوكروفت، وأصغى الرئيس إلى الأرقام دون أي تعليق، بسبب غيظه المتزايد.

كان بوش وبيكر، حسب المقربين إليهما، يلتقيان حول نقاط مشتركة، كثيرة لا سيما واحدة منها وهي «كراهية الإخفاق».

وعندما عاود سكوكروفت الإتصال به ليعلمه أن صواريخ Scaud قد أطلقت مجدداً على إسرائيل وأنه «بأعجوبة لم يقع من جرائها إلا ستة عشر جريحاً».

قاطعه بوش قائلاً:

ـ قل لكولن ونورم أن يدخلا أكبر عدد ممكن من الطائرات، هذه قضية لم يعد بالإمكان أن تطول.

كانت مخابرات الرئيس ذلك المساء مقتضبة وجافة ككل مرة يكون فيها متشنجاً.

وقال أحد معاوني بوش: «ما كان ليظهر غضبه أبداً، بل كان يبدي مدى رضاه فقط، ولكن بطريقة قارصة».

بعد ثلاثة انذارات كاذبة كانت ثلاثة صورايخ Scaud قد انفجرت على تل أبيب وضواحيها في الساعة السابعة والنصف صباحاً بتوقيت إسرائيل.

اتصل بوش بشامير بعد الانفجار بأقل من ساعة قائلاً:

ـ «أنا أدرك قلق شعبك وحكومتك، غير أننا سنستخدم كل وسيلة ممكنة لتدمير تلك البطاريات المتحركة».

أجابه شامير أنه قدم موعد اجتماع الوزارة الإسرائيلية الذي كان مقرراً عقده نهار الأحد، وسينعقد في الساعة العاشرة اليوم، بتوقيت إسرائيل.

سأله بوش:

ـ هل ستناقشون مخططات الهجوم التي أعدتها أركانكم؟

ـ بالضبط.

أجاب بوش:

ـ يحق لحكومتكم أن تتخذ قراراتها الخاصة وأن ترد، ولكن لا تنسى انكم لو اخترتم عدم الرد، يمكنكم أن تعتمدوا على حليف ذي وزن: الرأي العام عندكم.

كان بوش يشير من خلال ذلك إلى استقصاءات الرأي العام التي أظهرت أن الأكثرية الإسرائيلية كانت تعارض الرد.

دامت المحادثة خمس عشرة دقيقة وكانت تلك أطول محادثة هاتفية بين الرجلين، ذكر بوش خلالها الطائرات التي تنقل بطاريات Patriot والتي كانت على وشك الهبوط في تل أبيب، ووعد شامير أن الإسرائيليين

سيُعلمون بالعمليات التي يهيأ لها في مقر القيادة العامة في الرياض، أي دون معرفة السعوديين بذلك.

كان رئيس الحكومة الإسرائيلية يبدو كما لو هزّه عزم الرئيس الأميركي وتصميمه، فوعد أن يتصل به ثانية عقب انتهاء اجتماع مجلس الوزراء.

اتصل بوش بعد ذلك بسكوكروفت وطلب منه أن يدعو كبار معاونيه للإجتماع في كامب ديفد. وكان هو يتحدث مع رئيس مجلس الأمن القومي يراقب الصور الواردة من إسرائيل على شاشة التلفزيون والتي تكشف ضخامة الخراب الذي أحدثته صواريخ Scaud.

في الوقت نفسه، أصدر كولن باول، بالاتفاق مع تشيني، الأوامر إلى شوارتزكوف بتخصيص مئتي طائرة كي تقصف العراق بلا انقطاع وتقضي على قواعد صورايخ Scaud نهائياً.

كان شوارتزكوف برفقة الجنرال شايز هورنر قائد العمليات الجوية، يصغي إلى الأمر، فأذهل الاثنين عدد الطائرات الذي طلبه باول.

قال شوارتزكوف:

ـ هذا كثير! فإذا خصصنا مئتي طائرة للقيام بالغارات الأخرى، سنتأخر في تنفيذ المخطط المحدد.

سأله باول:

ـ كم تقدر مدة التأخير؟

تداول شوارتزكوف مع هورنر قبل أن يجيب، وقال:

ـ أسبوعاً على الأقل، وسيكون من الصعب بدء الهجوم البري في التواريخ المحددة.

بدا رئيس الأركان بالنسبة لمن حوله أثناء تلك المكالمة كأنه يعمل ونصل السيف في خاصرته. كان متشنجاً يتحرك في جو «مكهرب».

شامير المحب للحرب لن يحارب!

بينما كانت طائرات C5 Galaxie التي تنقل بطاريات صورايخ Patriot تقلع متجهة إلى تل أبيب، كان جنرال برتبة فريق أول وهو اختصاصي في الإستعلامات وفي المسائل الإستراتيجية يتلقى ليلاً اتصالاً هاتفياً من كولن باول، يدعوه للحضور فوراً إلى مكتبه، وسمع باول يقول:

ـ إحمل معك حقيبة لأنك لن تعود في وقت قريب.

علم الضابط فور وصوله إلى الأركان أن الطائرة كانت جاهزة للإقلاع لتنقله إلى إسرائيل، وستكون مهمته تأمين التنسيق بين الأركان الإسرائيلية ومقر قيادة الحلفاء العامة في الرياض، حسبما وعد بوش من ان إسرائيل ستتلقى تفاصيل العمليات القائمة ضد العراق يومياً.

وقد تقرر نقل المعلومات من العربية السعودية إلى الولايات المتحدة ومنها إلى إسرائيل عبر مركز الـ C.I.A الموجود لدى السفارة الأميركية في تل أبيب، تلافياً لأي تشكيك من قبل السعوديين.

بدأ اجتماع الوزارة الإسرائيلية بعد العاشرة بقليل ودام أكثر من ساعتين ونصف، بقي شامير صامتاً خلال القسم الأكبر من المناقشات مما أحدث مفاجأة عامة. لكن في الظروف المأسوية الخاصة التي تمر بها البلاد اعتقد البعض أنه قد يترك العنان لنفسه ويقول كلمات وجدانية مأساوية كتلك التي كان يستعملها مناحيم بيغن، لكن شامير يختلف عن بيغن.

وقلة من الناس في الواقع تعرف من هو هذا الرجل الصغير الحجم المبتسم، الذي يسهل رسمه كاريكاتورياً. عرف بشدة عناده بينما كان بإمكانه إظهار براغماتية، هو الذي يتمتع بحس سياسي رهيب.

في بادىء الأمر أصغى بانتباه إلى أرييل شارون، وزير الدفاع السابق الذي طلب الكلام. إنه ضخم الجثة حازم الرأي، هذا هو شارون الذي طالب بعمل عسكري فوري، إذ اعتبر كالعديد من أعضاء الوزارة الآخرين أنه ليس على إسرائيل الاهتمام بالتحفظات الأميركية وبالتهديدات العربية، وقال: «لقد عشنا دائماً في مثل هذه التهديدات والتحفظات».

عكس شارون في الحقيقة شعوراً هو في جزء كبير منه شعور الأكثرية من الإسرائيليين، والذي يمكن تلخيصه بالعبارات التالية: يجب أن لا نتكل إلا على أنفسنا وأن لا نقبل بأن تملى علينا سياستنا».

تكلم بعده رئيس الأركان دان شومرون فأوضح تفاصيل العمليات التي يجب ممارستها ضد العراق.

وقد عرضت خلال الإجتماع خرائط عديدة ليراها كل أعضاء الحكومة، كان الهجوم المعدّ والمهيأ طموحاً للغاية. يقرن فيه الهجوم الجوي بمعركة برية.

لاحظ السيناريو الإسرائيلي الذي وضعه شومرون بإتقان عمليات قصف ضخمة يقوم بها الطيران وتدخّل عدة مئات من الرجال من الفرق المختارة لتعمل كقوة كوماندوس ضد قواعد H3, H2 - Scaud الواقعة غرب العراق.

كانت الأركان الإسرائيلية تملك كل المعلومات التي تحتاجها: أماكن

وجود تلك البطاريات والحماية حولها ومواصفاتها، ومن المفروض أن تمتد العملية عدة أيام بمساندة عدد كبير من مروحيات القتال. ولحظ المسؤولون العسكريون تمركز قاعدة مؤقتة في الصحراء العراقية لتأمين مساندة القوات البرية وعمليات تموين المروحيات. وقد اتخذ قرار في حال التحليق في أجواء الأردن بوجوب تحطيم بطاريات «الهاوكس» والتي حصل عليها الأردن من الولايات المتحدة.

ساند موشي أرينز وزير الدفاع المشروع بحماس، بينما بدا وزيرالخارجية ديفيد ليفي أكثر تحفظاً. تدخل إذاك أحد الوزراء قائلاً: «ولكن إذا لم يكن لدينا رموز معرفة الهوية سيكون من المستحيل أن نعمل».

اعتبر العديد من المشاركين أنهم أمام مشكلة حقيقية وأنه من الواجب التفاوض مع واشنطن لتجميد غارات الحلفاء وقتاً كافياً يتيح «لِتْساحال» تسديد ضربتها.

لكن الأشد تطرفاً في الحكومة اعتبروا أن الأميركيين قد نصبوا «فخاً» من خلال عملية الرموز هذه وتركوا إسرائيل تقع فيه.

عرض بعض الوزراء فكرة ضرب العراق باستعمال صورايخ Jéricho لتجنب إسقاط الطائرات الإسرائيلية. هذا النوع من الصواريخ التي صنعت في الدولة العبرية لم يكن قد استخدم أبداً من قبل، وكان أحد القادة العسكريين الموجودين في الاجتماع من المترددين في هذا المجال. فقال:

ـ هذه الصواريخ هي سلاح ردع عظيم لا أحد في الخارج يعرف مدى فعاليتها، فإذا استعملناها ضد العراق سنكشف كل شيء.

وبعد انقضاء ساعتين وخمس عشرة دقيقة كانت الوزارة الإسرائيلية منقسمة حول مبدأ التدخل وعلى وسائل تنفيذه، عندها اضطر شامير إلى التكلم بعد أن جال ببصره على الجميع:

ـ اعتقد أن على إسرائيل البقاء خارج الحرب.

تكلم مدة عشرين دقيقة ولم تكن معالجته بليغة، ورغم ذلك لم يقاطعه أحد. كان كلامه عرضاً ذا صبغة براغماتية، فذكر الجهود التي بذلها الأميركيون والمنافع السياسية والدبلوماسية التي جنتها إسرائيل. وقال:

ـ «كنا مستعدين أن نضع في حسابنا مصالح الولايات المتحدة».

وفي ختام تحليله انضم الجميع إليه لدرجة أنه لم يكن ضرورياً أن يحال للتصويت عليه، حسب اعتراف أحد الوزراء.

أعاد شامير تأكيد ثقته بالقدرات العسكرية الأميركية على تهديم"SCAUD لكنه أصر على كسب التعاطف الهائل الذي قد تستفيد منه إسرائيل في حال عدم التدخل.

لم يذكر هذا العامل بالذات، لكن ذلك كان على الأرجح في ذهن كل وزير.

لقد سمع ملايين مشاهدي التلفاز الأميركي صفارات الإنذار تدوي في سماء تل أبيب، ورأوا الإسرائيليين يرتدون الأقنعة الواقية من الغاز ويحكمون إقفال القاعات حيث كانوا يلجأون بانتظار انفجار الصواريخ.

وكما قال أحد الأخصائيين في العلاقات الإسرائيلية الأميركية: «بعد

أن عايشوا كل ذلك شعر الكثير من الأميركيين بتفهم أكبر، الهمّ الأمني الذي تعانيه إسرائيل» . زد على ذلك رفض إسرائيل للرد، كل ذلك كان من شأنه أن تنعم إسرائيل بتأييد وانحياز لمصلحتها لدى الرأي العام الأميركي لم يسبق لها مثيل منذ نهاية الستينات .

الفصل الرابع عشر

خمس وخمسون مليار دولار دون زيادة الضرائب

لمس جورج بوش خيار الحكومة الإسرائيلية على أنه انفراج أكثر منه نصر. فعندما وصل كبار معاونيه إلى كامب دايفيد يوم السبت في التاسع عشر من الشهر وجدوه أكثر ارتياحاً وفي حالة هدوء تام. انتظرهم في قاعة استقبال فسيحة تستعمل عادة قاعة للاجتماعات، أثاثها عملي، والقاعة مضاءة بثريا شديدة البشاعة مؤلفة من عدة مساليط إضاءة. كان بوش يحمل في يده عدة ملفات، وبينما كان يتكلم أصغى الجميع إليه بانتباه دون أن يأتوا بحركة وهم ملتفون حوله. كان كولن باول يقف إلى يسار بوش مرتدياً قميصاً أزرق مفتوح القبة وكنزة من اللباس العسكري، زرقاء اللون، شُكل عليه (بادج) بدبوس كتب عليه اسمه.

وقف إلى جانبه جيمس بيكر مرتدياً سترة وقميصاً كلاهما داكن اللون. أصغى تشيني ويداه مشبوكتان وراء ظهره وكان يلبس سترة رمادية اللون وقميصاً من الكتان، بينما ارتدى دان كوايل نائب الرئيس الفتيّ، وهو شخصية مشكوك بكفاءتها، كنزة مقلوبة القبة رمادية اللون، أما سكوكروفت فكان يداعب بشكل آلي هيكل نظارته مصغياً لكلمات الرئيس مرتدياً سترة من قماش التويد وبنطلوناً داكن اللون وقميصاً باهت اللون مفتوح القبة، تظهر من تحته «تيشرت» أبيض.

لم يطل جورج بوش الشرح حول الضغوطات مع إسرائيل ونهايتها السعيدة. فلم يركز، وهو مطلق البراغماتية، إلا على الملفات التي لم تزل مغلقة، وأتاح لهم الفرصة فقط ليدركوا تقديره لإسحاق شامير الذي لم يكن قد أبداه أبداً حتى الآن، ثم أضاف: «لقد سمحت هذه الأيام

العصبية بتنمية التفاهم بين إسرائيل والولايات المتحدة».

ثم استوضح عن التدابير التي اتخذت، فأعلمه باول أن بطاريات صواريخ Patriot التي شحنت إلى إسرائيل قد ركزت واصبحت جاهزة للاستعمال. وأوضح أيضاً أن الأوامر قد أعطيت إلى حاملة الطائرات (فورستال) التي نقلت خمساً وسبعين طائرة. بالاتجاه نحو الخليج. وقد تكون السفينة الحربية الرابعة من هذا النوع الراسية في منطقة الحرب، وهكذا يصبح للولايات المتحدة أكثر من نصف مجموع جيشها النظامي البري والبحري والجوي محتشداً حول العراق والكويت.

ووفق ما قاله باول، فإن أربع مراكز بحوث نووية عراقية قد دمرت وأصيب مئتان وخمسون هدفاً منذ اندلاع الحرب. أما الخسائر الأميركية فبقيت متدنية بشكل ملحوظ.

فقد أسقطت ثماني طائرات خلال ألفي طلعة منها أربع طائرات تورنادو بريطانية.

وأضاف باول: «نحن في انسجام مع الزمن» فلم تسيطر المشاكل العسكرية على فترة الاجتماع كلها، وهذا أمر غريب، إذ ذكر بوش اللقاء في الغد بحضور وزير المال وحكام المصارف المركزية في الولايات المتحدة واليابان والمانيا وبريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا وكندا، وقد خشي أن تغرق الضغوطات السائدة في الشرق الأوسط الأسواق المالية في الاضطراب، وتمنى أن تحصر الجهود المتضافرة بشكل ضخ مليارات الدولارات الآتية من المصارف، من أجل تثبيت الدولار، إذا اقتضت الضرورة، في وجه العملات الأخرى. وقال:

ـ «لقد سبق وأعطيت التعليمات إلى برادي (وزير المالية

الأميركي)، وأخبرهم أنه لم يكن ميالاً إلى المسائل الداخلية لكنه خشي أن لا تتعمق مخاطر الانحسار وقد أصبحت ملموسة في الولايات المتحدة.

هناك نقطة أخرى شغلت الرئيس الأميركي، وهي أنه كان يريد الحصول على مجهود مالي متزايد لحرب الخليج من اليابان وألمانيا. فقد قبلت طوكيو دفع ٤,٠٢ مليار دولار وبون٤٣ ,٣ مليار دولار، لكن الأخصائيين في وزارة المال وفي البيت الأبيض اعتبروا هذه المبالغ زهيدة. إذ أن كلفة الحرب تبدو بوضوح اكثر ارتفاعاً من التقديرات التي أعطيت حتى الآن.

شَغَّل جون سونونو الذي قننته وصقلته المعلوماتية، الناظمات الآلية في البيت الأبيض على برامج عدة. فالأكثر واقعية من بينها قدرت أن تسعين يوماً من الحرب تكلف أكثر من ٥٥ مليار دولار.

وقال أمين عام البيت الأبيض: النقطة الأساسية هي التالية:

«ستكون كلفة الحرب المالية بالنسبة للولايات المتحدة وللمكلفين الأميركيين سهلة المراقبة مع مساهمة حلفائنا المادية».

وافق بوش كلية على التحليل حسب ما قال أحد مستشاريه، إذ وعد أثناء حملته الرئاسية بعدم زيادة الضرائب، وكان يرجع إلى هذا الوعد. لم يكن بوش يريد حرباً باهظة الثمن بالنسبة للأمة الأميركية، واعتبر أن المبالغ التي منحتها كل من اليابان والمانيا زهيدة بالنسبة لثرواتها، فضلاً عن أن هذين البلدين لم يساهما في المجهود الحربي وهما لا يزالان معلقين في قسط وافرمن بترول الخليج.

كان نهار الأحد ٢٠ كانون الثاني هادئاً بالنسبة لجورج بوش، استقبل خلاله المتحدث باسم غرفة الممثلين توماس فولاي وزوجته.

كان فولاي، وهو البرلماني الديمقراطي، يعرف الرئيس منذ سنين طويلة، ولم يطيلا الحديث عن الوضع السياسي بل راجعا ذكريات مشتركة. لم يشر جورج بوش ولو لمرة واحدة إلى ما تميز به ذلك اليوم، وهو عيد دخوله الثاني في مهمته، ولم تكن مقدار شعبيته يوماً بهذا الحد من الارتفاع.

الواجب. . . الوطن. . . وَ. . . كره الصحافة

وصل مارلين فيتزواتر حوالي الظهيرة إلى مكتبه يوم الاثنين في ٢١، وكان عشرون صحفياً حانقين ينتظرون المتحدث باسم البيت الأبيض. وبينما همَّ ليفتح الباب أجاب على اللوم قائلاً:

«آسف يا شباب، إني أفعل ما في وسعي».

كان البيت الأبيض قد بقي صامتاً مدة ٢٤ ساعة لم يعط فيها أية معلومات، وقد اصطدم المراسلون المعتمدون بمكاتب مقفلة، لكن أحداً لم يكن يعلم أن فيتزواتر ينفذ بذلك تعليمات بوش.

كان الرئيس يقدر استقامة وكتمان هذا الرجل الغامض البالغ من العمر ٤٨ سنة والآتي من مدينة صغيرة من كنساس حيث كان يعمل كصحفي في جريدة محلية. غالباً كان يرتدي قبعة ليخفي صلعته ويحاول عبثاً التخفيف من وزنه.

وكان يقول بظرف ذاكراً عمله بالرئاسة: «إني هنا لأني أريد معانقة أكبر عدد ممكن من الأميرات قبل أن أعود ثانية لأصبح ضفدعاً».

في الواقع كان كفؤاً والصحفيون يجمعون على تقديره إلا اليوم إذ تزاحم الجميع حوله بحثاً عن المعلومات. فصاحت صحفية: «لم تذهب

الحرب إلى عطلة في نهاية هذا الأسبوع».

رفع فيتزواتر يده طالباً الهدوء.

أصغوا وافهموا. أنا وحدي وانظروا كم عددكم. ليس بإمكاني أن أكرس كل لحظة لأظهر على التلفاز.

أجاب فرانك سيسنو مراسل CNN ذاكراً شبكته:

ـ عندي يا مارلين منتج لا يشبع يجب أغذيه باستمرار.

كان هذا الضغط يعبر عن حرمان الإعلاميين المتزايد، الذين يعاملون بدقة وصلابة. واغتاظ الموفدون الخاصون في العربية السعودية من طول اجتماعات التعليمات العسكرية والغياب شبه الكامل للمعلومات حتى أن بعض الضباط أظهروا عداءً صريحاً تجاه الصحفيين لدرجة أن أحد الموفدين الخاصين، وهو عريق في المهنة منذ حرب فيتنام أخبر: «كأنهم في الحقيقة قد أقسموا على ما يلي: «واجب وطني... وكره الصحافة».

هكذا بقيت أكبر عملية جوية عبر الزمن بالنسبة للاعلاميين واقعاً معتماً... ومن غرابة الأمور أن المعلومات التي من الممكن الحصول عليها تصب جميعها في مصلحة إدارة بوش. وقد أعطي وصول لورنس أيغلبرغر إلى إسرائيل الأحد ٢٠ كانون الثاني، وهو أمين عام الدولة المساعد، مجالاً لتغطية إعلامية واسعة. فكان من الممكن أخذ فيلم عن أيغلبرغر وتصويره برفقة كل الرسميين الإسرائيلين، إشارة إلى التعاون الذي أعيد وصله وإلى تبدد سوء التفاهم.

وقد أذيع أيضاً وللمرة الثانية عملية تفريغ بطاريات صواريخ Patriot.

زد على ذلك أن بغداد قد أعلمت أن قرابة عشرين أسير حرب من الحلفاء سيوضعون في مناطق استراتيجية كدروع بشرية، بينما بث التلفاز العراقي صور طيارين متورمي الوجوه يتفوهون باعترافات من الواضح أنها مغتصبة.

وقد أخذت تلك المبادرة ردود فعل غاضبة في العديد من دول الائتلاف. وكان صدام حسين الخاضع لضغوط عسكرية هائلة يجد نفسه أيضاً في وضع صعب أمام الحرب النفسية القائمة.

سنعزلهم في بادىء الأمر ثم نقتلهم

بعد أسبوع من العمليات العسكرية الجوية قذفت القوات الحليفة من القنابل ضعف ما فعلته ضد المانيا خلال مجمل عام ١٩٤٤.

في ٢٢ كانون الثاني قتل صاروخ Scaud اطلق على تل أبيب ثلاثة أشخاص ولكن وفاء للعهد الذي اتفق عليه لم يفكر الإسرائيليون في الرد.

في ٢٣ كانون الثاني عقد باول في البنتاغون مؤتمراً صحفياً استغرق وقتاً طويلاً، حدد خلاله استراتيجية الجيوش الحليفة للأسابيع المقبلة معلناً أنها تهدف إلى قطع الجيش العراقي المتمركز في الكويت عن خطوطه التموينية: «إن استراتيجيتنا بسيطة جداً، سنعزلهم في بادىء الأمر ثم نقتلهم». كان باول يعتبر نفسه راضياً عن الطريقة التي تسير فيها الحملة، وأضاف «لسنا على عجلة من أمرنا. لا نرغب في أن نكبد خسائر كبيرة».

كانت كلمات رئيس الأركان مزيجاً حذقاً من الدقة والتمويه، فذكر «خمسماية ألف جندي عراقي» المتمركزين في الكويت بينما كان يعرف تماماً

تماماً أن الأرقام أقل بكثير من هذا التقدير.

وأضاف «إننا نجابه عدواً كثير الوسائل، عدو يعرف كيف يتصرف في مواجهة المشاكل». بالنسبة له كان قسم كبير من الجيوش العراقية والطائرات في مأمن، موضوعاً في مواقع محصنة تحت الأرض، وكانت خطوط الاتصال بين صدام وقادته على الجبهة لا تزال تعمل. وليعطي مثلاً عن الدهاء العراقي قال: إن مدارج العديد من المطارات كانت قد موّهت لكي يعتقد أنها أصيبت وتعطلت آملين أن لا تقصفها القوات الحليفة.

أما الحقبة الثانية من الهجوم فلحظت تدخلاً متزايداً للطائرات الشهيرة B52. وقد أقلعت هذه القاذفات العملاقة من جزيرة دياغوغرسيا الواقعة في وسط المحيط الهندي، وبعد طيرانه مسافة عدة آلاف من الكيلومترات نشرت سجادة حقيقية من القنابل على أهداف العدو. أما قوة هذا القصف فكانت مرعبة. فنقَلت كل طائرة B52 ثلاثين طناً من القنابل وكل موجة كانت تعمل وفقاً لتكتيك أُحكم منذ حرب فيتنام ويحمل اسم الرمز Arc Light (قوس الضوء). دفعت الطواقم الطائرة على علو ٣٥٠٠٠ قدم قنابلها بتزامن تام محدثة تأثير انفجار على أرض مساوٍ لانفجار نووي ينقصه الغبار الإشعاعي.

لم يعد الأمر هذه المرة مسألة أسلحة «ذكية ودقيقة» تصل إلى الهدف في اكثرية الحالات، فإن قصف الـ B52 كان في نسبية الدقة، ولكن كما قال أحد أعضاء الأركان: «ليس وارداً هذه المرة إذاعة أشرطة فيديو تظهر الأهداف وآثار القصف. هذا النوع من القصف يستهدف البشر لا الأبنية».

كانت إحدى التقديرات التي أجريت في البنتاغون تقدر بأكثر من مئة ألف عدد الجنود العراقيين الذين كان من الممكن أن يجرحوا أو يقتلوا خلال هذه الغارات.

في الوقت ذاته، كانت نتائج الأسلحة الأحدث إتقاناً، تشهد تدفق المشترين الكثر على أبواب الشركات التي صنعتها؛ وسجلت هذا الشغف، الشركة المنتجة «للباتريوت». وخلال السنوات الست الماضية، كان المصنع Rocyt Heon قد باع بأكثر من سبعة مليارات دولار من هذا الصاروخ. وبعد مرور بضعة أيام على بدء الحرب، تقدم السعوديون بطلب جديد لشراء ما قيمته ١,١ مليار دولار من هذا النوع من السلاح. كذلك فإن ايطاليا وتركيا وبريطانيا العظمى كانوا في عداد المشترين، مما حدا بمدير إحدى شركات السلاح هذه إلى القول: «كان الخليج يسجل فوز حرب النجوم».

عندما عاد أيغلبرغر من إسرائيل قدم لبيكر تقريراً مفصلاً عن محادثاته مع المسؤولين الإسرائيليين الذين قابلوا عرض المساعدة الأميركية بتحفظ، «ذلك لأنهم ـ كما جاء في التقرير ـ ما زالوا يعيشون ذكرى المحرقة وأنهم خلال ألفي سنة اضطروا بأن لا يتكلموا إلا لما فيه مصلحتهم ليبقوا على قيد الحياة».

لم تكن النتائج العسكرية لرمايات السكود هي التي أقلقت شامير، بل أشد ما أقلقه هو الأثر السلبي الذي قد تحدثه تلك الرمايات على هجرة اليهود السوفييات.

وقد أطلقت في وقت ما صفارات الإنذار خلال المناقشات، فاضطر أيغلبرغر أن يلبس القناع الواقي من الغاز، فقال في تقريره لبيكر: «نظرت

إلى المرآة فوجدتني أشبه برجل من المريخ»:

إرهاب بيئوي

في ٢٤ كانون الثاني، أعلنت طوكيو أنها ستزيد مساهمتها المالية لمجهود الحرب من أربعة مليارات إلى ثلاثة عشر مليار دولار، في وقت رفعت فيه المانيا مساهمتها من ثلاثة مليارات إلى ٢, ١٠ مليار دولار.

وكان وزير المال الأميركي نيقولا برادي قد أجرى محادثات منفردة قبل ذلك بأيام مع نظيريه الألماني والياباني.

وفي نهاية المحادثات، وجّه أحد الصحفيين سؤالاً إلى الوزير الياباني الذي بدت على وجهه علامات الإرتباك، عما إذا كانت مساهمة بلاده سترفع إلى عشرة مليارات دولار، أجاب منتفضاً وبصوت خافت: «آمل ألا نضطر للوصول إلى هذا الحد».

وفي ٢٣ كانون الثاني إطلع بوش على التقارير الأولى التي كشفت أن ملايين براميل البترول قد أفرغت في مياه الخليج العربي الفارسي، وربما أن العراقيين هم الذين فعلوا ذلك، فاتخذ جانب الحذر في البداية، وطلب تزويده بايضاحات أوفر.

وفي الساعة الثامنة من صباح يوم ٢٥ كانون الثاني، وخلال اجتماع التعليمات اليومي مع مسؤول من السي. آي. إي.، إستلم بوش براهين ثابتة في نظره عن عزم العراقيين في خلق «كارثة بيئوية»؛ فامتقع لون وجهه، وقال لحاشيته: «إن هذا الانسان لا يقتل البشر فقط، بل يمد الحرب لتشمل المجموعة الدولية». والتفت إلى مارلين فيتزووتر قائلاً: «أنقل إلى الصحافة بأن هذا العمل هو حقاً «إرهاب بيئوي»، ثم اتصل هاتفياً بالملك فهد ليخبره بأن هذا التصرف يعتبر «تصعيداً للصراع».

بدا بوش مذهولاً، إذ أحدث فيه خبر التلوث هذا صدمة قوية لدرجة أنه اتصل بعد ذلك بحكام آخرين كثيرين في التكتل وبينهم جون مايجور وميتران ليبلغهم استنكاره ويطلعهم على البراهين التي هي بحوزته. وبالرغم من ذلك، لم يفكر بوش برد عسكري ليوقف هذا المد الأسود، لأنه في نظره من صلاحيات العسكريين.

كان هذا السيناريو قد ذكر قبل شهرين وأبعده نورمان شوارزكوف معتبراً إياه بعيد الإحتمال. وبينما كان يحضر تفاصيل الهجوم، تسلم القائد الأعلى للقوات الحليفة في العربية السعودية تقريراً سرياً للغاية وجهته له إدارات الإستخبارات في البحرية ومفاده أن العراقيين ـ كما جاء في هذا الصدد ـ بإمكانهم تفريغ حوالي ٢٥ مليون برميلاً من البترول ـ وقد اقترح للتصدي لهذا العمل بعملية كومندوس لتحييد المنشآت النفطية ـ وأن فرقاً من Seal «بحر ـ جو ـ أرض» أي جنوداً ينتمون إلى قوات المارينز الخاصة قد يتسللون داخل الأراضي الكويتية بمحاذاة الأهداف قبل يوم أو يومين من اندلاع المعارك. لقد رفض شوارتزكوف هذا الخيار لأنه كان يخشى ارتفاع الخسائر ولا يحبذ عمليات الكومندوس التي تبدو حسب رأيه كالوجه المبتذل للحرب. ومرة أخرى، كان الردّ جوياً، حيث قصف الطيران الأميركي المنشآت النفطية الكويتية في ٢٦ و٢٧ من شهر كانون الثاني.

الفصل الخامس عشر

البلطيقيون مقابل العراقيين

انتُظرت أول زيارة رسمية لبسمرتنيخ وزير الخارجية السوفييتي الجديد إلى واشنطن بمزيج من الفضولية والقلق.

وخَشيت وزارة الخارجية الأميركية ومجلس الأمن القومي في البيت الأبيض أن يؤدي ذهاب شيفاردنادزه والتأثير المتزايد للعسكريين الموالين لبغداد إلى التصلب في المواقف السوفييتية. وفي الحال، كان بسمرتنيخ قد لفت انتباه الأميركيين، إذ صرَّح قبل مغادرته موسكو بقليل أن الولايات المتحدة «حاولت هدم العراق» وعندما وصل إلى واشنطن، أشار إلى أن استعمال القوة الذي صوَّتت عليه الأمم المتحدة كان يعني فقط تحرير الكويت.

قال هذه الكلمات الأخيرة في رواق وزارة الخارجية حيث وقف جيمس بيكر إلى جانبه مصغياً دون أن يثير أي ردة فعل. أما بالنسبة للدائرة الضيقة لمستشاري أمين سر الدولة، فكانت كلمات بسمرتنيخ تشكل بداية هجوم دبلوماسي حاذق تشنه موسكو: «لا تخلقوا لنا صعوبات في الجمهوريات البلطيقية وإلا باستطاعتنا أن نسبب لكم مشاكل في الخليج».

كان لدى بسمرتنيخ أيضاً، في نظر الأخصائيين الأميركيين طابع خاص، حيث الوزير الجديد يقوم بالزيارة الرسمية الأولى محاولاً محو ذكر سلفه.

وقد استخلص بيكر من ذلك وهو رجل التسويات استنتاجاً

واضحاً: وهو وجوب الإبقاء على التماسك الدبلوماسي الذي أدى إلى نتائج جيدة منذ الثاني من شهر آب وبخاصة في الأمم المتحدة.

كان بيكر وبوش متفقين: فقد يكونا بحاجة إلى الحياد السوفييتي بالنسبة للمرحلة المقبلة التي سبق أن تصورا حدودها والتي تتناول موضوع المفاوضة على وقف إطلاق النار مع بغداد.

استقبل جورج بوش الكسندر بسمرتنيخ نهار الأثنين في ٢٨ كانون الثاني، وتناقشا حول تأجيل القمة السوفييتية الأميركية المرتقبة لشهر شباط.

بالنسبة لبوش، فإن الصراع القائم والتقدم الضعيف الذي أحرز في المفاوضات حول السيطرة على الأسلحة في الجمهوريات البلطيقية، جعل انعقاد مثل هذه القمة مستحيلاً.

أكد رئيس الدبلوماسية السوفييتية أن غورباتشوف يوافق على القرارالأميركي بإلغاء القمة، وعاد أيضاً إلى موضوع الضغوطات في الدول البلطيقية. وأعلن أن موسكو ستسحب جيوشها التي كانت قد تمركزت في هذه الجمهوريات وتعيد الحوار مع الزعماء الإستقلاليين. ولما سُئِل بسمرتنيخ عن حجم الإنسحاب العسكري أجاب أنه ليس باستطاعته إعطاء إيضاحات بعد. ففي رأيه، قد تستمر بعض الوحدات في التمركز في لتوانيا، وإستونيا.

كان لدى الأميركيين شعور بأن السوفييت يحاولون إقناعهم بحسن نيّتهم. وفي وقت ما، قال بوش لمحدثه الذي بدا فجأة مرتاحاً: «إن هدفنا هو مساعدة الدول البلطيقية لنيل ما يطمحون إليه وليس لمعاقبة الإتحاد السوفييتي». وبعد أن ذكر حالة العلاقات الثنائية، خلق

بسمرتنيخ مفاجأة حين صرَّح فجأة:

ـ سيدي الرئيس إني أحمل رسالة من إيران.

إيران تؤدي بعض الخدمات

ومنذ بضعة أيام، أثار حدثٌ ما فضول كل السفارات: وهو أن عشرات الطائرات العسكرية العراقية ـ وهي تسعون طائرة حسب التقديرات الواصلة إلى واشنطن ـ كانت تجتاز الحدود وتحط في المطارات الإيرانية.

فاعتبر بعض المراقبين أن ذلك يشكل أول علامة ملموسة لحلف قائم بين بغداد وطهران التي تقدم بذلك لعدو الأمس وسيلة تجنب تهديم قسم من طائراته.

أما الرسالة التي نقلها بسمرتنيخ فتبعد هذه الفرضية. إذ شرح الوزير السوفييتي أن الرئيس رفسنجاني كان قد اتصل بغورباتشوف، وأن طهران أرادت أن تعلم واشنطن بوضوح موقفها. وقد قال رفسنجاني: «إننا نحاول ألا نصبح أحد ممثلي هذه الحرب أو نزج فيها؛ لن تعاد هذه الطائرات إلى العراق طوال مدة الصراع، ومن المحتمل ألا نردَّها أبداً».

بعد أن أصغى لبسمرتنيخ قال بوش: «ما هي في رأيك النوايا الإيرانية تجاه صدام حسين؟».

ـ أجاب الوزير السوفييتي بعد أن فكَّر طويلاً: «من وجهة نظرهم، كانوا بالتأكيد يتمنون أن يروه محطماً».

قضية عادلة

بعد هذه المقابلة، استمع بوش إلى محادثة صدام حسين التي أجراها

معه بيتر آرنت، الموفد الخاص في شبكة السي. أن. أن. والصحفي الأميركي الوحيد الذي لم يزل في العراق. لم يكن صدام حسين قد استقبل الصحفي في غرفة مصفحة تحت الأرض بل في منزل في إحدى ضواحي بغداد.

ثمة أمر لفت انتباه الرئيس الأميركي: وهو تهديد الزعيم العراقي باستعمال «الطاقة النووية، الكيميائية و البيولوجية» في صواريخ «السكود» العراقية.

بعد ذلك بقليل، صعد الرئيس الأميركي إلى جناحه الخاص ليبدل ثيابه، ثم اجتاز واشنطن ليلقي خطاباً أمام رابطة الإذاعات الدينية الوطنية. وفي سيارته «الليموزين» صحح لآخر مرة بعض النقاط الواردة في نصه. وقبل أن يذهب بقليل تحدث مع مستشاريه: «كان من الواجب تهدئة قلق الرأي العام والحكومات العربية إزاء الدمار الذي أنزل بالعراق والتحقق من الخسائر في الأرواح». وأضاف «إن الولايات المتحدة لا تبغي تهديم العراق».

أما بقية خطابه فكانت موجهة إلى الرأي العام الأميركي. فذكر التوراة وإبراهام لنكولن والقديس توما الأكويني ليعلل التدخل العسكري. وصرَّح أن «الأميركيين وبقية قوات الائتلاف كانوا من جهة الله» وعبَّر بلهجة الإقتناع وهو يعتلي منصَّة نشر وراءها ستار أزرق بما يلي: «إن المبدأ الأول لحرب عادلة، هو أن تساند قضية عادلة. والحال، أن ليس هناك من قضية أكثر نبلاً من تلك التي تقضي بتحرير الكويت من الإحتلال العراقي. لكن الحرب العادلة يجب أن تشنها أكثرية شرعية. والحال أن عملية «عاصفة الصحراء» قد أيدها تضامن لم يسبق له مثيل في الولايات المتحدة».

وختم قائلاً: «ما من أحد مثلي لا يرغب في الحرب. لكن ما من أحد مثلي عازم في نهاية المعركة على أن ينتهز فرصة السلام الحقيقية، التي تبث الأمل وتخلق نظاماً عالمياً جديداً.

عندما سينتهي الصراع سيكون لأميركا وقد أعادت صدقيتها، دور الزعامة تلعبه لتعمل على إعادة السلام في بقية الشرق الأوسط». كان سكوكروفت الذي ساعد بوش في تحضير خطابه قد أصر على هذه الجملة الأخيرة. إذ وجب ـ حسب رأيه ـ «إرسال إشارة واضحة إلى العالم العربي المتلهف لمعرفة أن إسرائيل لن تكون المرجع الوحيد في الخيارات السياسية الأميركية في هذه المنطقة بعد الحرب.

مناورة خاطئة

كان على بسمرتنيخ أن يغادر واشنطن ليل الثلاثاء في ٢٩ كانون الثاني. وكانت الساعات الأخيرة التي أمضاها في العاصمة الأميركية كابوساً حقيقياً بالنسبة للدبلوماسية الأميركية. مع أن الأحداث بدت وكأنها تسير دون ضغط. بسمرتنيخ وبيكر كانا مساءً قد تحادثا مطولاً في جوٍّ ودي.

وحسب ما قال أحد أعضاء الوفد: اهتم بيكر بعقد علاقات مع محدثه من نوع تلك التي سادت بينه وبين شيفارنادزه؛ وكان بسمرتنيخ الذي «نصِّب لتوِّهِ وزيراً قبل اسبوعين منشغلاً بفرض نفسه وبإظهار أن الإتحاد السوفياتي لا يزال ممثلاً أساسياً بإمكانه عند الحاجة أن يضغط على الإتجاهات الأميركية». خرج بسمرتنيخ من وزارة الخارجية عند الساعة السابعة، واقترب من كاميرات الصحفيين، وأعلن أن بياناً مشتركاً سوفياتيا أميركياً موضوعه النزاع في الخليج قد حرِّر لتوِّه. وبعد أن

قرأ بعض الجمل منه باللغة الروسية، استطرد باللغة الإنكليزية قائلاً: «إنه نص مهم لأن الجهتين لم يسبق لهما أن أعلنا سوية حول هذا الموضوع منذ سنين عديدة».

كان على بيكر الذي بقي في مكتبه ليبدل ثيابه أن يذهب بعد قليل إلى «الكونغرس» ليطلع على كل ما يجري على بضعة أمتار منه في الطابق السفلي من المبنى.

كان الصحفيون ـ وقد أثار فضولهم ـ يتهافتون على استلام النص وهو عبارة عن وثيقة من صفحتين أخذ دبلوماسي أميركي يوزع نسخاً منها بهدوء مطلق.

وفي الوقت ذاته، كانت دائرة الصحافة في وزارة الخارجية تضعها في البريد موجهةً إلى المراسلين الأجانب. وقالت «مارغريت توتويلر» المتحدثة باسم الخارجية الأميركية: «كان كل شيء لم يزل هادئاً في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة. لم يكن حقاً هذا التصريح بالنسبة إلينا ذا معنى».

وقال أحد المفاوضين الأميركيين: «إنه مجرد نص يظهر أن البلدين لا يزالان متفقين حول مسألة الخليج».

بعد ذلك ببضع ساعات، كانت هذه الوثيقة قيد الفحص في كل سفارة. ففي السفارة الإسرائيلية في واشنطن شاهد أحد الدبلوماسيين شبكة السي. أن. أن فأصيب بصدمة لدى سماعه أقوال الوزير السوفييتي فأسرع إلى وزارة الخارجية وحصل على نسخة من السفير «شوفال». وبعد أن تفحصها بدقة أخبر بها أورشليم بسرعة.

اغتاظ اسحق شامير، بينما شعر السوفييت بالرضى والأميركيون

بالإرتباك. كان الهاتف يدق في البيت الأبيض، وجورج بوش لا يستطيع الإجابة لا على الصحفيين ولا على قادة البلدان الذين كانوا يتصلون به . فهو يجهل مضمون وحتى وجود هذا البلاغ. إذ لم يكن بيكر قد نقل إليه ذلك. لحق سكوكروفت بأمين سر الدولة إلى سيارته. ، وقد بدا هذا الأخير مذهولاً بردود الفعل التي ظهرت.

تذمّر الرئيس إذ كان عليه أن يذهب إلى الكابيتول ليلقي الخطاب التقليدي حول أوضاع الإتحاد أمام أعضاء الكونغرس. وصلت نسخة نهائية إلى مكتب سكوكروفت قبل بضع دقائق من مغادرة الموكب الرئاسي البيت الأبيض.

وبينما كان الموكب يهُم بالإنطلاق، إندفع رئيس مجلس الأمن القومي إلى داخل سيارة الرئاسة وسلّم الورقتين اللتين تفحصّهما باهتمام.

ذكرت الوثيقة ما يلي: «يستمر الوزيران باقتناعهما أن إنهاء الحرب لا يزال ممكناً إذا ما التزم العراق دون أي لبس بمغادرة الكويت». ويشير البلاغ أيضاً إلى أن على أميركا «أن تعمل بعد الحرب مع دول الشرق الأوسط على ايجاد حل لبقية الخلافات الإقليمية ومنها المسألة الفلسطينية».

لم يكن هذا النص في الحقيقة مختلفاً عن المواقف التي عبرت عنها الولايات المتحدة تقليدياً.

عارضت الفقرة الأولى فقط آخر تأكيدات لجورج بوش حيث يشير إلى أنه: «لن يكون هناك أي فترة توقف للمفاوضات خلال الحرب». أما الفقرة الثانية المطعون بها، فقد فسحت المجال «للتخوف» أو للأمل في إيجاد رابط بين الانسحاب العراقي من الكويت والمسألة الفلسطينية.

وهذا ما أراد بوش تجنّبَه بأي ثمن.

عندما نزل من السيارة عند الكابيتول سأله الصحفيون:

ـ هل أنت مغتاظ من صديقك ومعاونك جيمس بيكر؟

ـ أجاب الرئيس الأميركي مبتسماً: ليس هناك أي خلاف بيننا.

بعد ذلك بقليل قال لبعض المقربين: قليلة هي الأشياء التي يمكنك أن تتأكد منها في الحياة، غير أن صداقتي لجيم جزء منها». كان في البيت الأبيض رجل يشتاط غيظاً وهو جون سونونو الذي قال لمعاونيه: قد نسي بيكر أولى القواعد في السياسة وهي ألا يلقي ظلاً على الرئيس.

خشي سنونو أن يخفف الهيجان الناتج حول هذا النص من أهمية الخطاب حول الوضع في الإتحاد الذي كان يلقيه بوش. وتلك مناسبة رسمية واحتفال تقليدي ثابت حيث على الرئيس أن يعرض على الكونغرس نتائج عمله ويذكر رؤيته المستقبلية، إضافة إلى أنها ممارسة فيها من الشمولية ما يكفي لتجنب المنازعات الرئيسية.

وحسب ما جاء على لسان أحد المقربين منه، نجح بوش نجاحاً تاماً، إذ قوطع خمسين مرّة بالتصفيق خلال سبع وأربعين دقيقة استغرقها خطابه. في الكابيتول، حيث اتخذت تدابير امنية استثنائية، قال الرئيس: «إن القدرة العراقية للاستمرار في الحرب هي الآن عرضة للتدمير.. لن ينفع الوقت صدام حسين ويخلصه». لقد استغرقت تهدئة البلبلة التي احدثها نص البلاغ لدى الإدارة الأميركية يومين. وقد شغل هذا النص الإسرائيليين للغاية. فعاد اسحق شامير الى البلاغ السوفييتي الأميركي منتقداً بقوله: «قرار سياسي متعلق بنا، ويلزم

مستقبلنا، يتخذ دون أن نستشار».

لقد استطاع بيكر التحقق من تأثير هذه المبادرة. فقد أُعلم وهو مرتبك، عندما استقبل سفير فرنسا في واشنطن «جاك اندرياني» أن الحكومة الفرنسية راضية عن ذلك البلاغ.

كان ريتشارد هاس وعمره ثلاثون سنة يجلس في مكتبه الصغير في مجلس الأمن القومي الواقع في سراديب البيت الأبيض ويقوم باتصالات هاتفية مستمرة. هذا الرجل ذو الشعر الأشقر، معاون سكوكروفت وغايتس، الجالس في غرفة حيطانها مغطاة بصور «أندي وارهل» المكبرة، كان الرابط شبه الرسمي بين الرئاسة والمنظمات اليهودية الأميركية. كانت علاقاته الخاصة ممتازة مع شوشانا كاردن، وهي امرأة في الستين من عمرها صوتها ناعم وحركاتها رصينة، وهي رئيسة مجلس المنظمات اليهودية.

لقد كان الإنفعال داخل الطائفة اليهودية الأميركية هائلاً على أثر قراءة النص، فاستنفرت جميع منظماتها... وكان هاس يشرح لمسؤولي كل واحدة منها أن النص لا يشير اطلاقاً إلى أي تغير في الموقف الأميركي. طلبت شوشانا مقابلة الرئيس. فاستقبلها بوش في اليوم الثاني برفقة وفد يمثل ست واربعين منظمة يهودية. شرح جورج بوش أن موقفه باقٍ على حاله: «لم يزل يطالب بانسحاب كامل للعراقيين من الكويت ويرفض ربط هذه الحرب بحل للمسألة الفلسطينية». اضاف، أن الأهداف الأميركية تقضي بإبقاء الإتحاد السوفييتي داخل الائتلاف المناوىء للعراق، وبغية النجاح، وجب اقناع موسكو في الوقت نفسه بأن قوات الائتلاف لن تهدم العراق وأن بإمكان الإتحاد السوفييتي أن يلعب دوراً دبلوماسيا في الشرق الأوسط في فترة ما بعد الحرب أجاب

مخاطبوه «نحن نفهم هذا المنطق جيداً لكننا فوجئنا بالإطار الذي تعمم فيه هذا النص». أي أن توقيته حصل مباشرة قبل الخطاب حول حالة الإتحاد.

كان ذلك بالنسبة للرئيس الأميركي تسلسلاً غير موفق فعلاً، وقد يوحي بتغيُّر في السياسة. لكنه عاد مؤكداً من جديد وبحزم أن تلك كانت فرضية لا أساس لها.

الفصل السادس عشر

ملك الموجات

كانت تلك المناورة الخاطئة، الخرق الوحيد في إدارة أميركية تأقلمت في إدارة الحرب بالفاعلية الدقيقة نفسها التي يتميز بها مجلس إدارة شركة كبيرة تراقب بانتباه نمو إنتاجها أو مبيعاتها.

كانت مئات السيارات تقف طوال الليل في الباحة المخصصة لها في البنتاغون، وتبقى نوافذ مكاتب كولن باول وريتشارد تشيني مضيئة باستمرار. ومن المحتمل الإلتقاء صباحاً بمدنيين وعسكريين يدخلون حرم وزارة الدفاع متأبطين الوسائد.

قال أحدهم: «لقد نسيت كيس نومي». كانت تلك المرة الأولى التي تعاش فيها الحرب «بواقعها الزمني» مع الصور والضوضاء التي تتوالى بسرعة مجنونة والتي كانت الأحداث تكذبها احياناً. وفي عشية ما أعلنه مراسلو الأي. بي. سي. والأن. بي. سي. الخاصون إلى إسرائيل «عن مصدر جيد الإطلاع» أن عشرين إسرائيلياً قد أدخلوا المستشفى ويعالجون ضد تأثير الغازات السامة، نقلت إذاعة السي. بي. أس. في المساء نفسه أن إسرائيل قد انطلقت في عمليات قمع ضد العراق.

كرّس بوش ثمانين بالمئة من نشاطاته للحرب وذلك بعد أن جوّز لنفسه هذه النسبة. وشغف باجتماعات التعليمات التي عقدت في البنتاغون في القاعة المصفحة الشهيرة.

كانت الأخبار تتدفق بوفرة وباستمرار على غرفة العمليات. فتصل في بادىء الأمر إلى مكتب سكوكروفت الذي يختار منها الأهم ثم يرسلها

إلى المكتب البيضاوي. وفي المساء، بعد أن يعود إلى جناحه الخاص يستمر بوش في الإتصال الهاتفي بذلك الرجل الأصلع، الأهيف والمنحني القامة والذي يسهر حتى ساعة متأخرة من الليل. ومما قاله بعض المعاونين في البيت الأبيض: «لقد تزايد فيه الشبه بظل الرئيس». كان سكوكروفت يعيد نظرة إجمالية مع بوش في المعلومات قبل أن يخلد إلى النوم ثم يحضر باهتمام - ودوماً بواسطة اتصال تلفزيوني مع مركز السي. آي. إي - العرض الذي يقدمه مسؤول في الوكالة إلى الرئيس في صباح كل يوم.

كان الذين يدخلون إلى «المكتب البيضاوي» أو إلى «قاعة العمل» المتاخمة، يجدون غالباً جورج بوش وقد ارتدى قميصاً واسترسل في القراءة، أو مشغولاً في الكتابة وهو يراقب شاشة التلفاز العاملة أمامه. وغالباً ما كان يعلم بعض الأخبار بإصغائه إلى شبكة السي. أن. أن قبل أن تصله التقارير الشديدة السرية. ويتململ خاصة من البطء الذي ترده فيه الإفادات العسكرية عارضة حصيلة عمليات القصف على العراق والكويت.

كان باستطاعة مارلين فيتزووتر الذي يضايقه الصَّحفيون بأسئلتهم الملحَّة أن يجيب بصراحة: «لقد طلب مني الرئيس ايضاحات حول الأضرار التي وقعت، غير أنها لم تصله بعد، وحتى اللحظة، إنكم تعرفون بقدر ما هو يعرف».

عندما دخلت الجيوش العراقية إلى الأراضي الكويتية واحتلت مدينة خفجي الساحلية التي اخلتها القوات الحليفة، سادت آنذاك فترة طويلة من البلبلة وبخاصة فيما يتعلق بضخامة المعارك والخسائر. كان البيت الأبيض يلاحق تشيني وباول بلا هوادة فيحاول الرجلان عبثاً الحصول

على إيضاحات من مقر القيادة العامة للحلفاء في الرياض.

كان بوش ـ وقد أحاط به بعض معاونيه المنهكين تعباً والذين راح بعضهم يأكل الشطائر وهو مشدود أمام التلفاز ـ يغيّر الموجات ليجمع بعض التفاصيل. وقد صرَّح مع شعور بالحرمان: ـ «آمل في النهاية أن نعرف أكثر من غيرنا من مشاهدي التلفاز». وقال أحد أعضاء المجلس القومي: لقد عشنا أحياناً مواقف لا تصدق، إذ كشفت لنا فجأة وزن السي. أن. أن. كنا نتلقى تقارير شديدة السرية من المفروض أن تكون في منتهى الكمال. لكن في الواقع كانت تغطية الأحداث المتلفزة تفسد تلك التقارير كلية. واكتشفنا أنها تعيد لتوِّها ما قيل على شبكة السي. أن. أن. وبعد ذلك بقليل، يرد تقرير آخر ليؤكد الأول ولكن ما بين الوقتين تكون شبكة السي أن. أن هي أيضاً أكدت معلوماتها. وحقاً، إن محللي الأخبار لدينا يتتبعون شبكة التلفاز منتظرين أن تؤكد شبكة السي. أن. أن. أخبار الشبكة نفسها». رجل وحيد في البيت الأبيض، حاول ألا ينجرف في هذه الزوبعة التلفزيونية وهو روبرت غايتس الرجل الثاني في مجلس الأمن القومي. فهذا الرجل الذي له من العمر ستة وأربعون عاما، ذو الشعر الأبيض، عمل مجتهداً على الاحتفاظ بإيمان صحيح في قيمة المعلومات التي تنقل إلى الرئاسة. لم يكن أبداً يدير جهاز التلفاز، بل ينتظر «باستقامة» كلية ـ كما قال أحد معاونيه ـ أن تأتيه التقارير من غرفة العمليات. أوجز بوش هذا الوضع الغريب تماماً بجملة قالها لمن حوله: «صحيح، إننا نعرف من الأخبار أكثر مما تعرفه الصحافة، وذلك بفضل المعلومات المصنفة التي تردنا، لكن المشكلة الحقيقية هي أن الصحفيين يعرفون أكثر مما يجب أن يعرفوا».

لقد أعلم باستمرار قادة الدول الأعضاء في الائتلاف، وتكلم مع

الجميع بحذر وأسمعهم أن الجزء الآتي من الحرب وبالأخص المعركة البرية قد يكون أكثر كلفة في الخسائر البشرية. كان يتصرف مع حلفائه كما يفعل مع الرأي العام، أي يجتهد بإظهار النزاع صعباً ومليئاً بالصدف. وأثر هذا التشاؤم المعتدل على الرئيس الفرنسي. ففي السابع من شهر شباط وخلال خطاب متلفز له دعا ميتران الفرنسيين إلى التماسك في وجه «المحن» و «التضحيات».

الرجل الأكثر حظاً في العراق

لقد انتاب الرئيس المصري حسني مبارك قلق خاص، فكان يتصل ببوش يومياً تقريباً: «كنت أعتقد ـ قال بلطافة ـ أن كل شيء سينتهي خلال بضعة أيام. فبقدر ما يمر الوقت بقدر ما يظهر صدام بمظهر الرابح». وخشي مبارك أن يؤول الرأي العربي الذي بقي متحفظاً إلى الانحياز للعراق. فأضاف قائلاً: «إني أعرف صدام حسين فباستطاعته من الآن وصاعداً أن يراهن على هزيمة عسكرية يحولها إلى نصر سياسي. ثم تذكر ما فعله ناصر سنة ١٩٦٧. لقد خسر الحرب ضد إسرائيل ودمّر جيشنا، وخلا ذلك، خرج من هذه التجربة أكثر شعبية مما لم يكن عليه يوماً». كان بوش يجتهد في طمأنيته. فالأخبار الواردة من الجبهة تفيد أن عمليات القصف أضعفت القوات العراقية بشكل جدي. وخرجت قوات الحرس الجمهوري وهي الفرق المختارة، عن الصمت الإذاعي الذي التزمت به منذ أيام عدَّة. وقد «خرقت» الدوائر الأميركية الرموز التي استعملتها لنقل رسائلها إلى الأركان. وأظهرت قراءة هذه الرسائل أن الوحدات العراقية أصيبت بالعمق نفسياً وعسكرياً، أصابتها ضخامة عمليات القصف المتواصلة وأصبحت عملياً معزولة عن خطوطها التموينية الرئيسية. لم يكن الرئيس، خلال الأسبوع الأول من شهر

شباط، قد حدَّد الوقت الذي ستشن في العمليات البرية. كما لم يكن يشارك بعض من حوله تفاؤلهم، أولئك الذين يعتبرون أن فاعلية الحرب الجوية قد تسمح بتوفير مثل ذلك الهجوم.

وبالعكس كان يهيء الرأي العام تدريجاً وبمنهجية لهذا الإستحقاق، فيُصغي فجأة إلى ملاحظات ومطالب مسؤولي منظمات السود. لقد انتمى الكثير من الجنود الموجودين إلى الجنس الأسود، وفي حال الهجوم ـ حسبما قال أحد الأخصائيين ـ «كان هذا النوع من البشر معرضاً لأن يقع فيه أعدادٌ كثيرة من الضحايا.

كان بوش يعرف ـ وهذا ما تعلَّمه أيضاً من تجارب أسلافه المؤسفة ـ أن الدعوات التي تتطلب «تضحية مطلقة لا تلغي موافقة عميقة من الرأي العام».

أما بالنسبة للمستشارين بنقل الأنباء، الذين يعملون باستمرار لدى البيت الأبيض، فكان يجب ذكر «العامل البشري أقل قدر ممكن، والنجاح التكنولوجي أكثر قدر ممكن». كان الأمر يتعلق بقواعد معبَّر عنها بإتقان حتى قبل اندلاع الصراع والتي نقلت إلى كل القادة العسكريين وجدت هذه الاستراتيجية إثباتاً مدهشاً عندما قتل اثنا عشر من المارينز خلال الأسبوع الأول من شهر شباط. إذ شكلت تلك الخسائر «تدخلاً مأساوياً للواقع» بإمكانه أن يخلق صدمة عميقة في نفوس الشعب. وخلال الجولة الصحفية اليومية العامة في الرياض، وصل شوارزكوف شخصياً وبيده شريط فيديو يلوح به، فقال للصحفيين بلهجة مرحة: «سأريكم اليوم الرجل الأكثر حظاً في العراق». كانت الصور قد التقطت من إحدى الطائرات أثناء مهاجمة أحد الجسور. وتشاهد فيها الطائرة وهي تقذف القنابل الموجهة بالليزر

فتصيب الجسر في عمق وسطه، وعلى بعد بضعة أمتار منه شاحنة صغيرة اجتازته لتوّها فسلمت: قال شوارزكوف: «شيء لا يصدق» ثم أطلعَ الصحفيين على ذلك. في البداية أدار الشريط بالسرعة العادية ثم ببطء حيث أخذ يشرح نقاط الاصطدام ودقة الرمايات. ثم ذكر حظ السائق العراقي المذهل الذي نجا من مثل هذه الأسلحة. بعد عشرين دقيقة من التعليق وكله تقريظ وثناء رفع الاجتماع؟ وتماماً قبل أن يغادر، ذكر ما يلي: «لقد خسر المارينز إثني عشر «KIA». إن إيجاز صيغة «KIA» ـ يعني «قتل أثناء العمل» ـ هذه كانت مقتضبة لدرجة أنها زادت في تخفيف قوة وأهمية الخبر. وفي المساء، بثت بكثرة جميع شبكات التلفزة صور الجسر المهاجم، ولم تذكر إلا بإيجاز موت الجنود الإثني عشر.

ماك لوهان والحرب

كان الرجال المختصون بنقل الأنباء والصور، المحيطون ببوش، يعتقدون بوجوب أن تُسَيَّر هذه الحرب في آن معاً كحملة سياسية وكعملية علاقات عامة. كان الأمر يقتضي «بتمرير عدد معين من الرسائل» و «الانتصار» في حقل الحرب النفسية على العدو. فقد أُنجز جهاز في منتهى الفاعلية، قوامه خلية خاصة نسَّقها روبرت غايتس. وكان مساعد شوارزكوف هذا يعمل مع عدد من أخصائيي البنتاغون في وزارة الخارجية والسي. آي. إي على إعداد «رسائل اليوم». أما تلك «الرسائل» فهي كناية عن صيغ ملغزة قدر الإمكان ومهيئة بطريقة من شأنها أن ترفع صدقية الرئيس وإدارته أو أن تؤجج العداء تجاه صدام حسين.

وكانت هذه الرسائل تخضع صباح كل يوم إلى موافقة بوش ثم يتكلف فيتزووتر الناطق باسم البيت الأبيض باختبار فاعليتها لدى الصحافة. وكان ذلك من شأنه ـ دون آلة تصوير ـ أن يقيِّم ردود فعل

الصحفيين. ثم يعود ثانية إلى المكتب البيضاوي لينظم تقريره. وكانت الجمل التي تبدو أكثر وقعاً، تنقل إلى ناطقين باسم وزارة الخارجية والبنتاغون. وخلال عرضهما اليومي للصحافة ـ وأمام آلة تصوير ـ كانا يطرحان هذه الصيغ المعدة لكي تنشر في أخبار المساء المتلفزة.

وهكذا عندما بث العراقيون صور طيارين سجناء بدوا وكأنهم أخضعوا للتعذيب، كانت إحدى صيغ الرد المعدة هي الآتية: «سيعاقب صدام حسين بارتكاب جرائم حرب».

وبموازاة هذه الرسائل، أرسلت يومياً «نقاط للنقاش» عبر الولايات المتحدة بواسطة الفاكس إلى مقررين مؤيدين للإدارة. وكان رجال أعمال وشخصيات سياسية وآخرون من عالم المسرح والمشهد ومبشرون عبر التلفاز يستلمون مذكرات فيها عدد من لوائح البينات مع تعليمات مذكورة بوضوح: «لا تنسوا أن تذكروا هذه النقاط إن كان خلال كوكتيل أو خلال اجتماع ادارة».

كانت صورة بوش تلقى العناية نفسها. فعليه أن يبقى بمظهر الرئيس الهادىء والحازم. ولاقى هذا التصرف قبولاً سهلاً لدى الرأي العام، إذ أنه مطابق للواقع. لم يكن الرئيس إنساناً ميالاً إلى الغوص في الذات، وإذا قطع خياراً لا يعود فيطرح الأسئلة حوله.

وقد وصل في صباح ما مشدود السمات قائلاً: «قرع الطبول هذا قد منعني من النوم»، لقد أخذ المتظاهرون المتجمعون حول البيت الأبيض يتناوبون فعلاً طوال الليل قارعين الطبول احتجاجاً. وقال أحد مستشاريه لاحقاً: إن بوش لم يقل كلمة واحدة لهؤلاء المتظاهرين بينما جونسون وفي موقف مشابه أثناء حرب فيتنام كان قد ذهب إلى النافذة

ليواجه المعارضين قائلاً «لماذا يفعلون لي هذا». كانت إحدى الأسئلة الأولى التي يطرحها الصحفيون على المتحدث باسم البيت الأبيض هي: «كيف حال مزاج الرئيس؟. أجهد فيتزووتر نفسه ليجد «كلمة مزاج معبرة» تصلح لتحديد حالة نفسية هي في ثباتها كجهاز تخطيط القلب لا تتغير. كان يقول لمعاونيه، لقد استعملت حتى الآن: هادىء، حازم، ساكن، رصين، صبور، عزوم، يقظ، مثابر، صلب. ماذا يسعني بعد أن أجد غير ذلك.

غالباً، وقبل أن يذهب في الصباح إلى «اجتماع التعليمات» كان يدق جرس الهاتف الذي يصله بالمكتب الرئاسي، فيبادره بوش إلى القول مداعباً: «إذاً يا مارلين! قد علمت أني كنت أمس صلباً كالفولاذ فبأي مزاج أنا اليوم».

لجوء سياسي للطائرات

في صباح يوم ما، اتصل القائم بأعمال السفارة السوفييتية هاتفياً بسكوكروفت يطلب منه استقباله. حدَّد له رئيس مجلس الأمن القومي موعداً في المساء. جلس الدبلوماسي مقابل الجنرال السابق في سلاح الجو، وقدَّم له نسخة وثيقة مصدرها طهران.

وكان القادة الإيرانيون قد طلبوا من موسكو تبليغ هذا النص لواشنطن، وذُكر كعربون إضافي عن حسن نيتهم ويتعلق ذلك النص بنقل محادثة سبق وأن جرت في بداية شهر كانون الثاني قبل اسبوع من لقاء جيمس بيكر وطارق عزيز في جنيف. كان عزت ابراهيم وهو الرجل الثاني في العراق قد انتقل بسرية تامة إلى طهران للقاء الرئيس الإيراني رفسنجاني. فدار مضمون الحوار اساساً حول نقطة تمثلت بقبول إيران في

حال النزاع استقبال الطيران المدني والحربي. ويحتمل أن يكون رفسنجاني ـ وفقاً للنص المنقول لسكوكروفت ـ قد أجاب بالموافقة على استقبال الطائرات المدنية، غير أنه سيحتجز الطائرات العسكرية. وقد استطرد بالتالي ذاكراً خسائر الحرب التي يجب على العراق أن يدفع تعويضاتها إلى طهران.

ومما أثار العجب في هذا الحوار كان على الأرجح تفاؤل عزت ابراهيم الشديد وهو يكرر قائلاً: على أي حال، أميركا بلد مريض، ولن يجرؤ أبداً على شن هجوم علينا.

الفصل السابع عشر

هل دمّر العراق

كان التقدير الصحيح للخسائر العراقية قد أصبح على مرِّ الأيام موضوع جدل ونقاش بحيث وضع وكالتي الاستخبارات الرئيسيتين السي. آي. إي والدِّي. آي. إي على طرفي نقيض مع شوارزكوف وأركانه. فقد انعقد في ٦ شباط اجتماع في المكتب البيضاوي ساده التشنج. استهل تشيني الكلام ليشرح ضخامة الدمار الذي مُنيَت به القوات العراقية. وعندما أنهى كلامه، أدار بوش وجهه نحو الرجل ذي الشعر الأملس والطلعة المميزة، وهو يجلس إلى جانب الوزير الذي بقي حتى الآن صامتاً.

ـ هل تؤكد هذه الأقوال يا وليم؟.

حينئذ صرَّح وليم وبستر مدير السي. آي. إي. ورئيس سابق في الأف. بي. إي قائلاً: «إن وكالتي الدي. آي. إي. والسي. آي. إي. ليس بإمكانهما أن يقدرا إلا نسبة ضئيلة من التقدير الذي تدعيه القيادة المركزية. وقد ساد صمت جليدي شمل الحاضرين لدى سماعهم هذا التصريح.

عندها أجاب تشيني بلهجة لاذعة:

ـ إني أثق بوسائل واستنتاجات الجنرال شوارزكوف وأركانه. وعلى الرغم من وجوده حالياً في المركز الذي شغله بوش سابقاً، فإن وبستر لا ينتمي إلى دائرة معاوني الرئيس المباشرين. هؤلاء الذين يسمونهم في واشنطن الثمانية الكبار. وكانت السي. آي. إي. قد شاركت بفعالية خلال هذه الحرب، غير أن بوش فضَّل العودة إلى معاونه روبرت غايتس

الذي كان مديراً مساعداً في الوكالة.

لقد شكل هذا الاختلاف في طرق احصاء خسائر العدو بالنسبة للرئيس الأميركي عاملاً مقلقاً. فكيف يعين تاريخ هجوم بري دون الحصول على معلومات واقعية لفاعلية عمليات القصف؟.

لقد ارتكز سوء التفاهم بين السي. آي. إي. ورئاسة الأركان في قسم كبير منه على مصادر الاستعلامات التي هي قيد الاستعمال.

فكان العسكريون يرتكزون على تقارير الطيارين والصور التي تلتقطها آلات تصويرالفيديو المجهزة في الطائرات وعلى صور الطائرات الجاسوسية U_2. أما تقارير السي. آي. إي. والدي. آي. إي. فكانت تقريباً ترتكز فقط على الصور المرسلة بواسطة الأقمار الصناعية. إلا أن دوران هذه الأقمار سمح بتصوير ما بين ٣٠ إلى ٤٠ بالمئة من الأهداف التي تهاجمها قوات الائتلاف وتصيبها يومياً. زد على ذلك أن «الصور» التي تلتقطها الطائرات U_2 وتستعملها الوكالة لتقدير الدمار، كانت تصل إلى واشنطن بعد اسبوع فقط.

وتبنت السي. آي. إي. موقفاً تقليدياً للغاية يتعلق بالحصول على براهين دقيقة ـ كما يقول البعض ـ كتلك التي تطلب أمام المحاكم. غير أن هيئة الأركان أجابت مؤكدة أن مثل تلك الحقائق غالباً ما تكون صعبة المنال.

فشهادة طيار يُمّيز انفجاراً واحداً أو أكثر بعد إصابته هدفاً ما، كان باستطاعته أن يشكل البرهان الوحيد على تدميره. بالنسبة إلى شوارزكوف ومعاونيه، فمن المستحيل الحصول ـ بشكل لا يقبل الشك ـ على برهان إنطلاقاً من صورة بواسطة الأقمار الصناعية. فالرمال قد تغطي بسرعة

التجهيزات المصابة، لا بل ليس بالإمكان رؤية غرفة محصنة دمّرها القصف.

ودار الجدل بين الفريقين وبخاصة حول إبادة فرقة مدرعات عراقية. فقد اكدت هيئة الأركان أن خمسين في المئة من المدرعات قد دمِّرت، فيما قدرت السي. آي. إي نسبة التدمير بعشرين في المئة. مما حدا بالعسكريين إذاك إلى أن يقروا تطبيق طريقة أخرى في التقييم. وبالقدر نفسه من التجهم. فإذا أكدَّ رفاق أحد الطيارين في السرب إصابة الهدف، فمن الواجب أن يعزى لهذا الطيار تلك الأهداف المصابة، وقد يصبح الهدف مدمراً نهائياً إذا أثبتت طائرات الاستكشاف الإصابة حسب الصور التي التقطتها. كان هذا الشك هو أحد الأسباب التي دفعت بوش لإرسال تشيني إلى ساحة القتال. فكان ينتظر منه تقريراً دقيقاً حول الوضع العسكري وتقدير المهل التي يمكن خلالها شن الهجوم البري.

تشيني وباول في الجبهة

في الثامن من شهر شباط، حطَّ الرجلان على قاعدة جوية واقعة في شمال غرب العربية السعودية، وكانت تأوي قاذفات F111 وطائرات جاسوسة. أحاط الطيارون بالمسؤولين، علق الكثيرون منهم على بزاتهم وقمصانهم شارات كتبت عليها هذه الكلمات: «هذا ما يحدث عندما تسقط الدبلوماسية». قال لهم تشيني: «إنكم تشاركون في في الحملة الجوية الأكثر نجاحاً في تاريخ العالم». لكنه أضاف: «قد يكون التدخل البري والبحري ضرورياً لإخراج الجيوش العراقية وتعريضها للقصف الجوي».

كوّنت هذه الكلمات ـ الصادرة عن رسمي أميركي حول الطرق التي قد تستعمل في حال شنت حرب برية ـ التفسير الأكثر دقة، لأنها تشكل في الوقت نفسه غاية في التضليل الإخباري. وفعلاً كان احتمال الإنزال البحري وارداً ليخدع به العراقيون. ثم طار باول وتشيني بعد هذه المحطة إلى الطائف، حيث يقيم الأمير جابر وعائلته في أحد الفنادق. وقد علّق بوش أهمية كبرى على هذه المحطة ليهدىء من قلق العاهل الكويتي المنفي الذي يخاف أن تصطدم قوات الحلفاء بمقاومة أكثر مما هو متوقع. فأخبر آل الصباح محاوريهما أن السعوديين لا يعلمونهم إطلاقاً، وسأل جابر مراراً «كم يوماً يفصلنا عن الهجوم البري؟». ثم عاد تشيني وباول بالطائرة إلى الرياض وهذه محطتهما الأهم. فلقيا شوارزكوف في التاسعة صباحاً وقد أحاط به معاونوه وكبار الضباط السعوديون. عبَّر رئيس الأركان في بادىء الأمر عن بعض التحفظات: فملاحقة السكود ورداءة الطقس قد أخرا سير العمليات. وقد تكون ثلاثة أو أربعة أسابيع اضافية ضرورية لتركيز كل لوجيستية الحرب البرية.

اجابه تشيني وباول أن ذلك مستحيل، ويجب تسريع الأمور وتحديد استحقاق يدور حوالي الواحد والعشرين من شهر شباط. درسوا بعد ذلك تفاصيل المخططات المنجزة وهم داخل «الحجر الأسود». لقد عملت الفرق منذ شهرين على اقامة تخطيط دقيق، محرَّرة من ثمانية إلى عشر سيناريوات للرد لفرضية واحدة، كمحاولة جيوش الحرس الجمهوري الهروب من الغرب. قد تتغير العناصر، وتتحول الأزمنة باستمرار، لكن الخطوط العريضة في المخطط تبقي هي هي.

هَدَفَ الهجوم إلى عزل الجيوش العراقية الموجودة في الكويت، وذلك بفضل عمل الفيلق الثامن عشر من الجيش المتحرك، ثم إلى تدميرها

بواسطة تدخل فيلق الجيش السابع. قد تبدأ عمليات الهجوم الأولى من جناحي الخطوط المؤلفة من جيوش التحالف، والفرنسيين والفرقة المنقولة جواً من جهة الغرب، و «المارينز» والقوات العربية من جهة الشرق وذلك لاختبار ردة الفعل العراقية.

كانت هذه الحرب بالنسبة لفيلق الجيش السابع الذي اتخذ مركزاً دفاعياً منذ ما يقارب نصف قرن في المانيا الإتحادية، تسجل تغييراً جذرياً في المفهوم الاستراتيجي. فقائد ذلك الفيلق الجنرال «فريد فرانكس» كان يشرح لضباطه أن عليهم أن يعتبروا الصحراء بحراً ويناوروا فيها بالسرعة ذاتها التي تقتضيها معركة بحرية.

وكانت قد شيدت قواعد عملاقة داخل الصحراء السعودية وخاصة مستودع كبير للذخيرة، مساحته اربعون ميلاً مربعاً، ويقع بالقرب من مدينة الملك خالد العسكرية. وقد اقترح رئيس العمليات اللوجيستية الجنرال «غوس باغوينس» بناء قاعدتين اضافيتين في الجنوب، فأبدى شوارزكوف تردداً من جراء ذلك لأنه خشي من أن يؤدي تشييد ابنية هائلة إلى لفت انتباه العراقيين مما يجعلهم يدركون أن القوات الأميركية المتمركزة في شرق العربية السعودية قد تتحرك في هذا القسم الآخر من البلد. وفي ١٧ كانون الثاني، وبعد انطلاق القصف الجوي بقليل، كانت ثلاث فرق من فيلق الجيش الثامن عشر قد بدأت بالتقدم نحو الغرب، أضفي على العملية سرية تامة. وقد استغرقت عملية اجتياز هذه القوات الخمسماية ميل التي تفصلها عن قواعدها الجديدة قرب الجبهة، اثني عشر يوماً.

وخلال المحادثات التي أجرياها مع مسؤولي القوات البرية، لفت انتباه تشيني وباول تصميم العسكريين البالغ على القتال:

إذ كانوا مستعدين له ومتلهفين إليه. وصرَّح الميجر جنرال قائد فرقة المدرعات الأولى أن جيوشه تتحلى «بمنتهى الاندفاع والانضباطية، وهي صلبة وجاهزة للمعارك». غير أنه كان يخشى ألا يكفيه ما يملك من ذخيرة وتجهيزات الوقاية ضد هجوم كيماوي محتمل.

لم يكن أحد ليهمل هذا الخطر، حتى ولو أن كل ما لوحظ حتى الآن حول الموضوع لم يشر إلى أي أثر واضح لمواد مثل غاز الخردل التي سبق وأن أنتجها العراق بكميات كبيرة.

وقد شيد الأميركيون في وسط الصحراء نسخة طبق الأصل عن التحصينات العراقية المقامة حول الكويت. وكان بإمكان أمين سر الدولة في الدفاع ورئيس الأركان أن يشاهدا تصميم تلك التحصينات الموضوع على طاولة في وسط مقر القيادة العامة. كما كان باستطاعة فرقة المشاة الأولى أيضاً، وقد أُنيطت بها مهمة فرق هذه التحصينات أن تتمرن على اجتياز حقول الألغام والخنادق والأشرطة الشائكة. تحادث المسؤولان الأميركيان أيضاً مع قادة سلاح الجو ولدى طرحهما الأسئلة اكتشفا أن نتيجة عمليات القصف تباينت للغاية. مع العلم أنه في نهاية مئة مهمة مثلاً لم يكن باستطاعة طائرات الأف ١٥ والأف ١٦ والـ FAR أن تصيب جسراً واحداً من الإثنين والأربعين الواقعة في العراق والمعينة كأهداف. فكانت قنابلها وهي تقليدية تنفجر في الجوار. فتقرر آنذاك إرسال طائرات قاذفة مطاردة من طراز ف ١١٧ وف ١١١ تحمل قنابل موجهة بواسطة الليزر! وفي ليلة واحدة تمكنت هذه الطائرات من تدمير سبعة جسور. لم تكن نتائج القصف بطائرات الـ B52 تعتبر ايضاً مرضية حقاً: فقد أصابت بقسوة مصانع ومستودعات ذخيرة، لكنها أظهرت أنها أقل فاعلية ضد الجيوش العراقية.

«أما الأسلحة الذكية» ذات النتائج المفاخر بها، فلم تكن في الواقع تمثل في الترسانة المستعملة إلا جزءاً بسيطاً لا يكاد يصل إلى نسبة ٧٪. وكانت حرب الخليج من ناحية اختبار المعدات والاستراتيجية المطبقة لم تزل تعتبر ـ وذلك من وجوه عديدة، ورغم التعليقات المختلفة ـ نزاعاً من طرازٍ كلاسيكي. وقد اجتهد العسكريون المزودون بخطوط بيانية احصائية في شرح التقدم المحقق لتشيني وباول: فخلال الحرب العالمية الثانية، كانت القنابل تسقط على بعد أكثر من كيلو متر عن أهدافها وخلال الحرب الفيتنامية خُفِّضَ هذا الحد إلى خمسة أمتار. وفي الغارة الجوية الأميركية على ليبيا سنة ١٩٨٦ اعيدت المسافة إلى خمسماية قدم. أما التحسينات الأخيرة فمن شأنها أن تنقص حدَّ الخطأ أقل من ثلاثين قدماً.

حصل تشيني وباول خلال زيارتهما التي استغرقت ثمانٍ وأربعين ساعة على نتائج كثيرة قدَّمها لهما مسؤولو المخابرات. فمعظمهم كان يعتبر أن شن الهجوم البري يجب أن يقرر بأسرع وقت ممكن وذلك لسببين: الأول لأنهم كانوا يشكون بأن كثيرين من البدو القاطنين أو المتجولين قرب قواعد الحلفاء ينقلون معلوماتنا إلى قوات بغداد. وحسب هؤلاء الاختصاصيين، فإن وحدات عراقية كثيرة كانت قد تحركت، وذلك قرار لا مبرر له إلا إذا أُعلمت مسبقاً بتحركات الجيوش الحليفة.

أما السبب الثاني فكان يلتقي مع معلومات سبق وأن أخذ علماً بها الوزير الأميركي وقائد الجيوش سابقاً في واشنطن ومفادها أن السوفييت يكِّثفون مراقبتهم للمنطقة وينقلون معلومات عسكرية إلى العراق. فكانت مراكز تنصتهم الواقعة في جنوب الـ URSS تلتقط المخابرات الصادرة عن الأركان الحليفة وتصدر الأقمار الصناعية الجاسوسية المناطق

العسكرية. حتى أن الأحاديث التي التقطتها وكالة الأمن القومي بيّنت أن رائدي فضاء سوفييتيين موضوعان على المدار كانا مكلَّفَين بنقل أكبر عدد ممكن من الصور عن مراكز الحلفاء وتأثير القصف إلى موسكو. زد على ذلك أنه كان لا يزال أكثر من مئة وخمسين مستشاراً عسكرياً سوفييتياً على الأقل موجودين في العراق. وقد تسلل عدَدٌ كبير من الكوماندوس داخل الخطوط العراقية حيث أقاموا ستاً وسبعين ساعة، مطمورين في الرمال نهاراً ومتنقلين خلال الليل مزوَّدين بنظارات «تحت الحمراء» تسمح لهم باختراق الظلام. كانوا لا يستعملون محطة الإرسال إلا نادراً. فلا يتلفظ كل رجل منهم بأكثر من ست كلمات: «Cougar» وهي الكلمة الرمز وتعني: كل شيء على ما يرام، يتوجب لفظ كلمة «Alligator» إذا اكتُشفوا وهُوجموا.

وَبيَّنت شهاداتهم الارتخاء المتزايد في الانضباط داخل الجيوش العراقية والفساد الخلقي عندهم. فقد أمضى أحد الكوماندوس أياماً عديدة وهو يلاحظ باستمرار نشاط مخيم عراقي عسكري، يقع على بعد بضع مئات من الامتار.

«كان ذلك أمراً غريباً ـ كما يقول الضابط الذي يدير المجموعة ـ لم نرَ أبداً جندياً يحمل سلاحاً؟؟ أو دورية قامت بواجبها. فقد بقوا عملياً بلا ردة فعل تجاه الغارات الجوية التي انهالت عليهم. كانوا يشبهون مدنيين تائهين في محيط عسكري». وفور مغادرة تشيني وباول، جمع شوارزكوف مساعديه وقال: «سنشن الهجوم البري في برهة من الزمن تقع بين الواحد والعشرين والخامس والعشرين من شهر شباط». هذا الخيار قد تقرر أثناء المناقشات الأخيرة التي أجراها مع رؤسائه قبل مغادرتهم ببضع ساعات. أما خيار النهار النهائي الذي أطلق عليه شوارزكوف

إسم «G» للهجوم البري فسيخبَر به خلال اسبوع.

تشيني يتكتَّم عن المعلومات

استقبل جورج بوش تشيني مساء الإثنين في ١١ شباط فور عودته من العربية السعودية. وكان قبل ذلك بقليل قد استقبل وزير الدفاع الإسرائيلي موشي أرينز الموجود في زيارة لموسكو. لم يكن الإسرائيلي أبداً قد استسلم حقيقة لقرار شامير القاضي بعدم الرد. فذكر رمايات السكود التي يستمر سقوطها على إسرائيل واضاف، أن على بلده أن تلعب دوراً أكثر فاعلية في النزاع. حتى أنه ذكر مبدأ عملية برية وجوية قد تستطيع إسرائيل شنها مباشرة بعد هجوم الحلفاء.

وبعد أن أصغى إليه باهتمام، أخرج بوش من أحد جيوب سترته ورقة تضمنت تفاصيل آخر احصاءات للرأي في إسرائيل: تمثلت بأن الأكثرية تعارض أي رد عسكري.

لم يكد تشيني يجلس أمام الرئيس حتى شرع يشرح له عرضاً عن الوضع يتسم بالتفاؤل: كانت القوات الجوية الحليفة قد شنَّت إثنين وستين الف غارة منذ السابع عشر من كانون الثاني، وبدأت آلة الحرب العراقية ـ حسب رأيه ـ في «الركوع».

ثم أنهى تشيني عرضه قائلاً: إن الجنرال شوارزكوف يعرض تواريخ بدءاً من الواحد والعشرين من شهر شباط». وافق بوش على تلك الفترة وحدد خياره في ٢١ شباط، الساعة الرابعة صباحاً بتوقيت الخليج، الساعة الثامنة بتوقيت واشنطن. ثم أوضح بوش قائلاً: إن هذا التاريخ قد يؤجل يوماً أو يومين إذا اقتضى الأمر.

تدارس الرئيس مع وزيره بدقة التدابير الواجب اتخاذها للحفاظ على

السرية التامة. فمنذ الثاني من شهر آب، لم يكن عدد المسؤولين الذين أسَرَّ لهم والذين اشتركوا في القرارات الرئاسية يتعدى العشرين شخصاً. فأولئك الرجال كانوا من ذوي التجربة السياسية الطويلة وحسن التصرف إزاء الأزمات. وكان بعضهم كتشيني مثلاً يملك فناً رائعاً في تكتُّم المعلومات والإلهاء عنها.

هكذا، ومباشرة قبل مغادرته العربية السعودية مطمئناً تمام الإطمئنان على ضخامة الضربات التي سددت للقوات العدوة، وعلى إخفاق بغداد العسكري، صرَّح وزير الدفاع الأميركي بإيجاز قائلاً: «إن العراق لم يزل يمتلك جزءاً مهماً مما كان يشكل الجيش الرابع في العالم».

الفصل الثامن عشر

مبادرات الساعة الحادية عشرة

في ١٤ شباط نقل شوارزكوف رسالة مرموزة إلى جميع قادة الوحدات، يعلمهم بها أن العد العكسي فيما يتعلق ببدء الهجوم البري قد بدأ. فتحرك الجيش السابع بعد ذلك بيومين في اتجاه الغرب. وتوغل عبر الصحراء بالتشكيل نفسه الذي كان سيتخذ خلال الهجوم. وكانت الأرمادا المتمددة عبر الصحراء هائلة لدرجة أن التحليق فوقها جميعاً استوجب أكثر من ساعة في الطائرة المروحية.

تلقى بوش في اليوم ذاته برقية مطولة أرسلها له غورباتشوف وتتضمن لمحة شاملة عن المناقشات التي أجراها مبعوثه الخاص إفجيني بريماكوف لتوّه مع صدام حسين في بغداد.

كان غورباتشوف في رسالته يشير إلى أن الرئيس العراقي قد «أظهر بعض التغييرات في موقفه» عندما ذكر بريماكوف الانسحاب الفوري وغير المشروط من الكويت انسجاماً مع قرارات الأمم المتحدة». كان غورباتشوف «يتمنى أن يبحث عن جميع امكانيات الحل السلمي وألا يشن هجوم بري» ويوضح أيضاً أنه سيستقبل طارق عزيز يوم الإثنين في ١٨ نزولاً عن طلب هذا الأخير.

بالنسبة لسكوكروفت وغايتس الذين طرح عليهما بوش السؤال، كان غورباتشوف عرضة للمزيد من ضغوطات العسكريين الميالين إلى حليفهم القديم، العراق، وكان عليه أن يظهر مقدرته ليس فقط على البقاء بعيداً عن الصراع بل على تخليص بغداد من الدمار. فقال سكوكروفت: «نعلم جميعاً أن غورباتشوف ولأسباب داخلية يحتاج الى

لعب دور، غير أن ما يجب خشيته هو أن مبادرات الساعة الحادية عشرة هذه، قد تفكك الائتلاف الذي أشرف على نهاية المطاف محققاً أهدافه».

أجاب بوش: «يجب علينا أن نرفض مبادرات غورباتشوف، ولكن بطريقة لا تضعه في موقف حرج».

في الخامس عشر من شهر شباط، أعلن العراق لأول مرّة عن امكانية انسحابه من الكويت. فأصدر بلاغاً صادراً عن مجلس قيادة الثورة أذاعه راديو بغداد، أن الحكم مستعد للتقيد بالقرار ٦٦٠ الصادر عن مجلس الأمن (الأول الذي كان قد صوت عليه) القاضي بانسحاب القوات العراقية من الكويت دون شرط.

وأرفق البلاغ بشروط عدَّة. علم جورج بوش الخبر في الساعة السابعة صباحاً وهو يشاهد التلفاز. كان لا يزال في جناحه الخاص يتناول الفطور.

نزل فوراً إلى المكتب البيضاوي بعد أن استدعى كل من تشيني، سكوكروفت وبيكر، وصل الرجال الثلاثة بعد ذلك بثلاث دقائق واجتمعوا إلى الرئيس داخل أبواب موصدة. أراد بوش نص العروضات العراقية كاملاً. وطلب سكوكروفت من وكالة أنباء حكومية FBIS أن تقوم فوراً بنقل ذلك النص فكان وابلٌ من البرقيات ـ حسب أحد الشهود ـ يصل إلى البيت الأبيض ومنه إلى المكتب البيضاوي.

كان بوش ومعاونوه غارقين في تفحص دقيق، وفي لحظة ما، قطع الرئيس الصمت متمتماً: «كلما تقدَّمت في القراءة، كلما ازداد النص رداءة.

عبَّرت لهجته في آن واحد عن الشعور بالذهول والارتياح. كان

العراق فعلاً يربط مغادرته للكويت بانسحاب إسرائيلي من الأراضي المحتلة ويشترط أنه في حال الرفض يجب أن تعاقب إسرائيل بالعقوبات ذاتها التي فرضت على العراق. وطلب العراق أيضاً إلغاء الديون العراقية «وسحب الأسلحة والتجهيزات التي كانت بعض الدول قد أمدَّت إسرائيل بها»، وفي ذلك إشارة واضحة إلى بطاريات صواريخ الباتريوت المتمركزة في الأراضي العبرية. وما أغاظ بوش بنوع خاص، مقطع من البلاغ يطلب من القوات الحليفة «إعادة تعمير ما هدَّمه العدوان في العراق».

عندما انتهت قراءة البلاغ، راح بوش وبيكر يتصلان هاتفياً بأهم حلفائهم لتقييم ردات فعلهم. فاتصل بوش خاصة بميتران وجون مايجور والملك فهد والرئيس التركي. فيما حاول بيكر الاتصال بألسكندر بسمرتنيخ. شغل الموقف الفرنسي مرَّة أخرى بال الأميركيين. وقد اطمأن بوش لدى ملاحظته أن ميتران يشاركه الشعور وقد قال: «إن المبادرة العراقية لم تأتِ بجديد أو بشيء ذي معنى».

في الواقع، كانت هناك مسألة دقيقة تطرح نفسها على المسؤولين الأميركيين: إذ تلقى بعض الناس الخبر بسرور في الولايات المتحدة وأوروبا، حتى أن بعضهم صرخ بصوت عالٍ «لقد انتهت الحرب». وكانت الجماهير الجذلة تنتشر في شوارع بغداد معبرة عن رضاها، مقتنعة بأن نهاية النزاع قد اصبحت وشيكة: لقد استنتج الرئيس الأميركي ـ حسب ما جاء على لسان بعض المقربين منه ـ أن العرض العراقي غير مقبول، بيد أن المسألة التي وجب البت بها هي التالية: «أي رسالة يمكن نقلها وتأخذ بعين الاعتبار حالة الرأي العام الفكرية».

إن الاستراتيجية التي خصها البيت الأبيض أثناء هذه الساعات

تظهر إلى أي حد بلغ إجراء الإدارة الأميركية في الحصول على نصر كامل على العراق. فقد توصل الساسة الأميركيون إلى «مناعة تامة بأن عرض صدام حسين يهدف قبل كل شيء إلى الاحتفاظ بالسلطة في حال توقف القتال. والحال أن الإبقاء على النظام العراقي قد يعتبر إخفاقاً بالنسبة لقوات الائتلاف، ويشكل خطراً بالنسبة إلى السَّلام في المستقبل وقد وضَعَ سكوكروفت وتشيني وغايتس اللمسات الأخيرة على هذه البراهين.

كان أول رد على البيان العراقي، تدخل جورج بوش عند الساعة العاشرة صباحاً، إذ ذهب إلى المبنى القديم للسلطة التنفيذية وهو بناء ضخم رمادي اللون، متاخم للبيت الأبيض، وحيث يعمل قسم من الإدارات التابعة للرئاسة. وكان وهو يجتاز النفق الذي يصل بين المبنيين يتناقش مع سكوكروفت حول آخر التفاصيل.

دخل على مجموعة من العلميين لعقد اجتماع سبق أن قرر منذ زمن طويل. وأجاب على سؤال حول العروض العراقية ووجهه يتسم بالجدية: «لقد أسعدت لدى سماعي ذاك البلاغ! لكن وللأسف يبدو أنه لم يكن سوى مهزلة مؤلمة». تدخل ريتشارد تشيني من جهته على شبكة السي. أن. أن. ليصرح بما يلي: «يجب أن يذهب صدام حسين. وسيشجع الرئيس رسميين عراقيين أو ربما بعض القادة في الجيش في حال بحثوا عن تشكيل حكومة جديدة في العراق». وحسب تشيني، إن في حوزة الولايات المتحدة تقارير تكشف عن خلافات داخل الجيش. وهذا برهان عارٍ عن الصحة. وبينما كانت هذه التأكيدات في الواقع، وقبل كل شيء رداً تكتيكياً.

أخذ البنتاغون من جهته يصعد اللهجة. وأخبر أحد معاوني تشيني

ما يلي: «لقد تلقت جميع طائرات الحلفاء الأمر بتدمير الأجهزة والمعدات العراقية التي ما تزال موجودة.

وسيقصف كل رجل يسير في دبابة أو شاحنة. الخلاص الوحيد بالنسبة للعسكريين العراقيين يكمن في التخلي عن كل شيء والانسحاب سيراً على الأقدام متجهين نحو الشمال أو الجنوب».

قبلة الموت

اتصل بسمرتنيخ بعد الظهر بجيمس بيكر الذي تعذر اتصاله به. كانت نوايا موسكو لم تزل تشغل الإدارة الأميركية. ذكر بيكر زيارة طارق عزيز لموسكو وأضاف: «سندعم هذه الوساطة شرط أن تؤدي لانسحاب عراقي دون شرط من الكويت».

حاور بسمرتنيخ بلغة انجليزية جيدة وأجاب بلهجة فيها شيء من الإنزعاج: «إعلم أنه لا يهمنا ولسنا مستعدين لقبول أي حل أقل من قرارات الأمم المتحدة».

في الوقت ذاته، وصل بوش إلى ماساشوست قاصداً المصنع المنتج لصواريخ الباتريوت حيث انتظره جمهور في حالة البهجة. وبينما أخذ يجتاز القاعة صرخ العمال "USA" "USA" وهم يلوحون بالأعلام الأميركية. وجلس الرئيس مبتهجاً على منصة انتصب وراءها صاروخ بالحجم الطبيعي: «بطل الحرب المفاجىء هذا ـ كما يقول أحد اداريي المؤسسة ـ بدأ حديثهُ بهذه الكلمات: «من أصل اثنين وأربعين Scud أطلقت، التقط واحد واربعون». ثم دعا في نهاية خطابه الثوري إلى ثورة شعبية أو إلى انقلاب في العراق: «هناك سبيل آخر لإيقاف حمى الدم. إن على العسكريين وعلى الشعب العراقي أن يأخذوا زمام الأمور بأيديهم

ليجبروا صدام حسين على التنحي».

ثم ذهب الرئيس الأميركي إلى ممتلكاته في كنيبنكبورت في «المايْن» حيث فكر بقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع عائلته. كان عليه أن يجد الردَّ الأحذق والأكثر مطابقة للضغوطات السوفييتية. وقد تأكد أنها ستتزايد كلما اقترب موعد الهجوم البري. في النهاية، قال أحد المقربين إلى بوش أنه كان عليه أن يعطي غورباتشوف قبلة الموت وأن يشكر السوفييتي على مبادراته التي لم تفلح بالوصول إلى نتيجة. قبل أن يغادر بقليل، أعطى بوش لمعاونيه بعض التعليمات: «يجب الرد بسرعة وفاعلية على العدو، لكن الأهم هو الاحتفاظ بالسيطرة الكاملة على «الروزنامه» التي حددناها».

ميَّز صباح يوم السبت الحادث الآتي: فيما كان بوش يحضر القداس في الكنيسة الصغيرة المصنوعة من خشب في «كنيينكبورت» تحرش به «جون شوشاردت»، أحدُ معارضي الحرب وعمره واحد وخمسون عاماً، فجلس قبالة الرئيس قائلاً بصوت قوي: «فكر بالثماني عشر مليون عراقي. إن نصفهم من الأولاد لا تبلغ أعمارهم الخامسة عشرة، إنهم كالذين يجلسون هنا في الكنيسة. يجب أن تذكر ما معنى أن تقصفنا أكثر من ألفي طائرة يومياً». بقي بوش جامداً، شاحب الوجه حين بدأ المصلون يقاطعون ذلك الرافض ويرتلون «فيبارك الله أميركا». حاول الرجل أن يتابع: «إنه سافل غير أخلاقي» لكن رجال الشرطة طوقوه وأخرجوه. وعندما خرج من القداس سُئل بوش:

ـ هل اضطربت من هذا الحادث؟

ـ ولا بأقل شيء.

وبعد الظهر تحدث على الهاتف مطولاً مع برانت سكوكروفت الذي بقي في واشنطن. كان إفيجيني بريماكوف مبعوث غورباتشوف الخاص الذي التقى مراراً صدام حسين في بغداد قد أدلى لتوّه بتصريح مفاده أنه من الضروري إيجاد حل يسمح للرئيس العراقي بإنقاذ ماء الوجه». ووفقاً للدراسة التي أجراها سكوكروفت، فإن بريماكوف زار بغداد ثلاث مرات، ولم يكن أحد قد تمكن من معرفة ماهية العروض التي يقبلها صدام حسين للانسحاب من الكويت بكرامة.

فبالنسبة لرئيس مجلس الأمن القومي لم يكن للمبادرات العراقية إلا هدف واحد: «خلق البلبلة والخلافات داخل الائتلاف». شاركه بوش أيضاً تحليله لغورباتشوف: «فهو لا يريد أن يضيع العراق، ولا يريد أن يضيعنا. إنه يعرف أن صورته كرجل سلام قد بهتت من جراء أعداد الموتى الذين تفاجأت بهم الجمهوريات البلطيقية، وهو يحاول الآن أن يصححها». لقد اقتنع الرجلان على السواء، بأن السوفييت يحاولون تنمية دورهم للغاية وتأثيرهم في منطقة الخليج، وذلك بغية أن تتهيأ لهم إمكانية الضغط على المفاوضات التي ستجري بعد الحرب.

غورباتشوف يُعلم الألمان أولاً

قطع طارق عزيز المسافة من بغداد إلى الحدود في سيارة أطفئت أضواؤها خوفاً من غارات الحلفاء. غير أن الأميركيين رفضوا وقف القصف تأميناً له. كانت ترقبه على بعد بضعة كيلومترات من الحدود طائرة عسكرية إيرانية.

وصل إلى طهران في السابع عشر من الشهر. وهي مرحلة كان يُخشى فيها من أن يذهب ضحية اغتيال. لقد حمل سلاحه باستمرار وحاول أن

يذكر مع المسؤولين الإيرانيين شروط عودة الطائرات التي لجأت إلى مطاراتهم. لم يقبل أي مسؤول البحث في هذا الموضوع، مما جعل عزيز يشعر بأسى عميق.

وفيما كان ينتظر إحدى الطائرات التابعة للطيران الروسي والتي أرسلها السوفييت لنقله إلى موسكو. أوضح أنه لا يحمل أية مبادرة جديدة للسلام: «لقدقمنا بتحقيق خطوة، والآن جاء دور الفريق الآخر لإظهار حسن نيته».

وصل عزيز ليل الأحد في السابع عشر إلى موسكو. ولم يبقَ فيها أكثر من ست عشرة ساعة. قابل بسمرتنيخ مرّة أولى فور وصوله، ثم التقى غورباتشوف وإلى جانبه بريماكوف. رافق عزيز نائب رئيس الوزراء العراقي سعدون حمادي.

استمرت المناقشات طوال صباح الثامن عشر راجع طارق عزيز الموقف العراقي مؤكداً أن بغداد لن تستسلم رغم عنف الهجوم. عرض لرئيس السوفييتي آنذاك مخططاً موسعاً. في نهاية عرضه، صرَّح غورباتشوف حسب ما روى بريماكوف: «إن عامل الوقت هو المهم لآن؟ إذا كنتم حريصون على حياة مواطنيكم وعلى مصير العراق، يجب ن تتحركوا فوراً».

وحسب بريماكوف أيضاً، فقد أجاب طارق عزيز وحمادي بما يلي: «نحن لا نمثل سوى جزء من الحكومة العراقية وينبغي علينا العودة إلى صدام حسين في أي موضوع كان. عاد وزير الخارجية العراقية إلى بغداد مباشرة. كان الثلج يتساقط على موسكو. بعد مغادرته استدعى غورباتشوف المستشار كول ليعرض عليه مضمون محادثته. فأراد من

اطلاعه رئيس الحكومة الألمانية على هذه المحادثات أن يستخرج ردود الفعل الأوروبية. وخلال حديثه مع «كول» ذكر غورباتشوف نقاط مخططه الأربع للسلام:

١ ـ انسحاب الجيوش العراقية غير المشروط من الكويت.

٢ ـ التزام الإتحاد السوفييتي بالحفاظ على الدولة العراقية وعلى حدودها.

٣ ـ معارضة موسكو لكل عقوبة ضد العراق وبالتالي ضد صدام حسين.

٤ ـ البحث في كل المشاكل العالقة بما فيها المسألة الفلسطينية.

أكد غورباتشوف لكول أن النقطة الأخيرة هذه، تلتقي مع البلاغ المشترك السوفييتي الأميركي الذي طاله النقد بشدة ونشر في التاسع والعشرين من كانون الثاني الفائت والذي يربط بين أزمة الخليج وحل مشاكل الشرق الأوسط.

أرسل غورباتشوف بعد ذلك نسخة من مخططه إلى البيت الأبيض. وقد أرفق النص ببضعة أسطر يرجو فيها المسؤول السوفييتي عدم «افشاء مضمونه». اطلّع عليه بوش بعد الظهر لدى عودته من العطلة الأسبوعية. كان الراديو في المروحية التي تقله موصولاً بمحطة «موسيقى البلد». وعندما حط على باحة البيت الأبيض. كان سكوكروفت في انتظاره فبادره بالقول: «يبدو أن السوفييت يريدون التحرك بسرعة كبيرة». مشى بوش إلى جانب سكوكروفت مصغياً إلى شروحاته. ثم قاطعه بصوت برزت فيه الحدية: «ولكن، لماذا لم يعلمنا غورباتشوف مسبقاً».

ولما وصل إلى المكتب البيضاوي، تفحص النص، ثم اتصل هاتفياً برئيس الوزراء البريطاني جون مايجور في لندن ليعرض له مضمون الهجوم الدبلوماسي الذي يشنه الإتحاد السوفييتي. أخبره أنه يفكر بردٍّ ذي مرحلتين: أولاً، إرسال برقيات إلى كافة شركاء التحالف تشرح لهم أسباب اعتبار الإدارة الأميركية الإقتراحات السوفييتية غير مقبولة. ثانياً، يتم وضع لائحة متطلبات يتوجب على بغداد قبولها قبل إعلان الحلفاء قرار وقف إطلاق النار. أجاب مايجور أنه يقبل بالإنضمام لهذه المبادرة الأخيرة. وقد استدعي القائمان بالأعمال السوفييتية في كل من واشنطن ولندن، لاستلام لائحة الطلبات ونقلها إلى بغداد عن طريق موسكو.

الفصل التاسع عشر

يجب أن تنتهي الحرب عندما نتخذ نحن القرار وليس قبل ذلك ولو بساعة

في صباخ التاسع عشر من شهر شباط، عقد بوش اجتماعاً مطولاً وهو محاط بكبار مستشاريه. كان الجو العام مشحوناً ضد موسكو. سأله تشيني متشنجاً: «إن بدء الهجوم البري مقرر حصوله بعد يومين. أمن الواجب الإبقاء على هذا التاريخ؟».

أجابه بوش: «حتى هذه اللحظة، لم يتغير شيء بعد».

كان الأمين العام في وزارة الدفاع ونائب الرئيس دان كويل الأكثر معارضة للضغوط السوفييتية.

وفيما انبنت انتقادات تشيني على أسس متينة، اتصفت انتقادات كويل بالانفعالية فقط.

فقد قال كويل في وقت ما: «فلنهمل غورباتشوف». نظر إليه بوش بقسوة: «كلا، يجب أن نكون أكثر هدوءاً».

ثم سأل تشيني: ما هي التأثيرات على القوات الحليفة في حال وقف القصف أو وقف إطلاق النار؟ أجاب تشيني: «وقف القصف سيسمح لجيش صدام بإعادة تجمعه. في الواقع إن كل توقف عن القصف أو وقف لاطلاق النار ستكون له عواقب وخيمة وحتى خطرة جداً على جميع الصعد بالنسبة لقواتنا».

أحدث بوش ردَّة فعل بدوره فأرسل برقية إلى غورباتشوف يوم الثلاثاء ظهراً. أشار له فيها بأن على الاقتراحات السوفييتية أن تلحظ توقيتاً محدداً وسريعاً للانسحاب العراقي من الكويت، وإلا قد تستغل

بغداد هذا الإهمال، فتوقف الحرب، ثم تفرض «روزنامتها» للانسحاب. وطلب أيضا إطلاقا فورياً لسراح السجناء، وتحديد أمكنة حقول الألغام.

كان بيكر قد تحدث بعد الظهر مع بسمرتنيخ ليقول له إن الإدارة الأميركية قد فوجئت وخاب أملها. لأنها لم تعلم مسبقاً بمخطط السلام. فأجاب الوزير السوفييتي: إننا لانفعل شيئاً في الخفاء عن الولايات المتحدة، لكننا أيضاً لم نصبح قوة من الفئة الثانية.

وقال أحد مستشاري البيت الأبيض فيما بعد: «كانت تلك لعبة غريبة، فقد حاول غورباتشوف إبان كل مبادرة جديدة، أن يوصلنا إلى نقطة حيث لا يعود بإمكاننا رفض اقتراحاته مع الانسحاب العراقي. وكان علينا في كل مرّة أن نجد ونضع شروطاً إضافية تسمح بتأخير هذا الخطر. لكن ـ كما قال أحدنا أثناء الاجتماع في المكتب البيضاوي ـ «يجب أن تنتهي الحرب عندما نتخذ نحن القرار وليس قبل ذلك ولو بساعة».

تعددت التصريحات. وفي اليوم ذاته، أكد الجنرال توماس كيلي، رئيس العمليات في الأركان، خلال مؤتمر صحفي أن صدام حسين ولو انسحب من الكويت مع جيوشه ومعداته، فإنه سيبقى قوة عسكرية شديدة القدرة في المنطقة». وأضاف جيمس بيكر من جهته كشاهد أمام الكونغرس: «إذا أبعد صدام عن الحكم، فقد تساعد الولايات المتحدة وغيرها من الدول في اعادة بناء العراق! وإذا بقي صدام في بغداد كالنمر الجريح، سيصعب أو يستحيل تأمين مثل تلك المساعدة».

وكان المفاوض السوفييتي بريما كوف يؤكد ما يلي: «يجب أن تتوقف المجزرة. لا أقول إن الحرب كانت مبررة من قبل، ولكن متابعتها الآن

ليس لها سبب معقول من أي وجهة نظر كانت. هناك شعب يهلك».

وفي تعليقه على انتقادات الرئيس الأميركي المتعلقة بمخطط السلام السوفييتي كان لبسمرتنيخ ردة فعل علنية لتأكيد ما يلي: «كان هذا المخطط موجهاً ضد زعماء العراق، وهم وحدهم باستطاعتهم أن يرفضوه. هذا المخطط لا يخص بوش».

لم يكن للمناورات الدبلوماسية هذه أي وقع على سير العمليات في «عاصفة الصحراء». فقد أنجزت طائرات الحلفاء في العشرين من شهر شباط ألفين وتسعمائة طلعة ضد أهداف في العراق والكويت. وكانت الـ B52 قد شنت هجوماً بالأمس على موقع أطلقت منه صورايخ SCUD على إسرائيل. ومنذ السابع عشر من كانون الثاني أُنجز أكثر من ثمانين ألف طلعة، وبقيت الخسائر الأميركية ضئيلة بشكل غريب: عشرون قتيلاً وسبعة وعشرون جريحاً وتسعة وعشرون مفقوداً وثمانية سجناء حرب. وكان سكوكروفت قد وجه تنبيهاً لقادة وحداته لأنهم بالغوا في استعمال قوة النار التي بحوزتهم. فمثة صاروخ «HellFire» سعر الواحد منها أربعون ألف دولار ومعدة لتدمير الدبابات الثقيلة. كانت قد استعملت فعلاً ضد مجموعة من الشاحنات وفرق المشاة.

السلاح في منظار السوفييت

أعلن بلاغ بثه راديو بغداد مساءً أن طارق عزيز سيذهب ثانية وقريبا إلى موسكو، حاملاً إجابة صدام حسين على مخطط السلام السوفييتي.

بعد توقف طويل في طهران، وصل عزيز إلى موسكو على متن الطائرة السوفييتية الخاصة الموضوعة تحت تصرفه. حطَّ حوالي الساعة

العاشرة في يوم الواحد والعشرين من شهر شباط في العاصمة السوفييتية. وكان غورباتشوف يتوقع قدومه في وقت مبكر، فلم يغادر مكتبه في الكرملين.

أصر الزعيم السوفييتي ـ حسب برياكوف ـ أن تبدأ المحادثات فوراً، على الرغم من أن الوقت كان متأخراً حيث أدى إلى إرهاق المشتركين. فصرّح غورباتشوف قائلاً: «لقد وصلنا إلى نقطة حساسة، فلنبدأ بالمفاوضات دون أن نضيع ساعة واحدة». غادر «فينالي إنياتنكر» المتحدث باسم غورباتشوف، مكتب الرئيس السوفييتي في الثاني والعشرين من شهر شباط عند الثانية والدقيقة الأربعين بتوقيت موسكو، إلى القاعة حيث كان الصحفيون في انتظاره. فحمل بلاغاً يتضمن موجزاً عن المناقشات التي أجراها غورباتشوف لتوه مع طارق عزيز.

ـ إن الجواب العراقي إيجابي. وقد توصل الفريقان إلى نتيجة مفادها أن إيجاد وسيلة تتيح مخرجاً للصراع العسكري هو ممكن.

ثم عرض بالتفصيل البنود التي وافقت عليها بغداد:

ـ يقبل العراق بانسحاب كامل وغير مشروط من الكويت.

ـ قد يبدأ الانسحاب في اليوم الثاني بعد وقف المعارك.

ـ يستأنف هذا الانسحاب في مدة معنية، إنما لا تحدد فترة إنهائه.

ـ ترفع العقوبات الإقتصادية التي فرضتها الأمم المتحدة ضد العراق فور إنهائه سحب ثلثي قواته الموجدة في الكويت. ويشمل الحظر كل التجارة ما عدا اللوازم الطبية والأغذية الضرورية لأهداف إنسانية.

ـ وترفع بقية قرارات الأمم المتحدة ضد العراق عندما تكون كل

القوات العراقية قد غادرت الكويت. وتضمنت هذه القرارات أيضاً دعوةً لإعادة الحكومة الكويتية إلى مركزها السابق قبل الاجتياح.

ـ يفرج عن جميع مساجين الحرب مباشرة بعد وقف إطلاق النار.

ـ يعين مجلس الأمن في الأمم المتحدة البلدان غير المشتركة في النزاع لتشرف على الانسحاب.

أكثر من ثلاث وثمانين دقيقة على الهاتف

بينما أخذ المتكلم باسمه يشرح هذه النقاط، كان غورباتشوف يتصل بجورج بوش. وفي تاريخ الواحد والعشرين من شهر شباط، كان هناك فرقاً في التوقيت بين واشنطن وموسكو.

وهذه نقطة حقيقية تثير الجدل وهي تتعلق بالوقت الدقيق الذي اتصل فيه غورباتشوف ببوش. يؤكد بريماكوف في روايته أن الرئيس السوفييتي قد يكون اتصل بالبيت الأبيض الساعة الرابعة صباحاً بتوقيت موسكو والتاسعة بتوقيت واشنطن. وفي الحال، كان بوش في تلك الساعة ـ كما روى بعد قليل ـ قد غادر البيت الأبيض ليحضر حفلة فنية في المدينة. وحسب مصادرنا قد تكون وصلت مكالمة غورباتشوف إلى بوش الساعة السادسة والدقيقة السابعة والأربعين، يعني الساعة الواحدة والدقيقة السابعة والأربعين في موسكو وقبل ساعة تقريباً من بدء المتحدث باسم غورباتشوف بإعلان الإتفاق. قد يكشف ذلك أن المفاوضات جرت بارتياح وبأقل دراماتيكية مما أراد أن يظهره السوفييت وأنه قد توخى المبالغة بمدة المفاوضات وذلك لإضفاء قيمة على المجهود الذي بذله غورباتشوف ومستشاروه وعلى النتائج التي حصلوا عليها.

ووفقاً لما أعلنه مارلين فيتزووتر، فقد دام الحديث بين الرئيس مدة

٨٣ دقيقة وهي المحادثة الأطول التي حصلت بينهما.

كان يوجد عدم تناسب كبير بين طول المبادلة في الحديث وتعليق فيتزووتر، حين سئل عن تقديره بالنسبة لنجاح الجهود السوفييتية الظاهر حيث أجاب، إن مبادرة موسكو «نافعة»، غير أن الرئيس كان لديه «مشاغل جدية» يرغب في مناقشتها مع حلفائه قبل إعطاء جواب نهائي. ثم أكد قائلاً: «لقد استؤنفت في هذه الأثناء العمليات العسكرية». كان البيت الأبيض في الواقع غارقاً في تشويش حقيقي. فقد أعطى بوش في الصباح أوامرلتشيني بتعليق شن الهجوم البري. وحين وصل الخبر إلى مقر القيادة العامة في الرياض راح رجال الكوماندوس يتسللون إلى داخل الكويت والعراق للقيام بعمليات تخريبية وتسهيل تقدم الحلفاء. وقد واجه شوارزكوف أسوأ الأوضاع التي يمكن أن تصادف قائداً عسكرياً. وهو: أن يكون تحت إمرته جيش لا يستطيع حتى اشعار آخر أن يعطيه أقل التوجيهات.

السبت في الثالث والعشرين ظهراً

كان تفادي المخطط السوفييتي أمراً في منتهى الدقة كما قال أحد الرسميين الأميركيين. فهو فعلاً يبعد بحذاقة الرابط الذي كان العراقيون قد أقاموه حتى ذلك الوقت بين انسحابهم من الكويت وإيجاد حل لبقية المسائل في الشرق الأوسط. وهو رابط أتاح للإدارة الأميركية التعبير عن ترددها والإكثار من اعتراضاتها. ووضع المخطط السوفييتي من ناحية أخرى جانباً، مبدأ عودة الأمير المعزول إلى الحكم ودفع أضرار الحرب العراقية.

كان غورباتشوف يضمن خاصة، حياة صدام حسين ونظامه.

وهاتان نقطتان، تصلب غورباتشوف بالنسبة لهما. والحال، ان استمرارية صدام السياسية والعسكرية بدت آنذاك كمشكلة «ليس فقط بالنسبة لبوش ولقادة الحلفاء العسكريين بل أيضاً بالنسبة لإسرائيل ولعدد من البلدان العربية الأعضاء في الائتلاف كما قال ذلك أحد أعضاء الإدارة». وبعد أن أنهى مكالمته الهاتفية مع الرئيس السوفييتي، قال جورج بوش لمعاونيه وقد بدا مهموماً:

ـ أريد أن أتجنب موقفاً قد يستطيع فيه صدام حسين الإفلات دون أن يدفع أي ثمن لقاء اجتياحه الكويت.

لقد قوى حذر الرئيس الأميركي أيضاً لغة بغداد المزدوجة: فبينما وافق طارق عزيز على المخطط السوفييتي، كان الرئيس العراقي يلقي خطاباً متلفزاً في خمس وثلاثين دقيقة حيث لم يذكر مرّة واحدة مخطط السلام. وقال خاصة: «سيصبح الشعب العراقي والقوات المسلحة أكثر تصميماً وعزماً، لو أخفقت مساعي السلم». ثم ختم قائلاً: «ستكون أم المعارك معركتنا الكبيرة للنصر والشهادة». كان بوش قد تابع هذا الخطاب من الغرفة المتاخمة للمكتب البيضاوي، ثم قرأ مع سكوكروفت وغايتس ترجمة الخطاب المتزامنة مع الإلقاء. وفي وقت ما استشهد بمساعديه مذهولاً:

ـ يبدو هذا الرجل مصمماً حقاً على متابعة الحرب.

كان على بوش أن يذهب في بداية السهرة إلى المسرح، وهو التزام لم يشأ أن يلغيه رغم الضغط المتزايد. فطلب من كبار معاونيه الذين كانوا يؤلفون «مجلس الحرب الخاص به» أن يفكروا برد واضح ومقنع. واتخذ قراراً بعقد اجتماع فور عودته.

وصل مع بعض التأخير إلى المسرح واندس برفقة زوجته في مكانهما.

كانت الرواية وموضوعها النسور السود تروي سلوك البطولة عند الطيارين السود خلال الحرب العالمية الثانية.

وفي نهاية الحفلة، انصرف بسرعة بعد أن صفق بحرارة للممثلين

في الساعة الثانية والدقيقة العشرين عاد إلى البيت الأبيض.

جرى الاجتماع داخل قاعة في الطابق الثاني التابع لجناح الرئيس.

تميز بعض المشاركين بألبستهم: فقد لبس كولن باول سترة رياضية؛ أما الديك تشيني ودان كويل وقد عادا لتوهما من حفلة عشاء نظمت على شرف ملكة الدانمارك، فكانا قد ارتديا «السموكن».

كان سكوكروفت وغايتس قد هيآ مذكرتين أعطيت نسخة منهما لكل مشارك. فالنص الأول يتضمن بالتفصيل الأفخاخ التي يتوجب من الآن وصاعداً تجنبها، كالرد بالتعبير عن متطلبات جديدة قد يقرر صدام حسين القبول بها. ويعدد أيضاً «المقاييس» التي يجب على الحلفاء أن يحكموا من خلالها على الانسحاب العراقي من الكويت، بأنه غير مشروط وقد يستحق تطبيق وقف إطلاق النار. فيما الثاني يتضمن برهنة من صفحة واحدة حول الأسباب التي تجعل من الإتفاق السوفييتي في العراق غير مقبول.

قرأ بوش المذكرتين وقال: «إنهما تعجبانني. يجب أن نؤلف بينهما، لكن ذلك غير كاف لإعلان عدم قبولنا المخطط السوفييتي. لقد تحدثت عن ذلك مطولاً مع غورباتشوف هاتفياً وقلت له بالتفصيل ما بدا لي غير مقبول، وهو أيضاً يعرف جيداً أن كل الاعتراضات التي أثرتها كانت مبررة. لكن علينا الآن أن نعطي برهاناً عن حسن نيتنا للعالم أجمع».

كان الرجال الثمانية حول بوش يفكرون والطقس لطيف على غير عادته بالنسبة للفصل، وليس من نار تشتعل في الموقد. وتجاه صمت معاونيه استطرد بوش في سرد ملاحظاته بصوت عالٍ: «يجب أن نفرض مقاييسنا من جديد. لسنا بحاجة لمخطط سوفييتي آخر نرفضه أيضاً وقد يليه مخطط جديد. لقد وجد من المخططات ما فيه الكفاية».

قال كولن باول: «لدي اقتراح، فلنعرض انذاراً محددين يوم وساعة انقضائه. مما قد يساعد أيضاً قادتنا لتخطيط عملياتهم».

هزَّ بوش رأسه قائلاً: «يعجبني هذا، إنها في رأيي فكرة ممتازة».

وافق الجميع على هذا الطرح وتناولت المناقشات موضوع اختيار التاريخ.

فقد أيد بوش استحقاقاً قريباً بدرجة قصوى. واعتبر سكوكروفت أنه من الواجب عرض فترة مقبولة في نظر الحلفاء. شاركه بيكر هذا الرأي مستطرداً: «وإن معنا ثمانية وعشرون حليفاً يجب أن ينضموا جميعاً إلينا».

عرض باول تاريخ الثالث والعشرين من شهر شباط، الساعة الثانية عشرة بتوقيت واشنطن قائلاً: «سيكون الليل قد هبط في الخليج، فتصبح المعارك الليلية في صالح قواتنا».

جال بوش بنظره على كل واحد منهم، فوافق الجميع، وتوقف عند بيكر.

ـ هل هذا موافق بالنسبة لك أيضاً يا جيم.

ـ أنا موافق تماماً، لكن يجب أن نشرح ذلك بسرعة لحلفائنا.

رضي بوش، ثم وقف عندئذ قائلاً: أجل. لقد اتفقنا، سيتم ذلك

يوم السبت في الثالث والعشرين ظهراً. كانت الساعة آنذاك الحادية عشرة والنصف. فذهب بوش إلى النوم بينما ذهب سكوكروفت وبيكر إلى مكتبهما ليتصلا هاتفياً بوزراء خارجية بلدان الائتلاف.

الفصل العشرون

الأمر الأميركي المفروض

في ٢٢ من شهر شباط، ومنذ الصباح، كان البيت الأبيض يغرق في نشاط مكثف. فخلال ساعتين تقريباً، اتصل بوش ومعاونوه في المكتب البيضاوي عبر العالم بأكثر من عشرين رئيس في الائتلاف. كان بوش الجالس في مكتبه يحضّر بنفسه بعض أرقام الهاتف. فتحدث مطولاً مع حسني مبارك والملك فهد وجون مايجور وفرنسوا ميتران. وكان بين كل مكالمتين يدون ملاحظاته وهو يتناقش مع جون سونونو ودان كويل. وفيما وقف بيكر بالقرب منهما وبيده هاتف نقال، جلس سكوكروفت على مقعد في الناحية الأخرى من القاعة وعلى أذنه سماعة ايضاً.

وعلى الرغم من الهيجان السائد في المكاتب وأروقة الرئاسة، لم يكن ليسيطر أي ضغط أو عصبية على المكان، حيث بوش ومعاونوه يعملون. أضفي على الأحاديث جو هادىء. حوالي الساعة التاسعة والنصف، توقف بوش عن الإتصال وكان قد حاول عبثاً الإتصال بغورباتشوف، وغرق في قراءة التصريح الذي من المقرر أن يلقيه بعد بضع دقائق، فيقرأ بانتباه كل سطر وفي يده قلم حبر مصححاً كلمات وصيغ، ثم يلتفت إلى بيكر ليطلعه على التعديلات التي أجراها.

قال أحد مستشاري الرئيس: «لقد لخّص لنا بوش الموقف بعد ذلك كما رآه: «يجب أن نقول للسوفييت إن ما قاموا به هو نافع جداً غير أنه في الواقع غير كاف، وإن عملهم أتاح الفرصة لاكتشاف تغيُّر ما، غير أنه أيضاً غير كافٍ». ثم أضاف هذا المعاون: «كان في نية بوش أن يقول لغورباتشوف في منتهى اللياقة: «أتركنا وشأننا».

ثمة نقطة شغلت بال الرئيس الأميركي، لا بل أصبحت هاجساً بالنسبة له: فلو طبق العرض السوفييتي، فسيسمح للعراق بالإنفلات من العقوبات الاقتصادية والسياسية وذلك بفضل إلغاء قرارات الأمم المتحدة. فبالنسبة لبوش، كان ذلك أمراً لا يطاق. فهو يتمنى نصراً عسكرياً يدمِّر آلة الحرب العراقية.

كان بوش قد طلب في مستهل رئاسته وضع لائحة تتضمن خلاصة الأولويات الأميركية فيما يتعلق بالأمن القومي. وكان مسؤولون من البنتاغون والسي.آي.إي. قد بحثوا هذا الموضوع مطولاً ونقلوا تقريراً سبق أن أثار اهتمام الرئيس لدرجة أنه لم يزل يحتفظ به على مكتبه.

كان النص يكرس جزءاً واسعاً للأخطار الناتجة عن الصراعات الإقليمية ويوصي الولايات المتحدة العمل دون لبس تجاه المخاطر الآتية من بلدان العالم الثالث. أكد النص ما يلي: «في حال وجدنا أنفسنا في مواجهة أعداء أضعف منا، فلا يجب أن نهدف فقط إلى الانتصار عليهم بل إلى النصر بسرعة وبشكل قاطع.

إن توريط قواتنا فعلاً في نزاع غامض أو إلحاق الضرر بهم في سبيل بلدان صغيرة معادية لنا، قد يشكل نصراً كافياً قادراً على إضعاف السند السياسي الذي نحن بحاجة إليه لنعمل ضدهم».

كان هذا التقرير حاضراً في ذهن بوش عندما قرر في ٢٢ شباط الإسراع في الأمور. ففي وقت ما، قال لبيكر الجالس إلى جانبه: «لا أريد يا جيم إطلاقاً أن تنتهي هذه الحرب في جو من الغموض». لم يكف فيتزووتر الواقف في وسط المكتب البيضاوي منذ الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين عن القول مترجياً: «يجب أن نذهب يا سيدي الرئيس، فكل شيء قد حضر منذ زمن طويل».

ـ دقيقة بعد يا مارلين.

أخذ يتحدث مع ميتران وهو يجري اللمسات الأخيرة في نصه. أما في الخارج فقد تململ الصحفيون وفرق شبكات التلفزة من الانتظار. أخيراً، ظهر في الحديقة الزهرية اللون أمام آلات التصوير في الساعة العاشرة. فوقف نائب الرئيس دان كويل وراءه، فيما تراجع قليلاً بقية الوزراء والمعاونين إلى ما وراء الأعمدة البيضاء، أما سكوكروفت وسونونو فوقفا جنباً إلى جنب.

بدأ الرئيس بوش قائلاً: «لقد قررت أن الوقت قد حان ليصبح ما ينتظر من العراق بالضبط معلناً في حال وجب تجنب الحرب البرية».

لم تقبل لهجة بوش أي تنازلات فقال: «... يجب على صدام حسين. البدء بانسحاب فوري غير مشروط من الكويت قبل يوم السبت ظهراً في الساعة الثامنة بتوقيت الخليج» فقد أراد الرئيس الأميركي جواباً علنياً رسميا جازماً يقضي قبول هذه الحدود قبل تلك الساعة.

لقد قرر الرئيس الأميركي أن يقطع على خصمه أي انسحاب وأن لا يترك له الخيار إلا بين هزيمة عسكرية شاملة أو استسلام دبلوماسي محقّر.

كان بإمكانه الاعتماد على مساندة الائتلاف له ليعلن شروطاً هي على الأرجح صعبة القبول أو التطبيق بالنسبة للرئيس العراقي. وتضمنت عبارات الاستسلام خاصة انسحاباً ضخماً من الكويت قبل نهار السبت ظهراً. وإضافة إلى ذلك:

ـ وجوب إتمام القوات العراقية انسحابها قبل مضي أسبوع.

ـ وجوب سحب العراق جميع قواته من مدينة الكويت لإتاحة عودة

السلطات الشرعية السريعة خلال الثماني والأربعين ساعة بعد انتهاء الإنذار.

ـ وجوب الانسحاب العراقي من جميع مواقعه المحصنة على طول الحدود السعودية الكويتية، والسعودية العراقية ومن جزيرتي بوبيان ووربة ومن حقل النفط في الرميلة.

ـ وجوب إعادة القوات العراقية خلال أسبوع إلى مراكزها التي قد شغلتها في الأول من آب.

ثم ختم المتحدث باسم البيت الأبيض، فيتزووتر الذي شرح هذه البنود قائلاً: «ستستمر الحرب كما خطط لها بانتظار قبول هذه الشروط».

معاينة خلاف

اتصل غورباتشوف بالبيت الأبيض الساعة الحادية عشرة والدقيقة الواحدة والثلاثين بتوقيت واشنطن. وقد حاول بعض مستشاريه حتى اللحظة الأخيرة أن يثنوه عن ذلك شارحين له بأنها محاولة قد أصبحت دون هدف ومن الممكن أن تبدو مذلة. بدا خائباً عندما أجيب عليه أن بوش ليس في مكتبه. فأحيلت المخابرة إلى بيكر الذي سأل السوفييتي: ـ «أتريد الانتظار يا سيدي الرئيس أو تتصل ثانية؟ سيعود الرئيس بعد بضع دقائق.

كان بوش فعلاً على بعد مئة متر في وزارة العمل حيث يحضر احتفالاً. وعند وصوله إلى المكتب البيضاوي، كان بيكر يتحدث منذ عشر دقائق مع الزعيم السوفييتي. كان الجهاز الذي يتيح التحدث بين الرجلين مهيئاً. وكان انطلاقاً من هاتف أحد المراكز في غرفة العمليات مترجم من وزارة الخارجية، فراح يترجم للرئيس الأميركي كلمات

غورباتشوف وقام بالدور نفسه في موسكو المتحدث المساعد في الرئاسة «سيرجي غريغوريين».

تكلم غورباتشوف بلهجة متفائلة. فقد سمحت مفاوضاته مع طارق عزيز الذي بقي في موسكو «بتطوير» المخطط السوفييتي.

فالانسحاب العراقي قد يدخل حيز التنفيذ في اليوم الثاني من وقف إطلاق النار وليس بعد يومين كما ورد في المخطط السابق. وحُددت روزنامة للانسحاب. وأخيراً لم يعد المخطط يلحظ وجوب رفع العقوبات الاقتصادية مباشرة بعد أن يكون ثلثا الجيوش العراقية قد غادر الكويت.

سأل بوش غورباتشوف: كيف يمكن أن نعرض مثل هذا المخطط على صدام حسين طالما أن طارق عزيز لم يزل في موسكو.

ـ أجاب غورباتشوف: لقد نقل بواسطة سفيرنا في بغداد، وأضاف: يعرف صدام حسين الإجابة بسرعة لأن الدقائق محسوبة عليه.

لقد حاول اقناع الرئيس الأميركي أن الأمر يتعلق بتنازلات جديدة انتزعت من طارق عزيز الذي حاول ـ حسبما قال ـ العودة إلى المخطط السوفييتي الأول.

أكد بوش مرّة ثانية أنه لن يغير شيئاً من الإنذار الذي أطلقه لتوّه. فثمة نقطة كانت تشغله: فهو يرفض عرض السوفييت مخططهم على التصويت في مجلس الأمن في الأمم المتحدة. فمثل هذه المبادرة في نظره، من الممكن أن تجبر الأميركيين على التهديد باستعمال حق الفيتو لأنها قد تستطيع أن تشكل نصراً سياسياً مهما بالنسبة للعراق. فأجاب غورباتشوف: سنحاول فقط مناقشة مخططنا في إطار الأمم المتحدة، ولن نطالب بالتصويت.

ذكر بوش آبار النفط الكويتية التي كانت قد هدمت. ثم أعلمه بالتقارير الأخيرة التي استلمها وتذكر اشتعال مئتي بئر تقريباً. وقال: «صدام منافق، فمن يستطيع أن يثق به؟» وانتهت المحادثة بعد ساعة ونصف بمعاينة خلاف. واتفق بوش وغورباتشوف على أن يجريا اتصالاً في حال طرأ عنصر جديد.

كان الأمر من الجهة الأميركية مجرد بند إنشائي بسيط. فلم يكن أحد يتمنى إثارة الموضوع مرّة أخرى.

كانت معظم المخابرات بين بوش وبقية الرؤساء تجري انطلاقاً من خطوط مرموزة محمية بفاعلية من كل إمكانية تنصت أو التقاط.

والحال، أن الحديث الذي انتهى لتوّه بين رئيس القوتين العالميتين الأساسيتين قد تم بواسطة خط هاتفي عادي.

وأسر أحد مستشاري الرئاسة للأشخاص القليلين الذين أودعوا هذا الخبر والذين تعجبوا من غياب التدابير الأمنية: «لماذا اتخاذ الاحتياط؟ أليس السوفييت هم الذين يحاولون غالباً التقاط أحاديثنا؟».

فريق عمل ملتحم

إن الإنذار الذي أطلقه بوش خلال فترة الصباح كان مثلاً توضيحياً جديداً عن الاستراتيجية التي تتبعها ادارته. فقد أكد فيتزووتر مايلي: «في الواقع أن إدارة أزمة، كأزمة الخليج عمل يشبه إلى حد بعيد حملة رئاسية، عليك أن تتحرك بسرعة وترد على الفور».

كان بوش كالذين يحيطون به متمرساً بهذه النشاطات. ويعتبر أن ربح حرب الموجات هو في أهمية الفوز في الحرب الجوية ذاتها».

قال أحد المستشارين: «إن طريقتنا كانت بسيطة في النهاية. فصدام حسين حين تكلم إلى راديو بغداد، قلنا: إن ما يعرضه ليس كافياً، والآن يعود ليطرح العروضات نفسها، ونكرر نحن بكلمات أكثر قسوة: لم يزل ذلك غير كافٍ».

كيف الرد؟ وما هو الوقت الذي تتوفر فيه العوامل الرئيسية؟

لقد حدد بوش ومستشاروه الاستراتيجية الآتية: وجوب الرد على مبادرات العدو عروضات كانت أم هجمات في بضع ساعات وإلا فرضت أدلته نفسها على وسائل الإعلام كخبر اليوم السائد.

هكذا في مساء يوم الخميس، وبعد إعلان السوفييت أن العراق قبل بانسحاب غير مشروط، أعلم البيت الأبيض أن الرئيس يشعر «بهموم جدية». بعد ذلك ببضع ساعات، اعتبر بوش ومستشاروه أنه من الواجب اعطاء جواب قاطع على المبادرة السوفييتية.

وكان ذلك القرار المتخذ يوم الخميس في نهاية السهرة يقضي بعرض انذار. ولكن لعلمهم أنه بسبب الليل قد تنقضي ثمان أو عشر ساعات قبل التمكن من إعلان مثل تلك المبادرة. وضع المسؤولون اللمسات الأخيرة على الرد. وبغية تهيئة الرأي العام اتخذ قرار بأن يوصف المخطط السوفييتي «بغير المعقول». لفظ مارلين فيتزووتر هذه الكلمة في الساعة العاشرة والنصف.

لقد اعتمد خبراء الخطط الاستراتيجية في البيت الأبيض والمراهنون على فارق الوقت الأمر الآتي وهو: إعادة نشر «ذلك الوصف» في اوروبا يوم الجمعة في كل الصحف وكافة وسائل الإعلام ليشكل خبر الصباح الرئيسي.

لقد أكد جون سونونو الذي لعب دوراً جوهرياً خلال مناقشاته أن «هناك مبدأ يضرب به المثل في السياسة يقول بأن ليس باستطاعتك التغلب على أحد إذا كنت لا تملك شيئاً. كذلك لا نستطيع أن نحارب مخططاً سيئاً كمخطط السوفييت إذا ما قمنا بعرض البديل، وبكلام آخر سيحتل السوفييت الساحة». وآلت هذه الملاحظة إلى اتخاذ قرار بعرض الإنذار. كان اخصائيو السياسة الداخلية الأميركية يعتبرون أنه قلَّ في الماضي وجود أمثلة على إدارة تعطي صورة بهذا التلاحم. كانت القرارات الهامة عامة موضع جدل. وحسبما قال أحد المراقبين: «لقد وجد في هذا المجال رئيس يعرف ما يريد في السياسة الخارجية ومستشارون يشاركونه الرأي كلياً مما أثر بعمق على ابقاء ائتلاف من ثمانية وعشرين بلداً وثيق الالتحام.

النص الحادي والعشرون

في انقاذ حياة
صدام حسين

غادر طارق عزيز موسكو بعد ظهر يوم الثالث والعشرين من شباط. وكان السوفييت كما يقول بريما كوف، قد لاقوا صعوبات هائلة لنقل عروضاتهم إلى بغداد. فقد توقف الهاتف بسبب القصف وكذلك أجهزة اللاسلكي في وزارة الخارجية العراقية. فانقطع الإتصال بين السفارة العراقية في موسكو وبغداد. وقد اضطر السوفييت لاستعمال أجهزتهم في ارسال الرسالة لصدام حسين عبر سفارتهم في العاصمة العراقية. ووصل رد الرئيس العراقي في ٢٣ شباط الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة بتوقيت موسكو وهو يقبل مجمل المخطط المعد في موسكو. كانت حينذاك الساعة الخامسة صباحاً في واشنطن.

بذل غورباتشوف حينها نشاطاً دبلوماسياً مكثفاً، فأرسل برقيات واتصل بزعماء عرب وغربيين أيضاً كفرنسوا ميتران، جون مايجور وجوليو اندريوتي. تحادث بوش وغورباتشوف مرة أخرى، حيث لم تزل نقطة جدل عالقة. أكد بريماكوف أن مبادرة الإتصال تعود لغورباتشوف. فيما أكد الأميركيون ـ كما تقول مصادرنا ـ أن بوش هو الذي قام بهذه المبادرة. دامت مخابرتهما ثمانٍ وعشرين ساعة.

قال غورباتشوف: ـ حسب بريما كوف ـ «إن موافقة الحكومةالعراقية شكلت تقدماً جوهرياً وأضفت منعطفاً جديداً على الوضع». وأصر على بوش تأجيل شن الهجوم البري إذا ما زال هناك فسحة أمل حسب رأيه.

ووفقاً لمصادرنا، فقد طلب مهلة «يوم أو يومين». بقي بوش متصلباً

وأجاب: «إن حدود إنذاري تمثل موقف التكتل الائتلافي الأخير». أصر غورباتشوف عندئذ على مطالبة مزدوجة من الرئيس الأميركي وتتمثل بالمحافظة على سيادة الأراضي العراقية وعدم تهديد حياة صدام حسين.

وكما قال أحد المعاونين المقربين إلى بوش: «لقد بدت هذه المعطيات فجأة وقد أصبحت حيوية بالنسبة لغورباتشوف وكأن الضغوطات الممارسة عليه قد تضاعفت أيضاً».

لم يتخذ بوش أي التزام، لكنه شكر الزعيم السياسي «على كل جهوده». وكرر له مرة جديدة الأسباب التي تعتبر جهوده غير كافية وأضاف: «إذا كنت لا تزال على اتصال مع العراقيين، فقل لهم: إنكم قد أخطأتم، إذ لم تصدقونا حين أعلنا شن الحرب بعد الخامس عشر من كانون الثاني؛ والجدير بهم الآن الاقتناع بأننا سنفعل بعد انتهاء مدة الإنذار».

في الوقت الذي انتهت فيه مهلة الإنذار كانت الساعة الثامنة في الخليج والثانية عشرة في واشنطن.

بين جنكليز موسيقيون في إذاعة القوات المسلحة الأميركية: غنى أحد المذيعين: «صدام! صدام! هنا الولايات المتحدة. لقد تأخرت»

كوابيس شوارزكوف

جلس شوارزكوف في مركز القيادة مشدود تقاسيم الوجه قائلاً لبعض الرجال المقربين منه: «أنا أنازع. حقيقة انازع. استيقظ خمس عشرة إلى عشرين مرة في الليل، وأعيد التفكير باستمرار في القرارات التي اتخذت أو ستتخذ. إن احتمال خسائر ضخمة هو كابوسي». فقد جمع في الصباح ذاته وللمرة الأخيرة مسؤولي الاستخبارات العسكرية، فأكد

لهم جميعاً حالة الجيش العراقي السيئة. كانت قوات بغداد تملك في أحسن الأحوال ما يكفيها من الاحتياط في الذخيرة اسبوعياً بالكاد ومن الغذاء والماء أيضاً. وإضافة إلى ذلك، وفقاً لتقديرات الحلفاء وحدها اثنا عشرة فرقة من ثلاث عشرة فرقة من ثلاث وأربعين حشدت في الكويت كانت لم تزل تمتلك سلاحاً فاعلاً. ويذكر أحد التقارير: «إن الذي يدهشنا خاصة هو كل ما دمِّر حتى الآن».

في الواقع، لقد بدأت الحرب البرية. وقبل بضعة أيام من انتهاء الإنذار، كان ثلاثة آلاف من المارنيز قد دخلوا خلسة إلى الكويت لتحضير الهجوم، وتوغلوا أكثر من عشرين كيلو متراً داخل الإمارة. انتهى هؤلاء الرجال إلى فرقة المارينز، وعليهم تقدير سرعة التقدم. كانت مهمتهم تقضي بإعاقة مواقع العدو، وبأسر سجناء، وإعطاء معلومات عن طريق الراديو تتيح لرمايات المدفعية وللقصف الجوي تصحيح أهدافهم قدر الإمكان.

أمضى شوارزكوف منذ عشرة أيام جزءاً مهماً من وقته على الهاتف، غارقاً في محادثات حادة تؤكدها غالباً أصوات عالية. أراد أن يكون بحوزة كل قائد فرقة، الصور التي أخذتها الطائرات الجاسوسة U_2 والتي تكشف بالتفصيل القطاع الذي يتوجب مهاجمته. إن تظهير هذه الصور، ثم إرسالها إلى الجبهة كان يستغرق من أربعة إلى خمسة أيام. وهي مدة طويلة جداً في رأي شوارزكوف: «إن عاصفة الصحراء»، أصبحت عملية عملاقة لدرجة أنها خلقت أحياناً بيروقراطية حقيقية بطيئة الاستجابة.

كان شوارزكوف وقد بلغ السخط منه كل مبلغ، قرر نهائياً أن يقتصر الرسمية الإدارية والتراتبية. فقد طلب من مسؤولي القوات الجوية أن يضعوا في تصرفه عدة طائرات نفاثة، مهمتها نقل الصور «الحساسة»

التي تكشف تفاصيل المراكز العراقية إلى الجبهة.

نفذ هذا الأسلوب بفاعلية تامة، فكان بين يدي كل قائد أميركي في الساعة «G» كليشيهات تكشف عملياً مراكز كل آلية عراقية موجودة في قطاعه.

لقد شكل خطر الهجوم الكيمائي النقطة الوحيدة التي لم يستطع محللو ادارات المخابرات اعطاء أجوبة دقيقة حولها. وكان الرجال المئتان وستون ألفاً الموجودون على الجبهة والذين يتهيأون لهجوم داهم قد ارتدوا بزاتهم الواقية.

ليس من جديد في الشرق

أصبح بإمكان إسرائيل أن تتابع عملياً من الآن وصاعداً، وعلى مدار الساعة، التحضيرات الأميركية والحليفة. فمواقع الوحدات والطرق التي سيسير فيها الهجوم، لم تعد سراً بالنسبة للمسؤولين الإسرائيليين.

كان مقر القيادة العامة في الرياض ينقل هذه المعلومات إلى البنتاغون الذي ينقلها بدوره إلى وزارة الدفاع في تل ابيب عبر الخط الخاص «Hammer Rick» الذي أحكم موقعه.

وفي وزارة الخارجية، كان دونيس روس على اتصال هاتفي دائم مع جيمس بيكر. كان هذا الرجل الشاب، أحد أقرب المعاونين لأمين عام سر الدولة والمسؤول عن التخطيط السياسي في وزارة الخارجية، يراقب جهود السوفييت الأخيرة لإيقاف ما لا بد من حصوله. فقد صرَّح «يوري فورونتزوف» وهو سفير الإتحاد السوفييتي في الأمم المتحدة أن طارق عزيز، قبل أن يغادر موسكو، ردَّ «بايجابية» على نقاط الإنذار الأميركي العشر. كانت تلك على الأقل شائعة ترددها وفود عدة إلى الأمم

المتحدة. وقد تفحص اختصاصيون في القضايا السوفييتية يعملون إلى جانب «روس» اقوال فورونتزوف حرفياً.

وقد صرح السفير في الواقع أن عزيزاً يجد «عناصر مقبولة» في المخطط الأميركي وأنه مبدئياً قادر على القبول ببعض أجزائه.

وذهب توماس بيكرينغ، السفير الأميركي في الأمم المتحدة لرؤية زميله.

ـ «يوري: هل يمكنك أن تشرح بدقة وتوضح ما هو مبهم في الملاحظات المنسوبة لطارق عزيز؟». أكد فورونتزوف وهو الدبلوماسي المجرب الذي سبق وأن شغل منصب نائب الوزير في الخارجية لبيكرينغ أنه سيتلقى من موسكو مزيداً من المعلومات يوردها له فور وصولها. انتظر بيكرينغ وبعثته ساعات متصلين بواشنطن إلى مكتب روس ليقولوا له: «لا شيء جديد لدينا».

استنتج الأميركيون أخيراً أن فورونتزوف يحاول فقط أن يربح المزيد من الوقت، ليسمح لجهود الوساطة التي تقوم بها موسكو بالوصول إلى نتيجة. وعندما عاد بيكرينغ لرؤيته قال له فورونتزوف:

في الحقيقة، هناك نقاط عديدة متشابهة بين مخططكم ومخططنا. يجب أن نعمل معاً لنحصل على مخطط متكامل.

نهاية العالم الآن

لقد ألهبت المبادرات السوفييتية ورفضها من قبل واشنطن الأمم المتحدة كلياً. غير أن بوش كان قد تحرر ـ بقيادته الدبلوماسية الخاصة وباستشاراته هاتفياً في الأمس كلَّ حلفائه ـ من الإجراءات المتعلقة بالأمم المتحدة. حتى أنه لم يذكر «وقف» عمليات القصف الضروري تقنياً،

حسب رأي بعض الاختصاصيين، لانسحاب الجيوش العراقية.

«لا ينسحب الناس تحت القنابل» هذا ما صرَّح به السفير الجزائري في الأمم المتحدة.

إن اللامبالاة الأميركية هذه، بعد أن صوَّت مجلس الأمن على اثني عشر قراراً كانت تؤلم بيريز دوكويار الذي قال: «قد يصبح الأمر مأساوياً للغاية لو ضاعت الآن الفرص التي اوجدتها الوساطة السوفييتية».

أمضى بوش نهار السبت الثالث والعشرين في كامب ديفد. وقال كل من اقترب منه أن القلق كان بادياً على وجهه.

لقد شارك في ذبيحة دينية طلب خلالها المحترم الأب «جون هاربر» من الحضور أن يصلوا لكي «تنتهي الحروب عبر العالم». ثم تحادث بوش قليلاً مع رجل الكنيسة وقضى كل نهاره برفقة جيمس بيكر.

فعملا معاً على مشروع حرره سوياً اخصائيو وزارة الخارجية والبنتاغون وفيه تصور لأجهزة الأمن التي قد تطبق في الخليج بعد الحرب وطبيعة الوجود الأميركي في هذه المنطقة في نهاية النزاع. ظل بوش على اتصال دائم بكولن باول. ولما انقضى الظهر وهو ساعة الإنذار بقي الوقت المختار لبدء الهجوم منوطاً بقرار شوارزكوف دون غيره، وكان قد اتخذ قراراً قال إنه لن يعلنه إلا في آخر لحظة لأسباب أمنية.

في الساعة الثامنة اتصل رئيس الأركان ببوش.

ـ سيدي الرئيس، لقد بدأت العمليات لتوِّها. كانت الساعة حينذاك الرابعة في الخليج.

غادر بوش وبيكر كامب ديفد الساعة التاسعة. استغرق التحليق

في المروحية نصف ساعة، وحطت في حديقة البيت الأبيض الساعة التاسعة والنصف. توجه بوش بسرعة إلى المكتب البيضاوي حيث كان معاونوه في انتظاره. فسألهم وهو يجتاز القاعة:

ـ «إذاً، هل من جديد؟». كانت الحرب البرية قد بدأت منذ ساعة ونصف، وبعد ثمانية وثلاثين يوماً من الهجوم الجوي. كان هذا الهجوم في آن واحد «ضربة معلم» هائلة ومحاولة التفاف ضخمة تمت بمنتهى النجاح.

اخذ شوارزكوف «المتشنج للغاية» وفقاً لأقوال أحد المحيطين به، يتتبع تقدم وحداته من مقر قيادته. كانت القوات البرمائية وخاصة سفن الإنزال تنقل رجال المارينز وتجول في عرض الخليج.

إن خطر هجوم من البحر كان يهدف إلى «جذب» انتباه العراقيين في وقت اخذت تتحرك فيه القوات الداخلة في الحرب نحو الغرب.

راقب شوارزكوف بنوع خاص تحركات فرقة المشاة المؤللة الرابعة والعشرين، التي كان يقودها سابقاً والمجهزة بدبابات لتكون في طليعة هجوم الحلفاء.

كانت الفرقة Docguet التي يرافقها لواء من الفرقة الثانية والثمانين الأميركية المحمولة جواً تتقدم باتجاه شمال شرق، بينما كانت الفرقة مئة وواحد المحمولة جواً تشن هجوماً على اهداف واقعة في جنوب غرب العراق؛ وقد أقامت مئة مروحية تابعة للفرقة مئة وواحد، قاعدة تموين سميت «كوبرا» على بعد تسعين كيلو متراً شمالاً داخل العراق. وأمنت ثلاث دفعات هجومية بمروحيات قتال قطع الطريق العريض ذا المسالك الستة والتي تصل بغداد بمدينة البصرة الكبيرة في الجنوب. «gold»: هو

الإسم المرموز للمقاطعة التي وجب على الفرقة مئة وواحد أن تحيدها وهي منطقة واقعة بين مدينة الطليل غرباً ومطار جليبا شرقاً.

لقد اكتشف الأميركيون في طريقهم الفاً وسبعمااية بنكر مليئة بذخيرة واسلحة ومحروقات. وقد اذهلت المقاومة الضعيفة التي أبدتها القوات العراقية، الضباط والجنود الأميركيين. بدأ الجنود يستسلمون بالآلاف. وقد دمَّرت فرقتان من المارينز كلياً ثلاث فرق عراقية هي التاسعة، الرابعة عشرة والعشرين. كان تقدم القوات الحليفة سريعاً لدرجة أدت بشوارزكوف إلى اعطاء الأوامر لفيلق الجيش السابع بالتحرك، وذلك قبل الوقت المحدد له بأربع عشرة ساعة.

وكانت القوة التي تحركت واجتازت الحدود من عشرين نقطة تتألف تقريباً من الف دبابةM-1A1A brams ومن آلاف الآليات المصفحة الأخرى التي شقت لنفسها ممراً عبر فرق عراقية عديدة. وقد تقدمتها بخمسة عشر كيلو متراً إلى الأمام تشكيلة من مروحيات القتال، وهاجمت فرقة Tawalkaua وهي فرقة من قوات الحرس الجمهوري العراقي.

تراجعت القوات العراقية الخاصة المختارة، والتي اصيبت في العمق، فوجدت نفسها قد حوصرت بين فكَّي كماشة على يد وحدات فيلق الجيش الثامن عشر المحمول جواً. قال شوارزكوف: لقد أبدى بعض العناصر منهم «مقاومة عنيدة»، أما البعض الآخر فترك معداته وهرب باتجاه مدينة البصرة القريبة.

كان فيلق الجيش السابع يتقدم رغم رداءة الطقس والضباب بمعدل ثمانين كيلو متراً يومياً داخل اراضي العدو.

جمع جورج بوش كبار معاونيه في جناحه الخاص مساء الرابع

والعشرين من شهر شباط. كان كولن باول قد وصل حاملاً خرائط تظهر كل تفاصيل الهجوم. لم يكن أحد الحضور قد شك بنجاح القوات الحليفة، ولكن كما يقول باول: «إن السرعة التي أُنجز فيها النصر كانت «حقاً مذهلة».

وكشفت التقارير الأخيرة عن وجود عشرات الآلاف من الجنود الذين استسلموا دون قتال وهي اكثرية كبيرة.

وقد اجتاز فيلق الجيش الثامن عشر المحمول جواً وعلى رأسه فرقة المشاة الرابعة والعشرين بأقل من اربع وعشرين ساعة. الفرات ووصل على بعد مئة وثمانين كيلومتراً من بغداد.

وعلى بعد ستين كيلو متراً تقريباً غرب البصرة، جرت معركة دبابات. فكانت فرقة حمورابي التابعة للحرس الجمهوري تحاول صدَّ تقدم الفرق المدرعة الأميركية الأولى والثالثة. فجابهت ثمانماية دبابة من طراز Abromst ثلاثماية أخرى من طراز ت٧٢ السوفييتية الأكثر اتقاناً. لم يكن القتال في الواقع متساوياً ابداً. فقد دمَّرت وحدات الفرقة العراقية تدميراً كاملاً، إذ قصفتها دون توقف طائرات A10 ومروحيات Apache «قاتلات الدبابات» التي رمتها بصواريخها» «نار الجحيم». في قاعدة القيادة الكبيرة في مقر القيادة العامة في الرياض اشارت الخرائط المعلقة على الجدار إلى المواقع الصحيحة للقوات العدوة. وكانت هذه الخرائط تنقح منذ ستة اشهر يومياً. فأكثر من نصف الوحدات العراقية قبل الهجوم، كانت تعلوها نقطة خضراء. ومعنى ذلك أن القصف الجوي قد خفَّض طاقاتها القتالية إلى النصف على الأقل. أما وحدات الحرس الجمهوري فقد بقيت حتى النهاية تعلوها نقطة حمراء تشير إلى أنها لا تزال تحتفظ بقواتها التي لم تمس تقريباً.

تحطيم اسطورة صدام حسين

في السادس والعشرين من شهر شباط، وعند الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والثلاثين صباحاً، الخامسة والنصف في الخامس والعشرين من شهر شباط بتوقيت واشنطن، قطع راديو بغداد برامجه ليعلن بصوت احد مذيعيه: «لقد اعطيت الأوامر لقواتنا المسلحة بالانسحاب بشكل منتظم إلى المراكز التي كانت تشغلها في الأول من آب ١٩٩٠ «عشية اجتياح الكويت» وذلك تطبيقاً لقرار الأمم المتحدة رقم ٦٦٠».

فاجأت المبادرة العراقية الإدارة الاميركية. كان جورج بوش في تلة الكابيتول وهو حيٌّ في واشنطن يلعب بكرة المضرب مع ممثل ميسوري «سوني مونتغو ميري».

اتصل به برانت سكوكروفت الذي علم بالخبر لتوِّه. فاضطر بوش وقد خاب امله أن يقطع مباراته. وبعد أن استحم بسرعة، عاد إلى البيت الأبيض حيث بيكر وغيره من معاونيه في انتظاره.

كان قد قضى قسماً كبيراً من النهار في متابعة تفاصيل العمليات. وقد بقي في الصبحية منفرداً مع باول وتشيني ثم ولأول مرّة منذ السابع عشر من شهر كانون الثاني وهو تاريخ شن الحرب كان قد استعمل الخط الخاص الذي يصله بنورمن شوارزكوف. ولم يكن قبل ذلك، خلال العمليات الجوية والبحرية قد حاول الإتصال بقائد القوات الحليفة.

قال الرئيس: «هائل العمل الذي قمت به يا نورم! أي فاعلية ممتازة هذه!».

انتهى الاجتماع الذي انعقد بعد الظهر بحكم اعلنه بوش: «إن

الإعلان العراقي بقبول القرار ٦٦٠ فقط، وهو الأول من اثني عشر قراراً صوّت عليه مجلس الأمن كان «مبهماً» واتخذ قراراً بعقد اجتماع آخر في بداية السهرة.

في الثانية والدقيقة الخامسة التقى بوش مستشاريه خلال خمس وسبعين دقيقة. أما اللقاء المنتظر في المكتب البيضاوي، فقد ارجىء بسبب الحادث التالي: فقد اشتعلت نار الموقد، واجتاح دخانها الأسود المكتب الرئاسي. فحمل الكثيرون من اعضاء دوائر الأمن طفايات يرشون بها عبثاً لإطفاء النيران. وسرعان ما ملأت سحب الدخان الملتفة كل الجناح الغربي في البيت الأبيض. اهتم بوش أولاً بآخر اخبار واردة من الجبهة: إذ اشارت إلى أن القوات الحليفة - وبخاصة فرقة المشاة المؤللة الرابعة والعشرون، اصبحت على وشك انهاء مناورات التطويق. وكشفت التقارير أن الجيوش العراقية انتهزت فرصة المكان الذي لم يزل حاراً للهروب والصعود نحو الشمال. صرح احد المشاركين قائلاً: «لا يجب أن نترك لهم سبيلاً للهرب. لم يقولوا شيئاً بالنسبة للإعتراف الرسمي بالكويت أو بالنسبة لمسألة التعويضات وقضية سجناء الحرب».

لقد كان تدخل كولن باول على الأرجح قاضياً حيث قال: إن المعلومات التي سبق أن استلمتها بالضبط قبل ذهابي إلى الرئاسة كشفت أن الجيش العراقي اصبح على حافة الانهيار: حتى أن قادة الألوية لم يعد باستطاعتهم الإتصال بكتائبهم.

«إننا على وشك انهاء العمل، فخلال يومين، قد ينتهي كل شيء، ولن يعود هناك عدو ما، فبالكاد بقي بعض القناصة وبعض المجموعات المعزولة».

واضاف تشيني متكلماً عن صدام حسين: «علينا أن نحطم الأسطورة بمقدار ما نحطم قدرتها». بوش شارك تشيني في نظرته لهذه الأمور. فإن على الزعيم العراقي الذي طالما انتقد وسخر من اعضاء الإئتلاف العرب، حسب رأي الرئيس الأميركي أن يذوق طعم الهزيمة العسكرية، وأن يعرف الإذلال السياسي الذي قد يخزيه نهائياً تجاه الرأي العام العربي.

إن هذا النمط من السلوك، عبَّر عنه في أحد البلاغات مارلين فيتزووتر ـ فقد طلب «التزام صدام حسين خطياً وعلناً بانجاز الانسحاب من الكويت وبالانصياع للشروط التي وضعها البيت الأبيض يوم الجمعة الفائت».

كان سكوكروفت، غيتس، بيكر وبوش يتبعون أيضاً ما يجري في مبنى الأمم المتحدة الزجاجي. فقد طلب السوفييت انعقاد دورة رسمية لمجلس الأمن. وكان نائب رئيس وزارة الخارجية في موسكو يصف انسحاب القوات العراقية من الكويت «بأنه عنصر رئيسي في الوضع».

خلال الاجتماع الذي انعقد خلال الليل، نقل الوفد السوفييتي أن العراق كان قد اعلم غورباتشوف استعداده للانسحاب دون شرط من الكويت وأن الأوامر قد اعطيت في هذا الصدد للقوات الموجودة على الأرض.

لقد اكد اعضاء آخرون في مجلس الأمن أن بغداد لم تكن تقبل الإلتزام إلا بالقرار ٦٦٠ وليس بالأحد عشر قراراً التي صوّت عليها ضده.

زد على ذلك أن العراقيين كانوا دائماً يرفضون الشروط التي تفرضها واشنطن.

سيد الخطأ

نقل بريهاكوف أن مراسلي الصحافة الغربية سألوا مستشار غورباتشوف الصحفي عن اسباب عدم كشف العراق كل «تحفظاته» عندما جرت محادثات طارق عزيز في موسكو. أجاب «انيا تنكو»: لقد سألناه بإلحاح خلال المناقشات مع طارق عزيز «أن يوضح» كل ما بوسعه فيما يتعلق بالشروط التي ينص عليها الإنذار الأميركي. لكن مرة أخرى قد فرضت العادات العراقية نفسها. وحده صدام حسين بإمكانه أن يقرر».

في السابع والعشرين من شهر شباط، شدد المسؤولون الأميركيون الضغط على صدام حسين. وكانت المجموعة الصغيرة من الرجال الذين يقودون الحرب قد وجدت صيغة ينعتون بها الرئيس العراقي وهي: «سيد الخطأ».

استحق صدام حسين ـ ذاك اليوم ـ هذه الصفة تماماً: ففي خطاب عبر الإذاعة، اكد أن قواته التي اعطاها لتوه اوامر بمغادرة الكويت قد سجلت «انتصاراً مهيباً بصراعها مع قوات ثلاثين دولة مسلحة». ثم تكلم «عن الشرق والتضحيات الشجاعة». واضاف: «إن العراق مثل للمؤمنين» في نهاية «معركة ذات الأبعاد الملحمية بين الخير والشر».

بعد أن اتخذ علماً بالخطاب الذي بثه الراديو، بدا بوش ـ حسب مرافقيه ـ «ساخطاً». فظهر مرّة أخرى امام الكاميرات في الحديقة الزهراء حيث اعلن انذاره قائلاً: «لم تنسحب قواته، لكنها تفككت، وها

هي تنسحب. إنه يحاول أن يعلن النصر في وسط الطريق». ثم اتهم الزعيم العراقي «بأنه يحاول أن يرتب قواته من جديد ليقاتلوا يوماً اضافياً. وصرّح ايضاً أن الهجوم سيتابع «دون أن تخف حدته».

كانت العلاقات، بموازاة ذلك، وخلال هذه الفترة، قد تأزمت من جديد بين اسرائيل والولايات المتحدة. فكان كثير من المسؤولين الإسرائيلين يخشون أنه إذا ما انتهت الحرب، فقد تضاعف واشنطن ضغطها على اورشليم للتوصل أخيراً إلى ايجاد حل للمشلكة الفلسطينية.

إن التصلب بين البلدين قد عززه تردد بوش وادارته في اعطاء مساعدة مالية للدولة العبرية. وكانت إسرائيل ـ وفقاً لبعض المصادر ـ قد طلبت ثلاثة مليارات دولار للتعويض عن الأضرار التي تكبدتها خلال الحرب، اضافة إلى عشرة مليارات دولار لإسكان اليهود السوفييت. وهذه مبالغ اختلفوا بشأنها لكن احد الرسميين الأميركيين كان قد ذكر في مجلس خاص أن الموقف الإسرائيلي يشكل «ابتزازاً حقيقياً».

كان شامير، بغية التهيؤ لما بعد الحرب، قد رفض اعطاء أي تنازل إسرائيلي لمصلحة جيرانه العرب وادخل في حكومته عدداً معيناً من الشخصيات الممثلة باتجاهاتها القومية المتطرفة.

الفصل الثاني والعشرون

نصر ساحق

في السابع والعشرين من شهر شباط، دخلت القوات ا لحليفة مدينة الكويت، فهتف لها السكان .

وهكذا تكون ثلاثة ايام من القتال البري قد انهت لتوها ستة اشهر من الإحتلال. وكانت فرقتان من المارينز قد احكمتا الطوق حول المدينة، وسمحتا للجيوش العربية بالدخول اليها عند الفجر، فيما لم يتحرك الأميركيون نحو ضواحي المدينة إلا بعد الظهر حيث شقوا طريقهم بصعوبة داخل الجماهير المبتهجة .

إن أول ما رواه الجنود والضباط الأميركيون، كشف عن استغرابهم إزاء واقع الجيش العراقي، إذ توقعوه عدواً رهيباً بالعديد والعتاد. قال احد الضباط: «كنا مذهولين تجاه تلك الجيوش التي لم تكن مجهزة لا بالعتاد الثقيل ولا بالعديد الهجومي .

اكتشفت القوات الخاصة في مبنى قبالة السفارة الأميركية كان يستعمل كقاعة اجتماع للأركان العراقيين، مخطط دفاع عن الكويت بشكل «ماكيت» .

وهو تشكيل ضخم صمم لمقاومة هجوم آت من البحر، وقد اعد بأدق تفاصيله .

كان التمويه الإعلامي الذي جعلهم يؤمنون بهذا النوع من الهجوم قد أصاب الهدف تماماً. وقد تابع شوارزكوف الهجوم ضد مدينة الكويت

من مركز قيادته المتحرك الواقع في الصحراء والمتصل هاتفياً بجميع الوحدات.

ووضع خريطة هائلة على الرمل، واخذ يلقي نظرة إجمالية على آخر تفاصيل الهجوم وهو محاط بمساعديه. كان القائد الأعلى لقوات الائتلاف مبتهجاً في آخر ذلك النهار، غير أنه حاول ابعاد كل الفرضيات القائلة بأن القوات الحليفة كان لديها مخططات سرية فيها يتعلق بمستقبل العراق. «نحن على بعد مئة وخمسين ميلاً (١٨٠ كيلو متر عن بغداد) وليس بيننا وبين العاصمة العراقية شيء. فلو كان في نيتنا احتلال العراق وتدميره لاستطعنا فعل ذلك دون أن نواجه أي مقاومة... لكن نيتنا كانت في طرد العراقيين خارج المدينة وتدمير القوة العسكرية التي جيىء بها إلى هنا».

وبينما كان العلم الكويتي يرتفع فوق العاصمة، اشتبكت الف وخمسماية دبابة اميركية وبريطانية في معركة شرسة ضد قوات الحرس الجمهوري في جنوب شرق العراق. كان قائد الفرقة المدرعة الأميركية الأولى الذي شاركت قواته في المعارك على اتصال بالراديو مع مساعده في الجبهة. وقد قال في وقت ما: ـ هل أنتم تواجهون الفرقة «مدينة» (وهي إحدى الوحدات الرئيسية في قوات الحرس الجمهوري).

أجاب مساعده: كلا يا سيدي، لقد دمرنا الفرقة «مدينة».

وقد أحرز المئتان والستون ألف جندي أميركي، بريطاني، فرنسي وعربي الذين شاركوا في هذا الهجوم نصراً ساحقاً. واستخدمت الفرقة المدرعة فقط من ١٠ إلى ١٥٪ من أصل سبعين ألف طن من الذخيرة وضعت تحت تصرفها في المستودعات. لقد تسربت من الأركان بعض

الأخبار، ومن ذلك قول أحد الضباط الكبار: «لم نفعل شيئاً سوى تطبيق المذهب العسكري المعد لمقاتلة القوات السوفييتية. فقد هيأت نفسي خلال كل مهنتي لهذه الحرب، والفارق الوحيد هو في أن الساعة قد تغيرت، وكنا ننتظر أن نحارب في اوروبا».

حرب المئة ساعة

كان السرور في البيت الأبيض تاماً. فبدا وكأنه نصر على جميع الصعد، حتى المالية منها. وقد أجرت دوائر الرئاسة تقييماً بالأرقام لهذا الصراع. فشكلت القوات الأميركية ٧٠٪ وأكثر من سبعمائة واربعة واربعين الف رجل جندوا ضد العراق، غير أن نسبة ٨٨٪ من تكاليف الحرب قد تحملتها بلدان أخرى لا سيما السعودية الكويت، واليابان والمانيا.

قطع بوش الاجتماع الذي كان يرأسه فور علمه بتحرير الكويت، واتصل هاتفياً وعلى الفور بالأمير جابر في فندقه بالطائف. بدا الأمير الكويتي الذي اضطرب حتى البكاء غير قادر على التكلم.

وإثر المحادثة هذه، قال الرئيس الأميركي لمن أحاط به:

ـ اعتقد أنه باستطاعتنا الآن انهاء الحرب.

ـ لكن تشيني وباول تمنيا تمديد القتال ثمانٍ واربعين ساعة أخرى. «إنه الوقت الذي يلزمنا ـ قال أحدهما ـ لتدمير القوات العراقية تدميراً تاماً وهي على متناول مدافعنا وإلا تمكنت من النجاة».

لم يكن بوش يشاركهما هذا التحليل. فهو يعتبر أن تدمير العراق العسكري أصبح تاماً تقريباً وأن متابعة القتال لا تغير شيئاً. كان يرغب باتمام وقف النار في المساء ذاته.

ـ «إذا اعلنت أن وقف اطلاق النار سيصبح فعلياً هذا المساء، بدءاً من نصف الليل، تكون الحرب البرية قد دامت بالضبط مئة ساعة».

بالنسبة لبوش الهاوي للرموز والصيغ التي فيها من القوة ما يلفت انتباه الرأي العام، كانت تلك مناسبة يجدر الاستفادة منها.

فأكثرية مستشاريه في الإعلام يدفعونه أن يلعب فعلاً على هذا التعبير «حرب المئة ساعة». قال احدهم: ستكون هذه الكلمات على الصفحات الأولى في كل الجرائد. تذكروا جيداً، إن حرب الأيام الستة لم يزل ذكرها ماثلاً حتى اليوم».

لقد ورد هذا التشبيه مع النصر الإسرائيلي الخاطف عام ١٩٦٧ باستمرار في براهينهم. وقد تساءل الاختصاصيون والرأي العام في الخارج مطولاً عن الأسباب العميقة التي دفعت بوش لوضع حد لنزاع لم يكن قد انتهى نهائياً في رأيهم.

في الواقع، لم يكن هناك من حسابات سياسية إلا هذه:

على أثر حرب كانت قد قيدت بيد معلم، لفت انتباه الرأي العام لآخر مرّة على هذا الحدث.

رغب بوش بمشاورة شوارزكوف، فاتصل باول على الخط الخاص الذي يربط البيت الأبيض بقائد القوات الحليفة. قال شوارزكوف إنه «يفضل أن يتصرف بعد اربع وعشرين ساعة لكنه يفهم اسباب الرئيس. واضاف ان صدام بات يملك القليل من المعدات مما لا يسمح له بأن يكون خطراً على المنطقة».

ظهر بوش أمام «آلات التصوير» الساعة الواحدة والعشرين قائلاً

بمهابة وهدوء: «لقد تحررت الكويت، وهزم الجيش العراقي، وحققنا اهدافنا العسكرية». وأمر بإعلان وقف اطلاق نار مؤقت قد يدخل حيز التنفيذ اعتباراً من منتصف الليل بتوقيت واشنطن.

ودعا مسؤولين عسكريين للقاء نظرائهم من الحلفاء خلال الثماني والأربعين ساعة المقبلة بغية ترتيب النواحي العسكرية لوقف اطلاق النار، واعلن ايضاً أن أمين سر الدولة جيمس بيكر قد يتوجه الأسبوع المقبل الى الشرق الأوسط ليجري المشاورات اللازمة لإرساء سلام دائم.

لقد طرد شبح فيتنام نهائياً

كانت قلة الخسائر الأميركية مستغربة: اربعة قتلى وواحد وعشرون جريحاً خلال الهجوم البري. مئة قتيل أو اكثر بقليل في الحرب جملة.

وكانت اربعون فرقة عراقية واكثر من اربعمائة دبابة قد دمِّرت تماماً، بينما لم تتعد خسائر الحلفاء العشر دبابات أو اكثر بقليل.

ووفقاً للتقديرات السرية التي نقلتها القيادة فإن ثلاثة آلاف وسبعمائة وثمانٍ دبابات عراقية من اصل اربعة آلاف ومائتين وثمانين حشدت داخل الكويت وحواليها قد دمِّرت أو استولي عليها.

كان المسؤولون العسكريون في الجيوش الحليفة وهم كثيرو الكلام عن تدمير المعدات لدى العدو، يبدون كتماناً تاماً حول حجم الخسائر البشرية في الجهة العراقية. يحكي «افيجيني بريما كوف» في روايته عن مسلسل ذي معنى. كان في شهر تشرين الأول وخلال زيارة رسمية قام بها إلى واشنطن، التقى السفير السعودي بندر بن سلطان، وكما يقول بريما كوف: لقد نفى الدبلوماسي تماماً امكانية ظهور نتائج خطيرة تخلف العمل العسكري. وقال للسوفييتي:

ـ إنكم تبالغون كثيراً. إني اقود طائرة مطاردة ويمكنني التأكيد، وأنا على علم تام بذلك، أن هجوماً على العراق في حال استمر صدام حسين في عناده ولم يسحب جيوشه، لن يستغرق إلا بضع ساعات، يسوّي بعدها كل شيء.

لا تغالوا بتقدير عدد الضحايا الممكنة. ستعاد العملية بواسطة احدث الوسائل الإلكترونية ويكون لها طابع عملية جراحية. وحين انتهت الحرب، كان بندر بن سلطان أول من الح بحجم الخسائر العراقية. فقد اخبره المسؤولون العسكريون السعوديون أن هناك على الأقل بين ٨٥,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ جندي عراقي في عداد القتلى، وهي معلومات لم تسترع أي انتباه وقد التقت هذه الأرقام مع معلومات البنتاغون التي قدرت عدد القتلى العسكريين العراقيين بأكثر من مائة الف.

لقد عمت البهجة الوطنية الهائلة الشعب الأميركي برمته، وكان باستطاعة جورج بوش أن يؤكد ولا يخشى التكذيب: «لقد طرد شبح فيتنام نهائياً».

صرَّح الجنرال «ميريل ماك بيك» قائد سلاح الطيران العام: «وفقاً لقناعتي الشخصية، فإنه لأول مرَّة في التاريخ، تهزم قوة جوية عدوة، جيشاً على ساحة القتال».

كان هذا القول صحيحاً وغير دقيق في آن معاً. فالعراق قد اخضع لقصف جوي لا مثيل له في التاريخ العسكري خلال ثلاثة واربعين يوماً. غير أن مسؤولي البنتاغون كانوا يملكون أرقاماً بقيت طي الكتمان وتظهر واقعاً فيه فوارق دقيقة.

لم تكن القذائف الموجهة بواسطة الليزر وسواها من الصواريخ الدقيقة الصنع التي طالما أثني على مهارة نتائجها، تمثل إلا ٧٪ من مجموع القنابل التي اسقطت على الأهداف العراقية. أي ٦٥٢٠ طناً من أصل أكثر من ٨٨,٥٠٠، وهو عدد مدهش، قذفت بها اهداف العدو.

ودائماً حسب تقييم البنتاغون فإن ٨١,٩٨٠ طناً من القنابل «التقليدية» غير الموجهة، كانت قد اعطت نتائج دقيقة تساوي ٢٥٪. وثمة ارقام أكثر إثارة للذهول: إذ بينما كانت الأسلحة الحديثة الصنع تصيب اهدافها بنسبة ٩٠٪، كانت هناك ٧٠٪ من القنابل التقليدية التي اسقطتها القوات الأميركية على العراق والكويت قد اخطأت اهدافها.

واشارت احدى عمليات التقييم إلى أن ٢٦٣٦٣ طناً من القنابل قد اصابت الأهداف المحددة، فيما ٦٢١٣٧ طناً منها قد اخطأتها.

لم يكن يوجد بالمقابل أي رقم يختص بتقييم الخسائر المدنية.

هل يجب استبدال صدام حسين

كانت مسألة مستقبل العراق قد شكلت موضوع مناقشات عنيفة داخل المجموعة الصغيرة المحيطة ببوش والتي عليها اتخاذ القرارات.

وقد ذكرت عدة سيناريوات عرف البعض منها بداية تطبيقة.

كان روبيرت غايتس على تعاون وثيق مع ادارات السي. آي. إي فيما يتعلق بهذه المسائل ودون العودة بها غالباً إلى وليم وبستر، المغضوب عليه بصفته مديراً. لقد طرحت خاصة امكانية الاستفادة من الوجود

العسكري الحليف من أجل خلق دويلة صغيرة في جنوب العراق تشرف عليها المملكة العربية السعودية بدقة. وقد يستطيع بعض الأسرى العراقيين المتطوعين أن يشكلوا جيش هذه الدولة الوهمية.

إن الطراز الذي حاول الأخصائيون الأمير كيون إعادة اخراجه هو ذلك الموجود في جنوب لبنان، حيث تحتفظ إسرائيل بمنحدر، مسلحة وممولة ميليشيا تسيطر عليها تماماً. كانت حسنات هذه الصيغة تكمن في إضعافها للعراق مباشرة وذلك بتفتيته وتأمين «منطقة عازلة» للسعوديين، تقيهم من طموحات جارها المحتملة. غير أن جورج بوش رفض هذا المخطط، كما رفضه على أي حال الرسميون السعوديون الذين تم الإتصال بهم معتبرين أن نتائج مثل هذه المبادرة السياسية قد تكون تبعاتها شديدة الثقل بالنسبة للمنطقة. وعلى عكس ذلك، فإن فكرة خلق «جيب ضغط» في كردستان، قد تنال صدى ملائماً لها بين المسؤولين الأميركيين حتى ولو أن البعض منهم كان يخشى ردود فعل سوريا وتركيا، وهما حليفان توجد على اراضيهما اقليات كردية.

لقد ارسل إلى بعض الزعماء الأكراد دعماً ضمنياً وفيه من اللبس ما يكفي لأن يكذب في أول مناسبة.

في الوقت ذاته كان «اخصائيون» اميركيون آتون عبر تركيا، يجتازون الحدود ليصلوا إلى كردستان.

لقد ارتكزت الحسابات الأميركية على تأكيدين: فصدام حسين الذي واجه انهزاماً عسكرياً على هذا القدر من الإذلال، لن يكون بمقدوره مقاومة عصيان ما، ومن ناحية اخرى، كانت ايامه معدودة. ولم تكن ادارة بوش تعتقد أن قوات المعارضة العراقية، وهي ضعيفة ومنقسمة

بإمكانها أن تشكل بحد ذاتها خياراً لكنها تفكر بأن حلفاً ما قد يبر ز داخل حزب البعث والقوات المسلحة.

قال مسؤول اميركي «لم ننجح في تحديد هوية مجموعة عراقية سياسية قد تستطيع أن تحل محل صدام حسين». وأضاف: «من الواضح أننا فضلنا إيجاد بنية سياسية لا يسيطر عليها البعث، غير أنها لم تكن موجودة». إن القناعة بأن العد العكسي قد بدأ بالنسبة لصدام حسين، كانت تغذي الكلمات والتحليلات. وعندما قمع صدام حسين بعنف التمرد الشيعي ثم الكردي المتزايد ضخامة، وجدت الإدارة الأميركية نفسها فجأة بلا سيناريو مرض مما اضطرها إلى الارتجال.

لقد زعم بعض المراقبين المشككين أو المنتقدين أن الإدارة كانت قد وعت الحرب تماماً لكنها أهملت المشاكل التي قد تنشأ بعدها.

إنه تحليل لا أساس له جزئياً: فمنذ شهر كانون الثاني ومسؤولو البنتاغون والبيت الأبيض ووزارة الخارجية يعملون على سيناريوات ما بعد الحرب والدور الذي يجب أن تقوم به الولايات المتحدة. وحتى أنه عرض مخطط على جيمس بيكر في منتصف شهر شباط، يرتكز على خمس نقاط:

الأولى، وتتمثل بعقد اتفاقيات جديدة فيما يتعلق بالأمن مع بلدان الخليج، ومنها ايران والعراق، لترسيخ توازن القوى في هذه المنطقة، وابعاد كل محاولة من شأنها أن تسلط بلداً على جيرانه.

الثانية، وتلحظ اتفاقاً حول السيطرة على التسلح، وخاصة القيود المفروضة على البلدان المنتجة، لمنع دولة كالعراق من العودة إلى التسلح.

الثالثة، وترتكز على ضرورة ايجاد حل للمشكلة الفلسطينية

والخلاف الإسرائيلي العربي، المعتبرين أساساً لعدم الاستقرار الموجود في هذه المنطقة.

الرابعة، وتوحي بإقامة برنامج اعادة بناء اقتصادي لتهدئة الضغوطات بين دول المنطقة.

أما الخامسة والأخيرة فتتبني «استراتيجية حقيقية» لتخفف الولايات المتحدة من تبعيتها بالنسبة للبترول المستورد.

لقد وسّع هذا المخطط أيضاً نقطة بالغة الأهمية: وهي طبيعة الوجود العسكري في هذه المنطقة. إذ أوصى بالإبقاء على قوة بحرية في الخليج وباتفاقات منفردة مع دول عديدة في المنطقة، تمكنها من ايداع معدات عسكرية في أراضيها. اضافة إلى مشاركة القوات الأميركية في تمارين عسكرية مشتركة.

وقد أبعد وجود أميركي عسكري دائم ـ سبق وأن بحث في وقت ما ـ في الكويت. وبدت المشاكل السياسية التي طرحها مثل هذا التدخل بالغة الأهمية وصعب السيطرة عليها. فثمة طرفة وردت تأييداً لهذه الصعوبات: فقد سأل الدبلوماسيين الأميركيين أثناء الحرب، أحد الشخصيات الدينية السعودية، عن رأيه في الجيوش المسيحية التي جاءت تدافع عن بلده فأجاب: «لقد علم القرآن الكريم أن الرجل الذي فتك به الجوع، يحلل له أكل لحم الخنزير».

لقد اثار مشروع «النظام العالمي الجديد» الذي ذكره بوش، الشكَّ في الشرق الأوسط، وكان بنيامين زيف بيغن، وهو عضو في البرلمان الإسرائيلي وابن رئيس الوزراء السابق مناحيم بيغن يلخصه بملحة قائلاً: «هؤلاء الذين يدعون إلى نظام جديد» في الشرق الأوسط يعاملون بكثير

من التسامح هذه المنطقة المضطربة إذ يتخيلون أنها قد عرفت سابقاً «نظاماً قديماً» .

كان بيكر الذي بدأ بالتجوال في هذه المنطقة مباشرة بعد الحرب، قد اكتشف أن التشنجات القديمة وأنواع الرفض تميل إلى فرض نفسها من جديد.

كان أحد المراقبين يقول: «يوجد ثوابت سياسية لا تتغير في الشرق الأوسط، فعندما أكون في غاية الضعف، كيف يمكنني أن اتقدم بتسويات؟ وعندما أكون قوياً، ما الذي يجبرني على ذلك؟ .

نصر مبهم

لقد شكل السادس من آذار بالنسبة لبوش يوم نصر حقيقي. فشارك في السهرة مع اعضاء الكونغرس الحاضرين بأكملهم. كانت الحفلة تنقل مباشرة عبر التلفاز، وعندما دخل القاعة، استقبل بحفاوة، وأصغى أولاً إلى توماس فولاي المتحدث باسم غرفة الممثلين يقول له: «تقبل أحر تهانينا بانتصار عملية عاصفة الصحراء الرائع» .

في ذلك المساء، عم الشعور بالنصر ليس فقط البرلمانيون الموجودون، ولكن الأكثرية الهائلة من الشعب الأميركي. أخيراً، كانت أميركا في نهاية ستة اشهر من الأعمال الدبلوماسية والعسكرية، التي تمت بفاعلية ملحوظة، قد أوقفت الانحطاط الذي يبدو وكأنها قد استسلمت له. «وفيما كان صدام حسين يتنزه بين الأنقاض ـ وفقاً للكلمات التي استعملها بوش في خطابه ـ بدأت الولايات المتحدة احتفالاتها بالثقة المستعادة».

إن هذه القوة العالميةالتي أذلت بالأمس في فيتنام وايران، فرضت

نفسها من الآن وصاعداً، كقوة عظمى وحيدة على وجه الأرض، قادرة في آن واحد على التوحيد بين النفوذ السياسي والقدرة العسكرية والقوة الاقتصادية.

وذكر بوش العودة القريبة للجيوش المتمركزة في الخليج ورغبته في «أن يرمّم الهوّة الموجودة بين إسرائيل والدول العربية من جهة وإسرائيل والفلسطينيين من جهة أخرى». كان جيمس بيكر على أهبة الذهاب إلى الشرق الأوسط.

لم يكن في علم أحد أن الخطاب الذي ألقاه بوش ذلك المساء قد اجريت عليه تعديلات في اللحظة الأخيرة. فقد تضمن سبع كلمات فقط إلا أنها اثقلت بالمعاني. لقد صرَّح الرئيس الأميركي في النص الأصلي بحذر: «لا يستطيع حتى النظام الجديد أن يؤمن عهداً ابدياً من السلام». فوجد مستشاروه الصيغة شديدة السلبية والتشاؤم، ثم أضاف نزولاً عند رغبتهم: «إنها مساندة يجب أن تكون من مهامنا».

بدا بوش فجأة أكثر اعتدالاً في مشاريعه، وكأنه أدرك أن السلام يشكل تحديا، والرد عليه اكثر تعقيداً من الحرب.

كتب «اندري روزونتال» في «نيويورك تايمز» ما يلي: في الواقع، إن تصميم الرئيس على وضع حد للتوسع العراقي، كان يعكس تخوفه من أن يصبح «نيفيل تشمبرلن» جديداً. أما الآن ومع خطابه في الكونغرس، فهو امام موقف قد يرفض فيه التشبيه بـ «وودرو ويلسون» الذي كان يحلم بسلام عالمي. على أي حال، لقد صرَّح بوش للبرلمانيين: «إن الحرب ضد العراق لم تكن « دفاً لإنهاء كل الحروب».

وكان أحد أعضاء ادارته يلخص ذاك القول بابتذال أكثر

قائلاً: «كان علينا أن نشير إلى عدم رغبتنا في التدخل أينما كان عبر العالم، نعم لدفع الديموقراطية قدما» ولكن تدريجياً وبطريقةحكيمة، كما هو الحال تقريباً في اوروبا الشرقية».

الفهرس

في السادس عشر من شهر يناير (كانون الثاني) عام ١٩٩١، وفي الساعة التاسعة عشر بتوقيت واشنطن، أعلن جورج بوش بدء عملية «عاصفة الصحراء»، والهدف: تحرير الكويت.

وقد أعاد أريك لوران ـ مؤلف ـ كتاب «حرب الخليج» مع بيار سالينجر ـ بدقة مدهشة، بناء الأوقات العصيبة لهذا الصراع.

في ليلة من ليالي شهر اكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٩٠، في تلك الليلة حيث تم تأجيل التوقيت المقرر للهجوم. كنّا في المكتب البيضاوي للرئيس، نحضر اللقاءات السرية في غرفة «العمليات» التي تخرج منها عادة قرارات الحرب وقرارات افساد النفوس. تابعنا المحاولات اليائسة، عبر الهاتف، للرئيس غورباتشوف لانقاذ صدام حسين. واستمعنا لحوار الفرصة الأخيرة بين طارق عزيز وجيمس بيكر في جنيف. واكتشفنا الجهود الدراماتيكية التي بذلها بوش لمنع إسرائيل من الرد على صواريخ سكود العراقية.

لم تحدث حرب حتى الآن، تم تحضيرها وتنفيذها بهذه الدقة، كما هذه الحرب. حيث كان جورج بوش طوال سبعة اشهر، هو الذي قرر كل شيء، ونظم كل شيء وسيطر فيها على كل شيء، بمساعدة مستشاريه الخمسة الاساسيين: بيكر، الدبلوماسي والمؤتمن على الأسرار. شيناي، وزير الدفاع الدقيق والعنيد. كولن باول، الاستراتيجي. سكوكروفت، الموجه الخفي. وشوارزكوف، التكتيكي العظيم.

وبفضل المعلومات المستقاة من أعلى المصادر في واشنطن، جدّد اريك لوران رهانه، ليسرد علينا هذه القصة المدهشة، كما لو أنها تحدث من جديد تحت اعيننا.